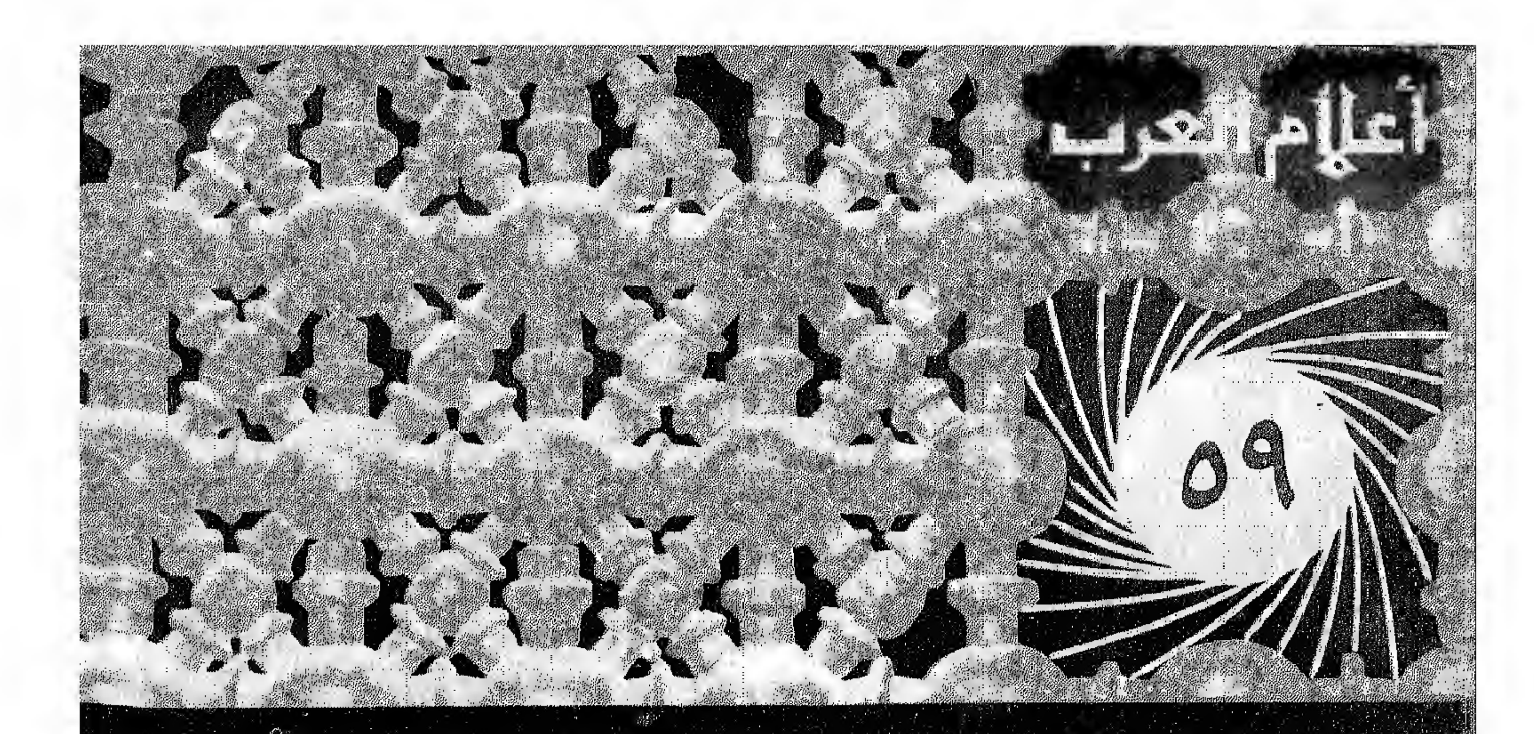


المأمون

الخليفة العالم

بقلم

الدكتور محمد مصطفى هدارة

الدار
المصرية
للتأليف
والترجمة

اهداءات ٢٠٠٠

المهندس/ راداميس اللقانى

الإسكندرية

أعلام العرب

٥٩

المأمون

الخليفة العالم

بقلم

الدكتور محمد مصطفى هدارة

الدار المصرية للتأليف والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعتبر المأمون من أعظم الشخصيات الحاكمة التى نعتز بها فى تاريخنا العربى ، فقد ظهر فى فترة ازدهار علمى كانت بداية لتفتح ينابيع الثقافة العربية التى ظلت مؤثرة فى حضارة العالم قرونا طويلة . وظهر فى فترة حرجة كانت تهتز فيها الخلافة العربية أمام أطماع الشعوبيين وأصحاب النحل والعقائد الشاذة الذين لا يريدون الخير للعرب ولا للاسلام .

وكان المأمون بطلا فى مواجهة مشكلات عصره من الناحيتين السياسية والحربية ، ولكن جهده الأكبر الذى ظل باقيا يشهد بفضله دفعه للحركة العلمية بما وهبه الله من حرية الفكر واتساع الأفق والمحبة والتقدير للعلم والعلماء .

ثم كان المأمون بعد ذلك كله قوة صامدة أمام مغريات عصره لا يجرفه تيارها ولا تهتز عواطفه أمام سلطان عقله ، فاذا انضافت الى ذلك صفات نادرة قلما تجتمع فى شخصية واحدة ، أدركنا أن المأمون جدير بالكتابة عنه لا كشخص فرضه علينا التاريخ ، ولكن كانسان فرض نفسه على التاريخ واستحق أن يوضع فى أكرم مكان من صفحاته .

وقد كتب كثيرون عن المأمون ، ولكننى لم أجد فيما كتبوا صورة كاملة للانسان نفسه ، وكان السرد غالبا على كتاباتهم والاغراق

فى تناول عصر المأمون ومشكلاته دون جلاء صورته ذاتها ، ولهذا اهتممت بهذه الناحية ، وصرفت اليها عنايتى ، واستطعت ـ بقدر ما أسعفتنى المصادر التاريخية ـ أن ألمم جزئيات صغيرة فتصير صورة واضحة المعالم لشخصية المأمون أولا ولعصره والتطور الأدبى والعلمى فيه ثانيا ، وأرجو أن أكون قد اقتربت من الغاية التى نشدتها . والله الموفق لسواء السبيل .

محمد مصطفى هدارة

الاسكندرية فى أول يناير ١٩٦٦

الفصل الأول

صورة العصر

لعل من أهم العوامل المؤثرة فى الحياة الاجتماعية منذ القرن الأول حركة التقريب الجنسى التى أخذت سبيلها منذ بدء عصر الفتوح عن طريق السبى وهى نتيجة مباشرة لحركة الفتح ، وعن طريق الزواج بالكتابيات الفارسيات وغيرهن من الأجناس الأخرى ، وعن طريق الموالى وهم الأعاجم الذين أسلموا وكانوا عاملا هاما خطيرا فى نشر اللغة العربية فى المناطق المفتوحة ، وفى التقريب بين العنصر العربى والعناصر الأخرى .

والحقيقة ان سيل العناصر الفارسية بالذات كان من القوة فى القرن الأول وما تلاه ، بحيث كانت اللغة الفارسية تحتل مكان الصدارة فى العراق وفى خراسان ؛ وفى هذه المناطق التى كانت تتكلم الفارسية أصلا .

ومع هذا كله كانت عوامل التقريب تعمل عملها فى ادماج هذه العناصر المختلفة ومحو أسباب التنافر فيما بينها ، حتى اذا أوشك القرن الأول على الانتهاء ، كان المجتمع الاسلامى قد ظهرت ملامحه واتجاهات حياته وخصائصه بوجه عام . ففى خراسان — كما فى غيرها من المناطق المفتوحة — نجد ان العرب الذين هاجروا اليها واستوطنوها قد تأقلموا فى وطنهم الجديد ، وأحسوا أنهم جزء منه ، وبذلك اندمجوا فى حياته الاجتماعية اندماجا كاملا حتى انهم

كانوا يلبسون السراويل كما يلبسها أهـــل خراسان ، ويشربون النبيذ ، ويحتفلون بعيد النيروز والمهرجان ، ويشاركون فى كل مظهر كان الخراسانيون يجعلونه سمة لمجتمعهم . ولم يكن معنى هذا ذوبان الجنس العربى القليل العدد فى المجتمعات المحلية للأقاليم المفتوحة ، ولكن كان معناه اندماج العرب فى حياة هذه المجتمعات ، وسرعة انتشار اللغة العربية وآدابها أيضا . ويبدو ان انتشار حركة التشيع فى العراق وخراسان بصفة خاصة قد ساعد عـلى سرعة اندماج العرب والأعاجم فى تلك المنطقة .

ومما لا شك فيه أن العرب ــ بدرجة تحضرهم المحدودة ــ لم يستطيعوا أن يتجنبوا المؤثرات الحضارية القوية التى تسلطت عليهم من الحضارتين البيزنطية والفارسية على السواء ، وكانتا أرقى حضارتين فى العالم فى ذلك الوقت ، فأقبلوا على ما فيهما من فخامة وأبهة فى الثياب والدور والمأكل والمشارب وأفانين اللهو والاستمتاع بالملذات ، لهذا وجدنا فتى عربيا كيزيد بن معاوية ــ وهو بعد قريب من عهد الرسول ــ يقبل على الخمر اقبال النهم حتى انه كان يسمى « يزيد الخمور » ، كما يقبل على الصيد وأنواع الملاهى غير متحرج ، يقول المسعودى فى ذلك : « وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب .. وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهى وأظهر الناس شرب الشراب .. وكان له قرد يكنى بأبى قيس يحضره مجلس منادمته ، ويطرح له متكأ ، وكان قردا خبيثا ، وكان يحمله على أتان وحشية قد ريضت وذللت بسرج ولجام ، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة ! » وهذا النص ــ ان صح ــ يطلعنا على التحول الكبير الذى طرأ على شكل المجتمع الاسلامى منذ وقت مبكر من القرن الأول الهجرى ، وهو يشير الى بدء تحلل المجتمع من ارتباطه بالدين والحيـــاة الاسلامية التى أخذ بها نفسه فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين ،

ويقول ڤون كريمر فى ذلك « انه على الرغم من تحريم القرآن ادخلت فى بلاط الخلفاء الأمويين عادة شرب الخمر فى زمن متقدم ، شربوا أولا عصير العنب المغلى (الطلا) أو شرابا مأخوذا من اليونان سموه بالاسم اليونانى (رساطون) ». ويشير نص المسعودى أيضا الى بدء انغماس المجتمع فى المظاهر الحضارية التى تصاحب اتساع رقعة الدولة وتدفق المال اليها من كل جانب ، وما مظاهر الحضارة الا هذه التى أخذ بها أمثال يزيد بن معاوية انفسهم ، فالحضارة كما يقول ابن خلدون « تفنن فى الترف واحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمبانى والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله ، فلكل واحد منها صنائع فى استجادته والتأنق فيه ، وهى تتكثر باختلاف ما تنزع اليه النفوس من الشهوات والملاذ ، والتنعم بأحوال الترف وما تتلون به من العوائد » .

وهكذا أخذت الحياة الاجتماعية العربية تتعقد بتأثرها بحضارات مختلفة ، وأصبح شرب الخمر فيها والعكوف على الملذات شيئا طبيعيا ، ومظهرا من مظاهر الحضارة فى هذا العصر . ولم تكن دمشق — عاصمة الخلافة الأموية — وحدها عاكفة فى جانب من جوانبها على هذا النوع من الحياة ، لأن تغير المجتمع الاسلامى لم يكن تغيرا اقليميا محليا ، بل كان تغيرا واسعا شاملا ، لهذا نرى قسما من المجتمع فى الكوفة والبصرة يعيش على الشهوات والمتعة واللهو والشراب ، بل حتى الحجاز نفسه تعرض لهذا التغير الاجتماعى ابان القرن الأول فازدهر فيه الغناء والايقاع وفنون اللهو والعبث ، وكان فيه من يقبل على الشراب أيضا كابن هرمة وغيره . ويقول الأصفهانى انه حتى فى أيام عثمان كان ابن سريج يغنى (وكان عوده على صنعة عيدان الفرس ، وهو أول من ضرب به على الغناء العربى بمكة) . وقد بلغ تعلق الناس بأنواع الفنون

واللهو حدا كبيرا نستطيع أن نتمثله فيما رواه الطبرى اذ قال : أوتى هشام بن عبد الملك برجل عنده قيان وخمر وبربط . فقال : اكسروا الطنبور على رأسه ، وضربه ، فبكى الشيخ ، فقال له أحـــد الجالسين يعزيه : عليك بالصبر ! فقال : أترانى أبكى المضرب ، انما أبكى لاحتقاره للبربط اذ سماه طنبورا (١) .

وما ان بلغ القرن الأول غايته حتى كان تيار اللهو والمجـــون قد اتخذ مجرى له فى حياة الجماعة الاسلامية ونستطيع أن نتمثل مدى ما وصل اليه فى شخصية الوليد بن يزيد ، تلك الشخصية التى يعتبرها طه حسين مظهر الحياة الجديدة التى أخذت تظهر فى أول القرن الثانى للهجرة ، ويصوره بأنه كان مشغوفا أشد الشغف بنوع جديد من الحياة المادية والعقلية ، وأنه كان متعلقا أشـــد التعلق بهذا النوع من الحضارة الجديدة . ولكن أى نوع من المظاهر كان لتلك الحضارة الجديدة ؟ لقد كانت تتمثل فى امعان الوليد وكثرة من أهل عصره فى التحلل مما يفرضه عليهم دينهم . فقد وقر فى نفوسهم بعد اتصالهم بألوان الحضارة المختلفة أن الحرية الدينية معناها أن يفعل كل امرىء ما يحب وما يشتهى دون أن يخشى مـــلاما أو رقيبا . فما يمنع من الشراب اذن والتفنن فى مجالسه ؟ وما يمنع من الاباحة الاجتماعية فى كل صورها وأشكالها ؟ ما الذى يمنع الوليد من أن يصنع قبة على قدر الكعبة ويحاول أن ينصبها فوقها لتصير مجلس شراب من نوع مبتكر جديد ، يجلب له المتعة واللذة لمجرد احساسه بأنه يمارس حريته الدينية التى كفلتها له الحضارة الجديدة ؟ ! وما الذى يمنع الوليد من أن يرسل الى الكوفة فى طلب خلعائها وشعرائها الماجنين فيسمع منهم من

(١) البربط العود معرب لفظة بربط الفارسية ومعناها صدر الأوز لأنه يشبهه، والطنبور آلة أخرى معرب لفظة دنبه بره الفارسية ومعناها ألية الحمل لأنه يشبهها .

ألوان المجون ما يطرب له ويسكر عليه ؟ وهو اذا شاء أن يستمتع بالغناء بعث بريده الى المدينة فى طلب معبد ، فاذا جاء دمشق . هيئت للوليد بركة خمر وماء ، حتى اذا انتشى من الغناء وأخذ الطرب بمجامعه ألقى بنفسه فى البركة فنهل منها نهلة ، ثم أتى بأثواب غيرها وتلقاه الخدم بالمجامر والطيب . والوليد لم يكن يستحى أن يسخر وسائل الدولة وأجهزتها فى تلبية مطالب لهوه ، واستجابة لهواه ولذته ، فهو يكتب الى والى خراسان ليبعث اليه برابط وطنابير .

أما ملابس الوليد وطبقة السراة فى المجتمع فقد تأنقوا فيها أشد التأنق ، وتغالوا بها أشد المغالاة ، حتى بلغ من تأنقهم أنهم كانوا يلبسون عقود الجواهر ويغيرونها فى اليوم مرارا ، كما تغير الثياب شغفا ، ويبدو أن فتنة الوليد بمظاهر الحياة المادية واغراقه فيها ، كانت على مبدأ (أطيب اللذات ما كان جهارا بافتضاح) الذى شاع فيما بعد فى العصر العباسى ، ولكن هذا المبدأ صدم الشعور العام ، ونجح منافسو الوليد فى تهيئة أذهان الناس للثورة عليه ، غضبا لله وللدين ، كما جاء فى قولهم له : ما ننقم عليك فى أنفسنا ، ولكن ننقم عليك فى انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك واستخفافك بأمر الله .

وقد حاول بعض الباحثين من القدماء والمحدثين الدفاع عن الوليد بن يزيد باعتبار أن أغلب الروايات التى صورت لنا اباحيته مكذوبة ، ولكنى أرى أن الوليد كان صورة صادقة لما وصلت اليه ناحية من الحياة الاجتماعية فى عصره ، من عكوف على الملذات وانكباب على اللهو .

وما لنا ننكر على الوليد هذه الحياة العابثة ، ولاننكر على كثير من معاصريه ممن لم تتح لهم الفرص التى أتيحت للوليد فعاونته

على اللهو والعبث ، من السلطان والجاه والأموال ، فهذا هو الطبرى يروى لنا قصة تمثل الحياة الاجتماعية فى بداية القرن الثانى ـ حوالى العصر الذى عاش فيه الوليد ـ يقول فيها : انه عندما هزم مروان بن محمد سليمان بن هشام بن عبد الملك ، أمر بقتل كل الأسرى ما عدا العبيد ، فأتى بخال لهشام يقال له خالد بن هشام المخزومى ـ وكان بادنا كثير اللحم ـ فأدنى اليه وهو يلهث ، فقال له : يا فاسق ، أما كان لك فى خمر المدينة وقيانها ، ما يكفك عن الخروج مع الخراء تقاتلنى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أكرهنى فأنشدك الله والرحم ! قال : وتكذب أيضا ؟ كيف أكرهك وقد خرجت بالقيان والزقاق والبرابط معك فى عسكره ؟

الى هذا الحد اذن وصلت الحياة الاجتماعية فى أواخر العصر الأموى وبداية العباسى ، وبطبيعة الحال لا يمكننا أن نقول ان هذه الصورة تمثل تماما طبقات المجتمع العربى بجميع أفرادها فى ذلك العصر ، ولكنها على أية حال تعطينا فكرة واضحة عن تيار وجد فى هذا المجتمع ، ولعله أثر فى أغلبية أفراده على تفاوت هذا التأثير بينهم . وهذا لا ينفى وجود فئة جادة مقيمة على دينها ، محافظة على تقاليدها ، حتى مع غناها وثروتها ، كما أن هذا أيضا لا ينفى وجود طبقة أخرى من الفقراء المعوزين أو متوسطى الحال الذين كان يشغلهم فى هذا المجتمع كفاحهم فى سبيل الحصول على أسباب الحياة ، فما بالك بعقود الجوهر وما أشبه ؟ ومع هذا فدارس العصر يخرج بنتيجة مؤكدة تتصل بهذا الحديث ، وهى أن التهتك والمجون لم يتناسبا طرديا مع الغنى والجاه ، وعكسيا مع الفقر والمتربة ، فهذا التناسب لا يمكن أن يكون حقيقيا فى أى مجتمع انسانى . فقد نجد معوزا يشتهى كسرة خبز ، ومع ذلك فهو أكثر تهتكا من الخليفة الوليد بن يزيد نفسه ذى الجاه والسلطان والأموال ، والعكس قد يكون صحيحا أيضا . والسبب فى هذا

يرجع – فى رأيى – الى عناصر معينة فى شخصيات أفراد المجتمع ، كما يرجع الى طبيعة بيئتهم ونشأتهم ومدى تأثرهم بالدين ، ومقدار خضوعهم للمؤثرات الحضـــارية . وعلى أية حال كانت المؤثرات والعوامل التى تدعو الى التهتك والفتنة على نطاق واسع شائعة ميسرة فى هذا العصر . فالمجتمع العربى كان يتكون من طبقات ثلاث شأن أى مجتمع : عليا ، ووسطى ، وسفلى . ولكل داخل هـذه الطبقات كانت توجد عناصر مختلفة فى مكانتها الاجتماعية ، وفى الدور الذى تقوم به فى مجتمعها . كانت هناك فئة من العرب تدفقت عليهم الأموال من كل جانب : من الفتوح ومن العطاء ومن التجارة والزراعة ، وكانت هناك فئة أخرى من العرب تعيش حياة متوسطة وتكسب عيشها من أى سبيل : الخدمة فى الجيش أو المتاجـــرة البسيطة ، أو ما أشبه . وكان هناك غير العـــرب الموسرين وغير الموسرين طبقة الموالى بالعتاقة أو بالولاء ، وهؤلاء كان عددهم ضخما فى المجتمع الاســـلامى، وكان دورهم فيه يتناسب مع ضخامة عددهم . وقد كون هؤلاء الموالى مع العرب عدة روابط متشابكة فى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وأقبل العرب على الزواج من نسائهم – فتوثقت الصـــلة بين الفريقين وامتزجت العادات والثقافات .

وكان هناك عدا العرب والموالى طبقة الرقيق ، وهى طبقة هامة جدا ، على الرغم من هوان شأنها فى المكانة الاجتماعية ، اذ كان تأثيرها خطيرا جدا فى المجتمع الاسلامى . لقد انتشر الرقيق بأجناسه المختلفة انتشارا عظيما على أثر الفتوحات الواسعة التى قام بها المسلمون فى مختلف أقطار الأرض ، حتى انه لم يكن يخلو بيت فى ذلك العصر من الرقيق ، وأصبحت الجوارى فى متناول كل فرد فى المجتمع ، كل حسب مقدرته المادية . وكان مباحا للسيد أن يتسرى من شاء من جواريه ، ومن تلد منهن له تسمى أم ولد ،

وتصبح لها حقوق اجتماعية جديدة ، فلا يحق لمالكها أن يبيعها أو يهبها ، بل تبقى حلا له حتى يموت ، فتصير عندئذ حرة تجرى عليها أحكام الحرائر . وبطبيعة الحال كان أولاد الاماء من سادتهن احرارا بحكم العرف الاجتماعى . ونستطيع أن نتصور مدى تأثير الرقيق فى المجتمع الاسلامى لو نظرنا فقط الى هذه الطبقة الجديدة من أولاد السادة من امائهن ذوات الجنسيات والعادات والثقافات المختلفة . ومما زاد فى عظم أمر هذه الطبقة تعاقب الخلفاء من نسل أمهات الأولاد منذ أواخر العصر الأموى ، وأعتقد أن أول هؤلاء الخلفاء هو يزيد بن الوليد الذى جاء الى الحكم فى أعقاب الربع الأول من القرن الثانى (عام ١٢٦ هـ) وأمه اسمها شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد .

وتعاقب الخلفاء ممن أمهاتهم أمهات أولاد بعد ذلك حتى لا نكاد نعثر الا على أفراد منهم من نسل أمهات عربيات ، وخاصة فى العصر العباسى . بل هناك ظاهرة تسترعى الانتباه حقا وهى زواج الخلفاء بحرائر عربيات وندرة وجود نسل منهن ، بعكس كثرة نسل الخلفاء من الجوارى ، فالرشيد مثلا تزوج بست حرائر أنجب ولدين من اثنتين منهن ، ولم ينجب من بقيتهن ، وتسرى احدى وعشرين جارية أنجب منهن عشرة من الذكور ، وأربع عشرة بنتا . ولابد أنه تسرى عددا آخر غير هؤلاء لم ينجب منهن . والرشيد مجرد مثال يصدق على غيره من خلفاء هذا العصر ، وهو يطلعنا الى أى مدى كان المجتمع العربى يتحول من ناحية تكوينه الجنسى ، ويستتبع ذلك تطور خصائصه النفسية والفكرية بوجه عام ، وتبدل ذوقه وميوله .

ونرى هذا التبدل واضحا فى كل شىء ، فى النفوس والعقول ، وفى المظاهر الشكلية أيضا .

فقد تأثرت الأزياء والأعياد بنظم الحضارات الأجنبية وكذلك

حركة البناء والعمران والأطعمة والأشربة ، وأصبح الناس فى القرن الثانى يهتمون باقامة القصور الفخمة ، وأصبح الأثرياء يهتمون بزراعة البساتين الفواحة بالشذى ، وانشاء أحواض للسباحة ، وحدائق للحيوان . ولعل من أروع ما حكاه الرواة عن ترف البناء ذلك الوصف الذى نقلوه لنا عن الايوان الذى بناه الأمين والذى كان يسافر فيه البصر ، وقد جعل كالبيضة بياضا ، ثم ذهب بالابريز المخالف بينه باللازورد ، وكان ذا أبواب عظام ومصاريع غلاظ ، تتلألأ فيها مسامير الذهب ، قد قمعت رؤوسها بالجوهر النفيس ، وقد فرش بفرش كأنها صبغ الدم ، نقش بتصاوير الذهب ، وتماثيل العقبان ، ونضد فيه العنبر الأشهب والكافور المصعد . وأخذت ألوان الطعام تتعقد أيضا بتعقد أسباب الحضارة حتى لقد روى طيفور أن جعفر بن محمد الأنماطى الفقيه تغدى عند المأمون فذكر أنه وضع على المائدة ثلاثمائة لون من الطعام . وتغالى الكثيرون من الأغنياء فى شراء الجواهر الكريمة ، أكثر مما كان فى عهد الوليد بن يزيد ، حتى ان صالحا صاحب المصلى أيام هارون الرشيد اشترى فصا من عون العبادى بعشرين ألف دينار .

ولعلنا نستطيع أن نقول ان تأسيس بغداد فى أول الخلافة العباسية كان نقلة جديدة لتطور المجتمع الاسلامى واغراقه فى الحضارة ومظاهرها المادية ، وانغماسه أكثر فأكثر فى أساليب الحياة الأجنبية عنه ، تلك التى كانت تحياها الشعوب المتحضرة المغلوبة على أمرها . وحتى تخطيط بغداد يظهر فيه الأثر الفارسى — كما يقول عبد العزيز الدورى — اذ فصل الخليفة عن الرعية ، وجعل له مقاما ساميا يصعب الوصول اليه ، كما أن ضخامة القصر والايوان تظهر روعة الملك ، وفكرة استدارة المدينة وحصر بيوت السلطان فى أحياء منفصلة يمكن اغلاقها ليلا وحراستها بصورة دقيقة ، يشير الى السلطة المطلقة المقتبسة من الفرس ، والتى

تتعارض مع أرستقراطية العرب الأمويين ، ومع الديمقراطية الاسلامية على حد سواء .

والحقيقة ان انتقال الدولة الى المشرق جعل الحياة الاجتماعية — على حد قول الدكتور طه الحاجرى — معقدة مشتبكة النواحى اكثر من ذى قبل ، اذ تغالى المجتمع فى انصرافه الى الناحية المادية ، فأصبح المال ميزان الرجال ، وأخذ يتردد فى الأمثلة الجارية فى بغداد : المال مال وما سواه محال . ولهذا توسل الناس الى المال بشتى الوسائل ، لا يعفون عن محرم ، ولا يتورعون عن خبيث ، ولا يعبأون أن يتخذوا من المعانى الكريمة أسبابا يخادعون بها ، حرصا عليه واجلالا له ، حتى أصبحت مظاهر الدين شركا من شراكه . ويمضى الدكتور طه الحاجرى فى وصف هذا التطور الاجتماعى فيقول : ان هناك ظاهرة اجتماعية متصلة بهذه الحالة أشد الاتصال ، وتعد فى حقيقة الأمر من أولى العوامل المؤثرة فى قيامها ، وهى نشوء طبقة التجار الأثرياء فى البصرة وبغداد ، وهى الطبقة التى تقابل الطبقة البورجوازية فى الغرب ، وكانت تلك الطبقة فى البصرة أعظم ، اذ كانت ثغر العراق والمركز التجارى الخطير الذى يصل الشرق والغرب ، والذى يستقبل متاجر الهند وجزر البحار الشرقية ، ومن أجل ذلك كانت تسمى أرض الهند وأم العراق .

وكان من نتيجة هذا الاستقرار الاقتصادى فى البصرة وهذا الثراء ظهور حركة علمية نشيطة من علماء الكلام وغيرهم ، كما نشأت فى الوقت نفسه طبقة من المجان المستهترين بجميع القيم . وظهور هذين التيارين المتضادين كان نتيجة طبيعية لتدفق الأموال وشيوع الرخاء فى هذه المدينة التجارية النشيطة .

ولم تلبث بغداد بعد انشائها أن نافست البصرة فى ثروتها ورخائها ، ولم يغفل المنصور — عند اختيار موقعها — عن أهمية الوضع الاقتصادى فى حياة هذه المدينة ، فهو يقول : « انما أريد

موضعا يرتفق الناس به ، ويوافقهم مع موافقته لى ، ولا تغلو عليهم فيه الأسعار ولا تشتد المئونة ، فانى ان أقمت فى موضع لا يجلب اليه من البر والبحر شىء ، غلت الأسعار وقلت المئونة ، وشق ذلك على الناس » .

وهذا الاهتمام الكبير باستقرار الأوضاع الاقتصادية وتثبيت أسعار السلع الضرورية التى هى عماد الناس فى حياتهم فى كل مجتمع انسانى ، قلما نجده عند خلفاء بنى أمية فى القرن الأول وأوائل الثانى ، لهذا لا نستغرب ذلك الرخاء العظيم الذى ساد الحياة الاسلامية حتى عصر هارون الرشيد ، كما لا نستغرب ذلك الثراء الفاحش الذى بلغته الدولة فى سنوات قلائل من الحكم العباسى ، ذلك ان غنى الأفراد يستتبع فى ميزان الاقتصاد غنى الدولة . وقد جاء فى بعض المصادر أن الضرائب بلغت فى عهد هارون الرشيد ما يقرب من اثنين وأربعين مليونا من الدنانير ، عدا الضريبة العينية التى كانت تؤخذ من غلة الأرض .

وبلغت جباية الدولة فى أيام المأمون أربعمائة مليون درهم ما عدا الأموال والغلات مما لا نعلم حقيقة قيمته ، ومع أن الضرائب قد كثرت وتنوعت أيام العباسيين تنوعا كبيرا الا أننا لم نسمع تذمرا بين الناس من ثقل هذه الضرائب ، والسبب فى ذلك أنها كانت تتناسب — فيما يبدو — مع الرقى الاقتصادى الذى بلغته الدولة فى شتى المرافق وخاصة الصناعة .

وكانت النهضة الصناعية من بين أسباب الثروة التى أحرزتها الدولة الاسلامية أيام العباسيين ، كما كانت من أسباب الرقى الفكرى والنهضة العملية بمظاهرها وفروعها المختلفة . وقد أسهمت فى اشاعة عنصر الرخاء والطمأنينة بين طبقات الشعب على اختلافها فى القرن الثانى ، فكان الأغنياء يقيمون القصور الرائعة التى كانت وما تزال مثارا للخيال ، ودلالة على الترف فى أذهان الناس ممن يقرأون قصص ألف ليلة وليلة وما أشبه .

ومما يدلنا على اختلاف النظام الاقتصادى فى العصر العباسى عن نظام الأمويين تلك الملاحظة الطريفة التى سجلها ابن خلدون حين قال ان أعطية بنى أمية كان أكثرها من الابل ، أما فى عصر العباسيين فقد أصبحت الأعطية من أحمال المال وتخوت الثياب واعداد الخيل بمراكبها . وقد علل ابن خلدون ذلك بأن الأمويين كانوا يأخذون بمذاهب العرب ، وربما كان لذلك السبب نصيب من الصحة ، ولكنه ليس السبب الأهم ، فتطور الحياة الاقتصادية هو الأساس الأول لوجود مثل هذا الفارق .

والحقيقة ان تطور المجتمع فى منتصف القرن الثانى بعد قيام الدولة العباسية واغراقه فى مظاهر الحياة المادية ، يمكن أن يتصور فى حياة الخلفاء العباسيين أنفسهم . فحركة العمران وبناء القصور الفخمة كانت ماضية فى طريقها أيام المنصور وخاصة منذ ابتنى مدينته الجديدة بغداد وأخذت الثروة تتدفق اليها من كل مكان كما بينا ، ومع ذلك يجمع الرواة على أنه لم ير فى دار المنصور لهو قط ، ولا شىء يشبه اللهو والعبث . وقد غضب المنصور غضبا شديدا حين سمع فى قصره خادما يضرب للجوارى بالطنبور ، فقام اليه وحطمه على رأسه . وكتب عامل البريد الى المنصور بأن واليه فى حضرموت يكثر الخروج فى طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدها ، فعزله وكتب اليه : « ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ، ما هذه العدة التى أعددتها للنكاية فى الوحش ؟ انا انما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش » . وحدث أن بطح المنصور كاتبا له فنظر الى سراويله فاذا بها من الكتان فأمر بضربه قائلا : لا تلبس سراويل كتان فانه من السرف . وفى عهد المنصور — فيما يبدو — بدأ ظهور الزنادقة والمجان يستشرى فى المجتمع الاسلامى ، كما نفهم من سياق خبر أورده الطبرى . وقد أعانت على ظهور هذه الطبقة مجموعة من المؤثرات المختلفة : من سياسية وثقافية الى جانب التأثير الاجتماعى . ولكن يظهر أيضا أن حركة الزندقة فى هــذه

الفترة لم تكن قد وصلت الى حد الخطـــر الذى ينذر المجتمع الاسلامى بالانهيار .

وحين ولى المهدى الخلافة وجد خزانة الدولة عامرة بالأموال التى اكتنزها المنصور فأسرف المهدى اسرافا شديدا ، ويقـــول الخطيب البغدادى ان المنصور ترك فى بيت المال شيئا لم يجمعه خليفة قط من قبله ، فلما صارت الخلافة الى المهدى قسم ذلك وأنفقه . وهذه الثروة الطائلة التى خلفها المنصور اعترف بها فى وصيته لابنه اذ يقول له : « وانظر هذه المدينة (بغداد) قد جمعت لك فيها من الأموال ما ان تسر عليك الخراج عشر سنين ، كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور ، فاحتفظ بها فانك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا » .

وكانت شخصية المهدى أقل تزمتا من المنصور ، فكان يحب السماع ويستهتر بذكر النساء ، ولكنه كان لا يشرب النبيذ ، وان كان الطبرى يقول انه لم يكن يتحرج فيه ، ولكنه كان لا يشتهيه .

وقد نشطت حركة الزندقة فى عهـــده نشاطا كبيرا حتى لاح خطرها واستعان شرها ، ولهذا نجد المهدى فى أخبار عام ١٦٦ هـ يطلب الزنادقة فى كل مكان فاذا أقروا استتابهم وخلى سبيلهم ، فلما لم تجد معهم هذه الوسيلة نراه يأمر بحبسهم . وحين عاين المهدى أن حبسهم لم ينزع ما بنفوسهم جد فى طلبهم والبحث عنهم وقتلهم ، وذلك ابتداء من عـــام ١٦٧ هـ ، وأنشأ لأول مـــرة — فيما نعلم — منصب « صاحب الزنادقة » فكان فيه أولا عمر الكلواذى وعندما توفى تولى مكانه حمدوية ، وعلى يده قتل عدد كبير من الزنادقة فى بغداد عام ١٦٨ هـ . أما ترف المهدى فلم يكن بالشىء الكثير ، فهو لم يتعد فى هذا الميدان أن يكون أول من لعب الصوالجة فى الاسلام ، وأول خليفة حمل له الثلج الى مكة فى أثناء الحج .

ولم تنتقل الحياة الاجتماعية نقلة كبيرة أيام الهادى ، فمع انه

كان صاحب شراب ومجون ، الا انه جد فى طلب الزنادقة والقضاء عليهم طبقا لوصية أبيه المهدى ، ولكن هذه النقلة الاجتماعية الخطيرة حدثت أيام الرشيد ، اذ كانت عناصر الاستقرار فى الدولة قد رسخت ، وتدفق المال اليها من كل مكان ، فاشتد اغراق الناس فى ألوان الحضارة واندماجهم فيها ، وكان شعارهم فى ذلك (لا تؤخر لذة اليوم لغد) كما جاء فى قول هبة الله ابن ابراهيم بن المهدى وأصبحنا نجد أن عشق الرجل للمرأة وعشق المرأة للرجل لا ينظر اليه على انه من الأخبار الشخصية التى يجب أن تكتم عن الناس ، بل نجد فى هذا المضمار « علية بنت المهدى » تهوى خادمين فى قصر الرشيد هما طل ورشا وتكتب فيهما الأشعار الكثيرة صراحة . كما نجد أيضا أن عادة شرب الخمر قد مست حتى البيئات الدينية ، فالخطيب البغدادى يذكر لنا أن محمد بن الضو المحدث (ليس بمحل لأن يؤخذ عنه العلم لأنه كان أحد المتهتكين بشرب الخمور ، والمجاهرة بالفجور ، وكان أبو نواس يزوره فى الكوفة ، فى بيت خمار بالحيرة يقال له جابر) ونجد فى قصر الرشيد لأول مرة ابن أبى مريم المدنى (وكان مضحاكا له محداثا فكيها) أى أنه وجد فى ذلك العصر ما يسمى بمضحك الملك ، وهو منصب كان موجودا ــ فيما يبدو ــ عند ملوك الفرس الأقدمين .

ومع شيوع مثل هذه المظاهر الحضارية اللاهية منذ منتصف القرن الثانى ، الا أننا نستطيع أن نقول ان الحياة الاجتماعية حتى عصر هارون الرشيد كانت قائمة على شىء من التوازن بين الجد واللهو ، وهذا التوازن كان متحققا فى شخصية الرشيد نفسه ، اذ نجد فى أخباره المؤكدة انه كان الى جانب حب اللهو والعبث والاغراق فى الجانب المادى من الحضارة التى صنعتها المؤثرات الأجنبية المختلفة ، يستمع الى نصائح الوعاظ والصالحين ، فتنهمر دموعه من خشية الله . كما كان محافظا ــ فيما يقول المؤرخون ــ على صلواته ، بل ان الطبرى يؤكد أنه كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة الى أن فارق الدنيا ، الا أن تعرض له علة . ولكن حين

ولى الأمين الخلافة فقد أثر هذا التوازن فى الحياة الاجتماعية ، فصارت اغراقا فى اللهو ، وانحرافا عن كل شعائر الدين ، بل لقد ظهر فى هذا الخليفة أثر الشذوذ الجنسى الذى كان قد استفحل امره فى هذه الفترة ، أما اسراف الأمين واغراقه فى اللهو فكان شيئا لم يسمع به القرن الأول ولا أوائل الثانى أيام الخلفاء الأمويين والعباسيين الأولين . لقد وجه الأمين الى جميع البلدان فى طلب الملهين وضمهم اليه ، وأجرى لهم الأرزاق ونافس فى ابتياع فرة الدواب ، وأمر ببناء ميدان حول قصر أبى جعفر فى بغداد للصوالجة واللعب ، كما أمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه فى شتى القصور التى يملكها : الخلد ، الخيزرانية ، بستان موسى ، قصر عبدوية ، المعـــلى ، رقة كلواذى ، باب الأنبار ، نبارى ، الهوب . كما أمر بعمل خمس حراقات فى دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس (أو الدلفين) وأنفق فى عملها مالا عظيما وقد ذكر أبو نواس فى شعره بعض هذه الحراقات .

وكان من أثر فقدان التوازن فى الحياة الاجتماعية أيام الأمين ، وانفاقه أموال الدولة على ملذاته وملاهيه أن ظهر الاختلال واضحا فى البناء الاجتماعى ، وازدادت الهوة اتساعا بين الطبقات المختلفة ، وانكشفت بغداد الفاتنة الثرية المتلألئة بالمال والجوهر عن جانبها الفقير المحطم الذى لا يجد قوت يومه .

وازدادت صورة التناقض الاجتماعى وضوحا حين حدثت الفتنة بين الأمين والمأمون وتعرضت بغداد لحصار مجهد عنيف ، حينئذ ظهر شعبها الكادح الفقير ، ولم يكن الفقير من بين هؤلاء هو الذى وصفه فقهاء العراق بأنه من كان دخله مائتى درهم فى السنة ، أى ما يعادل الحد الأدنى من العطاء ، ولكن كان هؤلاء الفقراء لا يملكون من الدنيا شيئا بعد اتساع الهوة بين الطبقـات ، فهم عبارة عن آلاف مؤلفة من الرعاع والشطار ، لا تربطهم بالحياة فى بغداد رابطة ما ، فهم لا يملكون عقارا ولا أموالا ، بل لا يجدون عملا يقتاتون منه ولهذا انطلقوا على سجيتهم فى هـــذه الفتنة ،

يقاتلون ولا يدرون لحساب من هذا القتال . وكل ما كان يدور فى أذهانهم أن هذه الحرب ربما نقلتهم من الوهدة التى يتردون فيها الى حيث يستطيعون رؤية وجه الحياة . وربما كان أملهم أن تخدمهم هذه الحروب فتقدم لبطونهم الخاوية الغذاء ، ولأجسادهم العارية الكساء الذى يقيهم الحر والزمهرير . ويصف لنا الطبرى هذه الفتنة فيقول : « لقد نقب أهل السجون السجون وخرجوا منها ، وفتن الناس ، ووثب على أهل الصلاح الدعار والشطار ، فعز الفاجر وذل المؤمن واحتل الصالح وساءت حال الناس » .

والى هنا كان تيار الحياة العابثة اللاهية قد بلغ أقصى مداه . وتفجرت بغداد بعد فتنة الأمين والمأمون بضروب الفسق وأنواع المجون ، فظهرت طبقة من الناس تقطع الطريق وتأخذ الغلمان والنساء علانية ، فلما رأى الناس ذلك وما أظهروا من الفساد والظلم والبغى ، قام صلحاء كل ربض ودرب فمشى بعضهم الى بعض واتفقوا على قمعهم ، فقام رجل يقال له خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل بيته ومحلته على أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فأجابوه الى ذلك ، وشد على من يليه من الفساق والشطار فمنعهم مما كانوا يصنعون ، ثم قام من بعده رجل يقال له سهل ابن سلامة الأنصارى ، فدعا الناس أيضا الى ما دعا اليه خالد ، وزاد عليه العمل بكتاب الله جل وعز وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلق مصحفا فى عنقه فأتاه خلق كثير ، فأخذوا يطوفون ببغداد وأسواقها وأرباضها وطرقها ليمنعوا الخفارة التى فرضها الفساق وهى نوع من ابتزاز الأموال .

وكان ظهور هذه الفئة الصالحة من الناس التى كان يطلق عليها اسم المطوعة انتكاسا لتيار اللهو والعبث ، وتأييدا الجانب الجاد فى الحياة الاجتماعية ، وتوكيدا لتيار الزهد الذى كان انعكاسا صادقا فى نفوس المتقين ضد الحياة العابثة الماجنة التى كانت تسود مجتمعهم . والحقيقة ان هذا التيار المضاد لم يكن شيئا جديدا فى

المجتمع الاسلامى فى القرن الثانى ، ولكنه كان موجودا دائما ، وكان يقوى ويشتد كلما أغرق المجتمع فى لهوه وترفه ، وانكب على ملذاته وملاهيه . ولم يكن استغراقنا فى تصوير الجانب اللاهى من المجتمع دون الجاد انكارا لوجود هذا الجانب السوى أو غضا من شأنه ، ولكننا صورنا مدى الانحراف الذى صار اليه المجتمع الاسلامى متأثرا بالحضارات الأجنبية والعوامل الاقتصادية والسياسية المختلفة على اعتبار أن الأصل فى المجتمع الاسلامى ارتكازه على أسس الدين والتقوى ، وأخذه بكتاب الله وسنة رسوله ، ليس هذا فحسب ، بل ان الميل للزهادة كان شيئا أصيلا فى الحياة الاسلامية منذ ركز الاسلام لواءه ، فهو يحض على الزهادة والقناعة والرضا من عرض الدنيا بالقليل . وقد سئل الرسول صلوات الله عليه عن أعقل الناس فقال : « همتهم المسابقة الى ربهم عز وجل ، والمسارعة الى ما يرضيه ، وزهدوا فى فضول الدنيا ورياستها ونعيمها ، وهانت عليهم ، فصبروا قليلا واستراحوا طويلا » .

بل لقد اشتد هذا الميل الزهدى وتطور فى القرن الثانى ليدخل فى دور التصوف الحقيقى ، ويقال ان كلمة الصوفى أطلقت لأول مرة على أبى هاشم الكوفى المتوفى عام ١٥٠ هـ الذى يقول فيه جامى فى (نفحات الأنس) : انه تقدمه رجال كانت لهم قدم فى الزهد والورع وحسن التوكل وفى طريق المحبة ، ولكنه كان أول من تسمى بالصوفى .

هذه اذن صورة المجتمع العربى فى القرن الثانى ، صورة زاخرة بالحياة والحركة ، مليئة بالتناقضات ، فيها الغنى الفاحش والفقر المدقع ، وفيها الاغراق فى الالحاد والمجون ، والزهادة المفرطة التى تقترب من الرهبانية والتبتل ، وفيها العلماء العاكفون على مختلف فروع المعرفة ، والعابثون الذين يعيشون على التبطل والفراغ واللهو ، انها صورة مجتمع حى متطور ، وفى قلب هذه الصورة وجد الخليفة المأمون .

الفصل الثاني

ميلاد ونشأة

البيت العباسى له أصل ثابت فى تاريخ الاسلام ، فهو ينتسب الى العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن مناف ، الذى ولد قبل حادث الفيل بثلاث سنوات ، فكأنه ــ وهو عم الرسول صلوات الله عليه ــ اسن منه بثلاث سنوات فحسب . كان العباس من سادة بنى هاشم وعقلائهم ، ولما بشر محمد بالاسلام ، وقف الى جانبه وان لم يعلن اسلامه ، وهو الذى تولى احكام الأمر للرسول مع الأنصار عند الهجرة ، فكان الرسول صلوات الله عليه يحبه ويكرمه . وامتدت حياته الى خلافة عثمان رضى الله عنه . وكان ثانى أولاده الستة عبد الله قد ولد قبل الهجرة بسنتين ، وقد دعا له الرسول : اللهم علمه التأويل ، فكان أعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها ، مع فقهه فى الدين . ولهذا كان عمر يدخله ــ على صغر سنه ــ فى مجلس شوراه ، ويستعين برأيه فى كثير مما يعرض له من أمور .

وكان على أصغر أولاد عبد الله ، أجمل قرشى على وجه الأرض فيما يقولون وأشدهم ايمانا ، وقد أعقب اثنين وعشرين ذكرا أكبرهم محمد وهو والد ابراهيم الامام وأبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور الذين استطاعوا أن يثلوا عرش الأمويين ويقيموا دولة بنى العباس على أنقاضه .

أرومة عريقة يفتخر بها المأمون من ناحية أجداد أبيه الرشيد ،

أما من ناحية أمه فالأمر جد مختلف ، ذلك انها جارية فارسية من كورة باذغيس فى مقاطعة خراسان وهى فى الطريق من هراة الى مرو الرود ، تمتد بين نهر هراة من الغرب ومياه نهر مرغاب الأعلى من الشرق . وهذه الفتاة الباذغيسية يحاول بعض الباحثين أن يجعلها تمت الى اسرة عريقة فى المجد من الأسر الفارسية ، ولكننا لا نكاد نعثر لها على نسب ينضاف الى اسمها « مراجل » .

ومن العجيب أن التنافس بين الأخوين محمد « الأمين » وعبد الله « المأمون » بدأ بينهما قبل ولادتهما ، فقد روى المسعودى أن أم جعفر (زبيدة) كانت لا تعلق من الرشيد ، فشاور بعض مجالسيه من الحكماء ، وشكا ذلك اليه ، فأشار عليه بأن يغيرها لأن ابراهيم الخليل عليه السلام كانت عنده سارة ، فلم تكن تعلق منه ، فلما وهبت له هاجر علقت منه باسماعيل ، فغارت سارة عند ذلك فعلقت باسحق . فاشترى الرشيد أم المأمون مراجل الباذغيسية فعلقت بالمأمون فغارت أم جعفر عند ذلك فعلقت بمحمد .

وهكذا شاء الله أن يكون عبد الله المأمون أكبر أولاد الرشيد ، وأن يعقبه محمد الأمين بفترة قصيرة تتراوح بين شهر واحد وستة أشهر كما نستقى من اقوال المؤرخين . ولكن اذا كان المأمون قد اكتسب ميزة بسبق ميلاده ، فان الأمين قد فاقه بنسب أمه العريق حتى لقد قيل : ليس فى خلفاء بنى العباس من امه وأبوه هاشميان سواه .

ولد عبد الله فى قرية على ضفة نهر عيسى تسمى الياسرية ، بينها وبين بغداد ميلان ويبدو أن الرشيد كان مقيما فيها بعيدا عن دسائس السياسة فى بغداد ، فقد كان يمر وقتذاك بمحنة قاسية ، اذ كان أخوه الهادى يستخدم ضده كل وسائل الضغط ليسلب حقه فى ولاية العهد .

والحقيقة ان ولاية العهد التى ابتدعها الأمويون منذ عهد

معاوية لابنه يزيد بالخلافة ، كانت من الأسباب القوية التى هدمت كيان الدولة الأموية ، وأثارت الشقاق العنيف فى الدولة العباسية أيضا . واستمرت ولاية العهد سببا للنزاع فى الدولة العباسية منذ بدايتها . فقد أوصى أبو العباس السفاح بالخلافة من بعده لأخيه أبى جعفر ثم لعيسى بن موسى . وعندما تولى أبو جعفر الخلافة أراد أن يقدم ابنه المهدى على عيسى .

ولم تنته مأساة عيسى بن موسى الى هذا الحد ، فما ان ولى المهدى الخلافة حتى بدأ يمارس ضغطه على الشيخ المسكين ليتنازل عن ولايته للعهد مرة أخرى ، واستطاع أن يؤلب العباسيين ضده فأبوا الا خلعه وشتمه فى وجهه ، واحتبسه المهدى حتى أجاب الى الخلع لقاء عشرة آلاف ألف درهم وضياع ، فأسندت ولاية العهد الى موسى بن المهدى . وقد هجا الشعراء عيسى لتخاذله ، وما كان يقوى وهو فى سنه العالية على النضال فى سبيل الخلافة .

وبعد انقضاء ست سنوات على هذه الحادثة نسى المهدى ما تجره ولاية العهد الثنائية من شقاء فأخذ البيعة على قواده لهارون بعد أخيه موسى وسماه الرشيد ، ويبدو أن المهدى أراد أن يكافىء ابنه هارون لحسن بلائه فى الحرب ضد الروم التى دارت رحاها شهورا طويلة ،وأحرز فيها هارون نصرا مؤزرا ، وذلك لأن اعلان ولايته للعهد جاء بعد عودته من الحرب مباشرة . ولما مات المهدى وتولى الخلافة ابنه موسى الهادى أراد خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر بن موسى ، وتابعه على ذلك القواد .

وكان يحيى بن خالد البرمكى يقف وحده الى جانب الرشيد ليشد أزره بعد أن مال الى اجابة أخيه حتى لا يفسد عليه حياته ، وتعرض للقتل حين علم الهادى أنه يحرض أخاه على الاستمساك بحقه ، ولكنه استطاع بحسن تدبيره أن يفلت من انتقام الهادى . وبعثت الخيزران أم الهادى والرشيد الى يحيى بن خالد تتوسل اليه أن يدع الرشيد يجيب أخاه الى الخلع لأنها تخشى عليه سطوته .

فابى يحيى أن يلين ، وما هى الا فترة يسيرة حتى مات الهادى فتناثرت الشائعات بأن أمه الخيزران قد دست اليه من جواريها من قتله بالجلوس على وجهه . وكان قد أصابته علة .

ولا نستطيع أن نقطع برأى فى صحة هذا الاتهام ، فهناك دلائل تزكيه ، وعلى أية حال لقد انقضت المحنة التى عاش فيها هارون بسبب الخلاف على ولاية العهد بموت أخيه الهادى . ويروى أن يحيى بن خالد ذهب الى الرشيد ليبشره بالخلافة فى الليلة نفسها التى مات فيها الهادى ، ليلة الجمعة منتصف ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، فوجده نائما فى لحاف بلا ازار ، فقال : قم يا أمير المؤمنين ! فقال له الرشيد : كم تروعنى اعجابا منك بخلافتى ، وأنت تعلم حالى عند هذا الرجل ، فان بلغه هذا فما تكون حالى ؟ وكأن نداء يحيى لهارون بقوله : يا أمير المؤمنين قد أدخل فى قلبه الفزع خوفا من نكاية أخيه . فلما بشره يحيى بالخلافة ، أخذا يتشاوران فى الأمر ، وبينما هما كذلك اذ طلع رسول فقال للرشيد : قد ولد لك غلام ! فقال الرشيد دون تردد :سميته عبد الله ! .

وهكذا كانت ولادة المأمون فى الليلة التى انتهت فيها محنة أبيه الرشيد ، وفى اللحظة التى بدأ يمارس فيها سلطاته كخليفة للمسلمين . ولا شك أن الرشيد استبشر كثيرا بمولد ابنه فى هذه الظروف السعيدة التى واتته ، ليس هذا فحسب ، بل ان عبد الله هو أول غلام يولد للرشيد ، وللطفل الأول دائما فى نفس والده قدر من الاعزاز والمحبة يزيد عما لاخوته التالين له فى الميلاد . أما اختيار الرشيد لاسم عبد الله دون تردد منه ، فقد كان تعبيرا عما فى نفسه من اعتراف بفضل الله عليه ، اذ نجاه مما كان فيه من هم وضيق ، دون أن يدبر للأمر بهذا الاحكام والبساطة التى تم بها .

وعلى الرغم من توالى أبناء الرشيد بعد ذلك اذ بلغ عددهم كما ذكرنا أحد عشر ما عدا المأمون ، الا أنه ظل يحب المأمون ويؤثره كل الايثار ، ربما لأنه أول أولاده ، ولأنه استبشر بولادته مع قدوم

الخلافة وانتهاء الأزمة التى أحاطت به ـ كما سبق أن بينت ـ وربما لأنه فقد أمه وهو بعد طفل صغير ، لا يتجاوز عمره أياما ، فقد أكدت المصادر التاريخية وفاتها فى نفاسها به .

فقد نشأ المأمون اذن محروما من عطف أمه عليه ، دون اخوته جميعا الذين تمتعوا بعطف أمهاتهم ورعايتهن لهم . يضاف الى ذلك كله اعجاب الرشيد بذكاء ابنه وظهور مخايل النجابة عليه وانصرافه الى العلم دون مظاهر اللهو والعبث ، ويروى فى ذلك أن الرشيد دخل على المأمون وهو ينظر فى كتاب فقال له : ما هذا ؟ فأجاب المأمون : كتاب يشحذ الفكرة ويحسن العشرة ، فقال الرشيد : الحمد لله الذى رزقنى من يرى بعين قلبه أكثر مما يرى بعين جسمه .

وكثيرا ما كان الرشيد يبدى اعجابه بصفات المأمون النادرة فى خلقه وشخصيته اعجاب الأب الفخور بولده ، كما يتضح لنا فى قوله : انى لأتعرف فى عبد الله حزم المنصور ونسك المهدى وعز نفس الهادى ، ولو شاء أن أنسبه الى الرابع لنسبته يعنى نفسه .

أما صفات المأمون الجسمية وهو طفل صغير ، فمن الواضح أنها مزيج من السمات الآرية والعربية ، ونحن لا نعلم وصفه فى طفولته ، ولكن المؤرخين وصفوه لنا كبيرا ، ومن صفاته الثابتة التى لا تتغير فيما بين الطفولة والرجولة أنه كان أبيض تعلوه شقرة (وقيل أسمر ، ولكن الاتفاق على بياضه أكثر ، وهو أقرب الى المعقول) ، ضيق الجبهة ، بخده خال أسود ، واسع العينين أسودهما . ولم يكن المأمون وهو طفل جميل الصورة بحيث يلفت النظر اليه ، ولا كان أجمل اخوته مع أن المؤرخين يقولون ان جمال ولد الخلافة انتهى الى أولاد الرشيد . ولعلهم يقصدون بعض أولاد الرشيد مثل محمد (الأمين) وأبى عيسى الذى اشتهر بجمال نادر فائق المثال ، حتى انه كان اذا عزم على الركوب جلس له الناس حتى يروه أكثر مما كانوا يجلسون للخلفاء ! ويروى أن الرشيد قال

لابنه أبى عيسى يوما – وهو بعد صبى صغير – « ليت جمالك لعبد الله » يعنى المأمون ، فقـــال له أبو عيسى : « على أن حظه منك لى » .

وهذه الرواية تبين الى حد بعيد حب الرشيد الجارف لابنه عبد الله حتى ليتمنى أن ينتقل جمال أخيه أبى عيسى اليه ليتم له كل شىء ، وفى جواب أبى عيسى دلالة أخرى على ايثار الرشيد للمأمون أكثر بكثير من بقية أبنائه الآخرين . وبالرغم من ذلك لا نجد نفرة بين المأمون واخوته ، بل نراه يودهم جميعا ويودونه . وكان يحب أخاه أبا عيسى حبا شديدا ، فلما مات أبو عيسى ، صلى عليه المأمون ونزل فى قبره ، وامتنع عن الطعام أياما حزنا عليه .

ولم تكن علاقته بالأمين علاقة جفوة ، ولكنها السياسة التى فرقت بين الأخوين منذ الصغر ، وأوقعت بينهما الخلاف ، على الرغم من أن شخصية المأمون فى رزانته وجده وانصرافه الى العلم والاطلاع تختلف اختلافا بينا عن شخصية الأمين الذى يحب العبث والمجون ويؤثر الرفاهية على الدرس والقراءة .

وكانت أم الأمين تشعر بحب الرشيد للمأمون وعطفه الزائد عليه أكثر بكثير مما كانت تحسه تجاه ابنها الأمين ، فأكلت الغيرة قلبها وكلمت الرشيد فى ذلك ، فأراد أن يثبت لها عمليا أن المأمون جدير بالحب لذكائه وفطنته وحسن تقديره للأمور ، فوجه الى ولديه خادما يقول لكل منهما فى خلوة : ماذا تفعل اذا أفضت الخلافة اليك ؟ فأما الأمين فقال للخادم : اقطعك واعطيك ، وأما المأمون فقد قام الى الخادم بدواة كانت بين يديه وقال : أتسألنى عما أفعل بك يوم يموت أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ؟ انى لأرجو أن نكون جميعا فداء له ، فقال الرشيد لأم جعفر : كيف ترين ؟ فسكتت عن الجواب .

ولعل فيما رواه أبو محمد اليزيدى مؤدب المأمون دلالة على قوة شخصيته ورزانته مذ كان طفلا ، قال اليزيدى : كنت أؤدب

المأمون فأتيته يوما فوجهت اليه بعض الخدم يعلمه بمكانى فأبطأ ، ثم وجهت اليه آخر فأبطأ ، فقلت : ان هذا الفتى ربما تشاغل بالبطالة ، فقيل : أجل ، ومع هذا انه اذا فارقك تعرم على خدمه ولقوا منه أذى شديدا ، فقومه بالأدب . فلما خرج أمرت بحمله فضربته سبع درر (١) . قال : فانه ليدلك عينيه من البكاء اذ قيل : هذا جعفر بن يحيى قد أقبل ، فأخذ منديلا فمسح عينيه من البكاء وجمع ثيابه وقام الى فرشه فقعد متربعا ، ثم قال : ليدخل . فدخل فقمت عن المجلس وخفت أن يشكونى اليه ، فأقبل عليه بوجهه وحدثه حتى أضحكه ، ثم خرج فجئت فقلت : لقد خفت أن تشكونى الى جعفر ، فقال : يا أبا محمد ما كنت أطلع الرشيد على هذه ، فكيف بجعفر ، انى أحتاج الى أدب ؟ !

وأبو محمد اليزيدى هو واحد من كثيرين من خير علماء هذا العصر كان المأمون يتلقى العلم على أيديهم ، وكان اليزيدى عفيفا تقيا ، وشاعرا مجيدا ، لا يتعدى فى شعره الموعظة والحكمة ، وكان اذا ذهب الى الحج وأقبل عليه أهل الأدب ليؤانسوه يقول لهم : ما شىء أحب الى من مشاهدتكم ومحادثتكم ، ولكن هذا بلد يتقرب فيه الى الله بالأعمال الصالحة ، وانما أقيم شهرا أو شهرين ، ثم أنصرف الى بلدى ، فان رأيتم الا تجروا فى مجلسى رفثا ولا خنا ولا هجاء فى شعر ولا غيره فافعلوا . وهكذا كان المأمون يتلقى دروس الأدب على اليزيدى ، وكان يتلقى مع الأدب دروسا فى العفة والتقوى وحسن الخلق ، ولم يكن اليزيدى يتورع عن تقويمه بالعصا كما رأينا .

وكان المأمون يتلقى علم العربية على الكسائى الذى علم أباه من قبله ، وهو أحد علماء الكوفة البارزين فى القراءات والنحو واللغة ، وكان يسمع المأمون الحديث من هشيم بن بشر ، وعباد ابن العوام ، ويوسف بن عطية ، وأبى معاوية الضرير ، واسماعيل

(١) الدرة . ما يضرب به .

ابن علية ، وحجاج الأعور ومن فى طبقتهم . وكان من شيوخه فى الحديث أيضا أبوه هارون . وقد انكب المأمون على دراسة الحديث حتى صار من رواته ، وسمع منه كثيرون ورووا عنه ، وقد ساعدته على رواية الحديث ذاكرته القوية الحافظة ، التى كانت مضرب المثل . ذكر أن الرشيد أراد الحج فدخل الكوفة وطلب المحدثين فلم يتخلف الا عبد الله بن ادريس وعيسى بن يونس ، فبعث اليهما الأمين والمأمون فحدثهما ابن ادريس بمائة حديث ، فقال المأمون : يا عم أتأذن لى أن أعيدها من حفظى ؟ قال : فأعادها ، فعجب من حفظه .

وكان المأمون يقرأ الفقه على الحسن اللؤلؤى ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة انه برع فى الفقه على مذهب أبى حنيفة . وكانت له مع اللؤلؤى نادرة لطيفة تدل على اعتداد المأمون بنفسه ، ذلك أن اللؤلؤى لاحظ فى أثناء درس له من دروس الفقه أن المأمون قد أخذته سنة من النوم ، فقال له : نمت أيها الأمير ! فكأنه بدلا من أن يغادر المكان فى صمت أراد أن يوقظ المأمون ليشعره بخطأ ارتكبه ، ولهذا نرى المأمون يحتد عليه ـ وكانت فيه حدة أحيانا ـ ويقول : سوقى ورب الكعبة ، وينادى غلمانه ليأخذوا بيد أستاذه ، فلما بلغ الرشيد ما صنع لم يغضب على ابنه ، بل رحب بما فعله وتمثل بقول الشاعر مفتخرا بولده :

وهل ينبت الخطى الا وشيجه   وتغرس الا فى منابتها النخل (١)

وهذه الحدة التى نلمحها احيانا فى شخصية المأمون والتى شكا منها خدمه الى مؤدبه اليزيدى ، انما تدل على فرط نشاطه فى طفولته ، وأنه لم يكن مستكينا هادئا ، ينفق وقته كله فى مذاكرة العلم والتثقف ، بل يتشاغل أحيانا بشىء من اللهو البرىء . وهذه الحدة فى طبعه خفت الى حد بعيد كلما دخل فى طور الشباب والرجولة ، الا من آثار قليلة فى حالات يفقد الانسان فيها شعوره .

(١) الوشيج : الشجر الذى تصنع منه الرماح .

ولكن هذه الحدة لا ينبغى أن تكون سببا فى انحرافات جنسية فى أيام الصبا تبلغ بالمأمون الى درجة جده كما جاء فى بعض الروايات التى تقول ان أباه حده فى جارية من جواريه ، ويؤكدون ذلك بما قاله الرقاشى الشاعر حين مدح الأمين فعرض بأخيه المأمون اذ قال :

لم تلده امة تعرف فى السوق التجارا

لا ولا حد ولا خان ولا فى الخزى جارا

واذا تقصينا رواية هذا الحد الذى تحير فيه ابن طباطبا : هل كان فى جارية وجد معها أو فى خمر ، لا نكاد نجد لها أثرا اللهم الا ما رواه صاحب العقد الفريد اذ قال : « كان الرشيد حد المأمون ، وذلك أنه دخل على الرشيد وعنده مغنية تغنيه ، فلحفت ، فكسر المأمون عينه عند استماعه اللحن ، فتغير لون الجارية ، وفطن الرشيد لذلك ، فقال ، اعلمتها بما صنعت ؟ قال : لا والله يا مولاى ! قال : ولا أومأت اليها ؟ قال : قد كان ذلك ، فقال : كن منى بمرأى ومسمع ، فاذا خرج اليك أمرى فانته اليه . ثم أخذ دواة وقرطاسا وكتب اليه :

يا آخذ اللحن عـ	لى القينة عند الطرب
تريد أن تفهمها	حد لغات العرب
أقسم بالله وما	سطر أهل الكتب
للكلب خير أدبا	من بعض أهل الأدب

اذا قرأت ما كتبت به اليك ، فأمر من يضربك عشرين مقرعة جيادا . فدعا المأمون البوابين ثم أمرهم ببطحه وضربه فامتنعوا ، فأقسم عليهم فامتثلوا لأمره .

هذه هى رواية صاحب العقد عن قصة حد المأمون فى جارية ، وفيها دليل بالغ على أن المأمون لم يرتكب فاحشة يستحق عليها الحد ، فهو لم يخن أباه فى جاريته قط ، ولا الرشيد أوقع عليه عقوبة الحد ، كل ما هنالك أن الرشيد غضب لأن ولده بصر

الجارية بموضع خطئها والرشيد موجود وهو أولى بذلك ، وما كان ينبغي للمأمون أن يتباصر بعمله ولا أن يدل الجارية على خطئها قبل استئذان أبيه . أما العقوبة التى أنزلها به الرشيد فهى عقوبة والد لولده يؤدبه ويشعره بذنبه ، بل ان الرشيد حين وكل الى ابنه تنفيذ العقوبة التى حددها له ، كان واثقا كل الثقة بالمأمون ، وبقدرته على معاقبة نفسه ، وتلك مهمة لا يقدر عليها الكثيرون . فشعر الرقاشي اذن انما هو من قبيل القذف الذى لا دليل عليه ، وهو يريد أن يستغل عقوبة الرشيد للمأمون فيجعلها « حدا » وشتان ما بين المعنيين ، بل ان روح القذف واضحة فى البيت الأول اذ يعرض بأم المأمون لكونها أمه ، ولكنه ينزل من قدرها حين يجعلها « تعرف التجار فى السوق » ، وهو بالتالى ينزل من قيمة الرشيد نفسه .

تلك اذن ملامح المأمون فى نشأته ، جمعنا متفرقها لنحاول أن نجعل منهـــا صورة متكاملة ، لم يكن المأمـــون فتى عاديا فهو ابن الرشيد ، وكان ذكيا طموحا يقبل على فروع المعرفة ويستزيد منها ، فهو يهوى العربية والأدب حتى نراه شاعرا ، ويهوى الفقه فيجادل فيه الثقات المتخصصين ، ويهوى الحديث حتى يؤخـذ عنه ، ثم يهوى الفلسفة بعد ذلك ويكون له معها شأن . وهو فى محيط أسرته يحظى برعاية أبيه وحبه ، ويفتقد حنان الأم ، ويعيش وسط اخوة غير أشقاء ، ولكن فى مودة تنبع من نفسه الصافية ، التى لا نرى فيها التواء أو عقدا . وما الذى يسبب له الالتواء والعقد ، وليس فيه نقطة ضعف يخشى أن يكشفها . كان عبد الله واثقا بنفسه كل الوثوق ، يعيش حياة رضية لا أثر فيها لحرمان من أى نوع ، بل ربما كانت مسرفة فى كل شىء ، كما رأينا فى صورة العصر ، ولكنه ــ وتلك ناحية القوة فيه ــ لم يفقد توازنه النفسى على الاطلاق ، وأخذ نفسه بشىء غير قليل من الحزم حتى لا يجـرى وراء المظاهر المادية التى تشغل عصره ، كان فى امكانه ــ وهو الشاب الفتى ابن الرشيد أغنى أغنياء العالم فى ذلك الوقت ــ

أن يعيش حياة المترفين الخاملة يلهو ويشرب ، ويقعد الغناء وحوله الجوارى الحسان ، ولكنه يترفع عن ذلك كله . وكأنه يضـــع حجابا بينه وبين الملهيات ليغرق فى دروس النحو واللغة والأدب ، ويغوص فى أعماق الحديث والفقه والفلسفة ، ويقبل على ذلك كله اقبال المشغوف ، بينما كان أخوه الأمين يدفع الى هـــذه الدروس دفعا فلا يصل فيها الى شيء لشغله بما يخلب اب أمثاله من الشباب . وقد يكون للرشيد فضل كبير فى اهتمامه بتثقيف أبنائه واشرافه عليهم ، وموالاة سؤال أساتذتهم عنهم ، ولكن شخصية المأمون لها الفضـــل الأكبر فيما بلغته فى فترة تكونها ، وسوف نرى آثار هذا الفضل فيما يلى من الفصول .

الفصل الثالث

في ظلال الرشيد

مع ان عبد الله (المأمون) قد ولد فى الليلة التى بويع فيها الرشيد بالخلافة ، ثم ولد أخوه محمد (الأمين) فى السنة ذاتها (١٧٠ هـ) ، الا أن الرشيد لم يسم أحدا منهما وليا للعهد حتى عام ١٧٥ هـ ، ولعل السبب فى ذلك تحرجه فى الاختيار . فقد كان فى قرارة نفسه يحب عبد الله ويثق فى قدرته على تحمل أعباء الحكم من بعده ، ولكن زوجته زبيدة والهاشميين معها كانوا يدفعونه دفعا لتفضيل الأمين على أخيه .

وكانت الفكرة الراسخة عند هارون ألا يختار وليين للعهد يتعاقبان فى الخلافة ، فهو لم ينس بعد محنته أيام أخيه الهادى ، ومحنة عيسى بن موسى أيام جده وابيه . ويبدو أنه ظل طوال السنوات الخمس يحاول أن يجد مخرجا دون جدوى . ولم يكن التأخير فى اختيار ولى العهد الا زعزعة لحكم هارون ، واغراء للطامعين من البيت العباسى ، لهذا لم يجد الرشيد مناصا من الاختيار .

وفى تلك الأثناء نشطت زبيدة ام محمد (الأمين) فى التأثير على هارون ، وأرسلت اخاها عيسى بن جعفر الى البرامكة الذين كانوا محيطين بهارون فى تلك الفترة ، ولهم عليه تأثير عنيف ، فوسطهم لدى هارون . وكان الفضل بن يحيى البرمكى أشد المؤيدين لبيعة محمد لأنه كان فى حجره ــ وهذا النظام الذى يعهد

بالأمير الى كبير فى الدولة موثوق به ليوجهه ويرعاه ، ربما كان منقولا عن الفرس ، وقد نفذه هارون فجعل محمدا فى حجر الفضل ، وعبد الله فى حجر جعفر بن يحيى ، والقاسم فى حجر عبد الله ابن صالح ــ فكان من الطبيعى اذن أن يتحمس كل كفيل لأميره ، وهكذا بدأ الفضل بن يحيى جهوده ليفوز محمد دون أخيه عبد الله بولاية العهد . واستغل الفضل ولايته على خراسان لاعلان هذه البيعة ــ ليقطع على الرشيد تردده ــ ففرق أموالا ، وأعطى الجند أعطيات متتابعة ، ثم أظهر البيعة لمحمد وسماه الأمين فبايع الناس له ، وأغرى الشعراء بمدحه وتوكيد البيعة له .

فلما تناهى خبر هذه البيعة الى الرشيد وأن أهل المشرق قد بايعوا لمحمد ، انقطع تردده بتأثير بنى هاشم وزوجته ، فكتب الى الآفاق بالبيعة لمحمد ، وعقد له ولاية عهد المسلمين من بعده فى بغداد ، وأخذ له بيعة القواد والجند (١) . واستخدم الشعر سلاحا للدعاية للأمين وتوكيد ولايته للعهد .

وأراد الفضل بن يحيى ــ عن طريق مساهمته فى اتمام هذه البيعة ــ أن يؤكد سلطانه ويقوى نفوذه استعدادا لما سيلقى اليه من مهام الأمور فى المستقبل ، فنراه يتخذ فى خراسان جندا من الأعاجم يسميهم العباسية ويجعل ولاءهم له ، ويقول الطبرى ان عدتهم بلغت خمسمائة ألف رجل .

ويبدو أن الرشيد تخوف الفضل بن يحيى فعزله عن خراسان ، وأحس ــ فى الوقت ذاته ــ أن عهده بولاية العهد لمحمد دون أخيه عبد الله كان ضد ارادته وانه اضطر اليه كارها بفعل مؤثرات من حوله ، ولهذا ظل فترة طويلة مؤرقا معذب الضمير لا يدرى ما يصنع حتى يصحح خطأ وقع فيه . وقد روى لنا الأصمعى رواية تدل على هذا القلق الذى كان يعانيه الرشيد ، كما نتبين فى نهايتها الحل

---

(١) تاريخ الطبرى أحداث سنة ١٧٥ هـ ويروى الطبرى فى أحداث سنة ١٧٩هـ أن الرشيد عقد ولاية العهد لمحمد فى سنة ١٧٣ هـ ولم يذكر هذا غيره .

الذى رآه مخرجا له من قلقه النفسى ، قال : « بينما أنا أسـاير الرشيد ذات ليلة اذ رأيته قد قلق قلقا شديدا ، فكان يقعد مرة ، ويضطجع مرة ويبكى ، ثم أنشأ يقول :

قلد أمـور عبـاد الله ذا ثقة   موحـد الرأى لا نكس ولا برم
واترك مقالة اقوام ذوى خطل   لا يفهمون اذا ما معشر فهمـوا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمرا عظيما ، ثم قال لمروان الخادم : على بيحيى ، فما لبث أن أتاه ، فقال : يا أبا الفضل ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فى غير وصية والاسلام جذع ، والايمان جديد ، وكلمة العرب مجتمعة قد آمنها الله تعالى بعد الخوف ، وعزها بعد الذل ، فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبى بكر ، وكان من خبره ما قد علمت وان ابا بكر صير الأمر الى عمر ، فسلمت الأمة له ورضيت بخلافته ، ثم صيرها عمـر شورى ، فكان بعده ما قد بلغك من الفتن ، حتى صارت الى غير أهلها . وقد عنيت بتصحيح هذا العهد ، وتصييره الى من أرضى سيرته وأحمد طريقته وأثق بحسن سياسته ، وآمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله ، وبنو هاشم مائلون الى محمد بأهوائهم ، وفيه ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة النساء والاماء فى رأيه ، وعبد الله المرضى الطريقة ، الأصيل الرأى ، الموثوق به فى الأمر العظيم ، فان ملت الى عبد الله أسخطت بنى هاشم ، وان أفردت محمدا بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية ، فأشر على فى هذا الأمر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها ، فانك بحمد الله مبارك الرأى ، لطيف النظـر . فقال : يا أمير المؤمنين ، ان كل زلة مستقالة ، وكل راى يتلافى خلا هذا العهد ، فان الخطأ فيه غير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، وللنظر فيه مجلس غير هذا ، فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة ، فأمرنى بالتنحى ، فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما ، فما زالا فى مناجاة ومناظرة

طويلة ، حتى مضى الليل وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد .

وهكذا كشف الرشيد عن ذات نفسه فى تلك الليلة واستطاع أن يحلل شخصية عبد الله ومحمد بوعى ودون مواربة ، كما أبان الضغط الشديد الذى تعرض له من بنى هاشم ليقدم محمدا على أخيه فى ولاية العهد ، بل يؤثره بها دونه . وفى رواية للسيوطى يذكر الرشيد تأثير أم جعفر عليه صراحة مع بنى هاشم لاتمام هذا الأمر الذى نفذه كارها . وعندما استبد به الخوف والقلق على مصالح الرعية أراد أن يمحو خطأ اختياره لمحمد وليا للعهد ، فاستطاع ـ بمشاركة يحيى بن خالد له فى الرأى ـ أن يهدىء من قلقه ولكن بالوقوع فى خطأ كان يتحاشاه منذ البداية ، وهو اقرار وليين للعهد ، فى الوقت الذى يؤمن فيه بفشل هذه التجربة من قبل .

كان الرشيد منصرفا من الحج فتوجه الى الرقة ، وفيها نفذ ما اعتزمه من قبل فأعلن بيعته لابنه عبد الله المأمون بعد محمد الأمين ، وأخذ البيعة على الجند بذلك ، ثم أرسل المأمون الى بغداد ومعه من أهل بيته جعفر بن أبى جعفر المنصور ، وعبد الملك بن صالح ، ومن القواد على بن عيسى فبويع له فى بغداد حين وصل اليها .

وبذلك صار الأمين والمأمون وليين للعهد ، وأكثر الشعراء فى مدح صنيع الرشيد ومدح المأمون ، ومن العجيب أن سلم الخاسر الذى مدح اختيار الأمين ابن زبيدة وليا للعهد . وحشت زبيدة فمه جوهرا جائزة له عن أبياته ، هو نفسه الذى كتب يمدح اختيار المأمون ، جامعا له عديدا من الصفات الكريمة .

ولكن يبدو أن نور الهدى لم يتم باختيار المأمون بعد الأمين لولاية العهد ، فقد طمع اخوة المأمون فى ترشيحهم ايضا ، ويبدو أن فرق السن بينهم كان ضئيلا ، فلم يجدوا حرجا فى المطالبة علنا

بترشيحهم لولاية العهد . وكان أكثر الساعين الى ذلك الابن الثالث لهارون واسمه القاسم ، ويظهر أن أمه « قصف » كانت اثيرة الى قلب الرشيد ، فسعت سعيها ليكون ابنها فى قائمة المرشحين للخلافة ، واغرت الشعراء باعلان ذلك فى أشعارهم التى يلقونها على مسامع الرشيد ، بل ان عبد الله بن صالح . الذى كان القاسم فى حجره ـ كتب الى الرشيد يطالب بالبيعة له على أساس نكتة حسابية اذ يقول :

يا أيهـــا الملك الذى لو كان نجما كان سعدا
اعقـــد لقاسم بيعـــة واقدح له فى الملك زندا
الله فـــرد واحـــد فاجعل ولاة العهد فردا

ولم يلبث الرشيد أن استجاب لهذا الضغط ، فبايع للقاسم وسماه المؤتمن ، وذلك بعد البيعة للمأمون بفترة يسيرة ، ولكنه ـ فيما يبدو ـ أصم أذنيه عن البيعة لرابع أبنائه وهو المعتصم لأنه كان منصرفا عن الثقافة والعلم حتى قيل لقد زوى الرشيد الخلافة عن ولده المعتصم لكونه أميا . ولما استقرت ولاية العهد لأبنائه الثلاثة أعلن تقسيم ملكه بينهم ، فخص الأمين بالشام والعراق ، وولى المأمون ممالك خراسان بأسرها ، وولى المؤتمن الجزيرة والثغور . ولم يكن يجاوز أكبر هؤلاء الاخوة ـ وهو عبد الله المأمون ـ الثانية عشرة من عمره وقتذاك .

وكثرت أحاديث الناس حول صنيع الرشيد ، فمنهم من باركه قائلا انه أحكم أمر الملك ، ومنهم من لعنه قائلا : لقد ألقى بأسهم بينهم ، وعاقبة ما صنع فى ذلك مخوفة على الرعية .

ويبدو أن الرشيد كان يحس احساسا قويا بتورطه فى هذا الأمر كله ، وكان يتخيل ما سوف يحدث بين الأخوين من شقاق ، وقد عبر عن ذلك فى أكثر من مناسبة ، وكان تخوفه من جهة الأمين لا من جهة المأمون ، لوثوقه بعنف شخصية الأمين وسرعة استجابته للمؤثرات . ولهذا نرى الرشيد يحاول ايجاد نوع من الضمان

لتنفيذ ما اعتزمه من تولى الأمين ثم المأمون الخلافة ، وظن انه عثر على هذا الضمان عندما حج فى سنة ست وثمانين ومائة ، ولكنه كان واهما فى ظنه ، وما ارتآه ضمانا لم يكن الا مظهرا شكليا لا غناء فيه ولا جدوى منه . لقد ذهب الرشيد الى الحج فى تلك السنة ومعه وجوه بنى هاشم والقواد والفقهاء والقضاة والوزراء ، فلما قضى مناسك الحج كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين ، أجهد الفقهاء والقضاة آراءهم فيهما ، أحدهما على محمد بما اشترط عليه الوفاء بما فيه من تسليم ما ولى عبد الله من الأعمال ، وصير من الضياع والغلات والجواهر والأموال . والآخر نسخة البيعة التى أخذها على الخاصة والعامة ، والشروط لعبد الله على محمد وعليهم . وجعل الكتابين فى البيت الحرام بعد أخذه البيعة على محمد واشهاده عليه بها الله وملائكته ومن كان فى الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم . وتقدم الرشيد الى الحجبة فى حفظ الشهادة بالبيعة والكتاب ومنع من أراد اخراجهما والذهاب بهما .

أما الكتاب الأول فيستفاد منه أن الرشيد اراد أن يحكم الأمر لابنه المأمون احكاما شديدا بحيث لا يستطيع الأمين أن يخل بشىء . وفى اعتقادى أن كل ما كان يتمناه الرشيد لابنه المأمون ولم يستطع أن يحققه له ، ضمنه فى هذه الوثيقة ، ولكنها لم تزد على ان تكون حبرا على ورق ، بالرغم من شهادة الشهود واقرار الأمين على نفسه وحلفه فى بيت الله الحرام (١) وبالرغم من تعليق الوثيقة فى الكعبة ـ ويبدو أن الشؤم لاحقها منذ البداية فسقط عند تعليقها .

ونلاحظ أن الرشيد فى هذه الوثيقة يحيط المأمون بكافة الضمانات القوية التى تجعله يقف على قدميه اذا حاول الأمين

---

(١) يروى المسعودى أن الأمين لما حلف للرشيد بما حلف له به وأراد الخروج من الكعبة ، رده جعفر بن يحيى وقال له : فان غدرت بأخيك خذلك الله ، حتى فعل ذلك ثلاثا ، كلما يحلف له ، ولهذا السبب اضطغنت أم الأمين على جعفر فكانت من بين الذين حرضوا الرشيد على قتله (مروج الذهب : ٢٧٣)

أن يسلبه حقه فى الخلافة ، فأعطاه ولاية خراسان وهى تعتبر مملكة واسعة مترامية الأطراف ، عظيمة الموارد ، وجعل له استقلالا كاملا بها فى حياته وبعد مماته ، اى فى خلال خلافة أخيه الأمين أيضا ، ووفر له جو العمل على أسس ثابتة اذ حمى رجاله من العزل بيد الأمين عند وصوله الى الخلافة ، بل انه حرم الأمين من كل حقوق الخليفة ازاء منطقة خراسان التى يحكمها المأمون فى استقلال تام عن الدولة .

ولم يكن اختيار الرشيد ولاية خراسان ليعهد بها للمأمون عبثا ، بل لقـــد بنى هذا الاختيار على أسباب كثيرة ، منها أن الخراسانيين هم شيعة العباسيين ، وفيهم خضوع ومؤازرة لهم ، حتى ان أبا جعفر المنصور اثبت ذلك فى وصيته لابنه المهدى اذ يقول له « وأوصيك بأهل خراسان خيرا ، فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا اموالهم فى دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن اليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم فى أهله وولده » .

ثم ان « مراجل » أم المأمون خراسانية ، فله خئولة اذن فى خراسان وعصبية تؤازره . وقد وقر فى نفوس الفرس منذ زمن بعيد احترام ملوكهم الى حد التقديس والعبادة ، وفى ذلك يقول أوليرى : « لقد كان من عادة الفرس فى القديم أن ينظروا الى كل ملك من ملوك الساسانيين باعتباره « باغ » وذلك لقب لا يفهم منه معنى « اله » فهما تاما ، وانما يفهم على أنه حلول الاله ، حيث تتوارث الروح المقدسة عن طريق التناسخ بين الحكام المتعاقبين ، وهكذا نسبوا للملك قوى اعجازية وعبدوه باعتباره مقام حضرة الهية . . وقد بقى الكثيرون من الفرس على افكارهم القديمة برغم اعتناقهم الاسلام ، فكانوا على استعداد لعبادة الخليفة كما عبدوا ملوكهم من قبل . وهذا يفسر لنا استماتة الخراسانيين فى القتال ضد جيوش الأمين ، دفاعا عن خليفتهم المأمون ، ولم تكن هذه

الأسباب جميعها بعيدة عن الرشيد عندما اختار ولاية خراسان لتكون من نصيب المأمون ، فاذا كان لم يستطع أن يحقق أمله فى اختياره خليفة دون أخيه الأمين بسبب عصبية بنى هاشم والمؤثرات الأخرى من حوله ، فلا أقل من أن يجعل للمأمون كيانا يرد به غائلة الأمين اذا حدثته نفسه بنقض العهد الموثق فى حرم الكعبة .

وعلى الرغم مما يؤكده هذا العهد من عدم ثقة الرشيد بابنه الأمين ، نراه يفرط فى الثقة بالمأمون فيعطيه الحق فى خلع القاسم من ولاية العهد ، وصرف ذلك الى من يرى من أولاده أو اخوته ، مع أنه حرم الأمين هذا الحق .

وفى مقابل العهد الذى كتبه الأمين على نفسه ، استكتب الرشيد ابنه المأمون عهدا ردد فيه ما جاء فى كتاب الأمين مما يجب عليه بالنسبة للمأمون فقال : .. ان أمير المؤمنين هارون ولانى العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين فى سلطانه بعد أخى محمد ابن هارون ، وولانى فى حياته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها ، وشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لى من الخلافة وولاية أمور العباد والبلاد بعده ، وولاية خراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لى فى شىء مما اقطعنى امير المؤمنين وابتاع لى من الضياع والعقد والرباع وابتعت منه من ذلك ، وما أعطانى امير المؤمنين من الأموال والجوهر والكساء والمتاع والدواب والرقيق ، وغير ذلك . ولا يعرض لى ، ولا لأحد من عمالى وكتابى بسبب محاسبة .. » .

ويستمر المأمون فى تأكيد حقه قبل الأمين بتفاصيله المثبتة فى الكتاب الأول ، فاذا استوفى تأكيد هذا الحق أوجب على نفسه « أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه وأنصحه ولا أغشه ، وأوفى ببيعته وولايته ، ولا أغدر ولا أنكث ، وانفذ كتبه وأموره وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه فى ناحيتى ، ما وفى لى بما شرط لأمير المؤمنين فى أمرى » وكأن الرشيد — حتى فى هذا الكتاب — يريد أن يستوثق

المأمون ما شرطه له ، وكأنه كان متخوفا أشد التخوف من سلوك الأمين بعد توليه الخلافة .

وهكذا أحس الرشيد ببعض الراحة بعد شخوصه بابنيه الى بيت الله « وأخذ البيعة منهما بأشد المواثيق وأغلظ الأيمان والتوكيد ، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماع ألفتهما ومودتهما . . وكتبا له فى بطن بيت الله الحرام بخطوط أيديهما ، بمحضر ممن شهد الموسم من أهل بيت أمير المؤمنين وقواده وصحابته وقضاته وحجبة الكعبة وشهاداتهم عليهما كتابين استودعهما الحجبة وأمر بتعليقهما فى داخل الكعبة » .

لقد فعل الرشيد ذلك كله طلبا لراحة نفسه ، وتهدئة لضميره المعذب الذى يؤمن بأن الخلافة من حق المأمون لسلامة تفكيره وحسن سيرته وقوة شخصيته ، وقدرته على العمل لصالح المسلمين ، ولكن ها هو ذا يضطر الى صرفها للأمين واضعا المأمون فى موقف صعب عسير ، وقفه الرشيد نفسه قبل ذلك ، وقاسى منه الأمرين ، ولهذا أراد أن يجنب المأمون بعض مخاطر هـــذا الموقف باقرار الضمانات التى تحدثنا عنها من قبل ، يضاف الى ذلك ايثاره له بالمال الكثير ليمنحه القدرة الكافية على العمل المثمر ، والتأثير فى الناس ، وتقوية جيشه ، واستمالة الطامعين الى جانبه . ومن بين هدايا الرشيد الى ابنه المأمون — مما يكشف عن حبه الشديد له وايثاره — خاتم الخليفة المنصور الذى كان يتيمن به الرشيد كثيرا ونقشه « الله ثقتى آمنت به » . وينبئنا الطبرى أن الرشيد بعد منصرفه من الحج ، وبعد أن وثق البيعة لابنيه أمر لعبد الله المأمون بمائة ألف دينار حملت من الرقة الى بغداد . ولم يكتف بذلك بل نراه حين شخص الى خراسان فى عام ١٩٣ هـ جدد البيعة للمأمون على القواد الذين معه ، وأشهدهم وسائر الناس أن جميع من معه من الجند مضمومون الى المأمون ، وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون .

كل هذا الايثار من جانب الرشيد مرده شعوره بالذنب لتفضيله الأمين على أخيه ، فهو يحاول أن يعوضه عن تأخر ولايته الخلافة ، بما يغدق عليه من أموال ، وبمن يعطيه من الرجال ، وبما يمده من مصادر القوة فى العدد والعدة ، ولكنه نسى أنه بهذا العمل يوغر صدر الأمين على أخيه ، ويملؤه بالحقد والكراهية ، ويشعره بأنه خليفة عاجز لا حول له ولا نفوذ ، ما دام يرى أن أخاه المأمون يستأثر بأهم ولايات الدولة وأكثرها غنى ، ويحوز الأموال والأسلحة الكثيرة والجيش الذى يستطيع أن يقض مضجعه ويؤرقه .

وكانت رحلة الرشيد الى خراســـــان التى أشرنا اليها نهاية المطاف له ، اذ عرضت له علة ، ما لبثت ان اشتدت عليه وهو فى مدينة طوس ، فقضى نحبه بعد أن ظل فى الخلافة ثلاثا وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوما ، وهذه المدة ـ كما نعلم ـ هى عمر المأمون وقت وفاة أبيه . ولم يحضر وفاة الرشيد من أبنائه غير صالح ، أما الأمين فكان فى بغداد وقتذاك ، وكان المأمون فى مرو . وحين سمع الأمين بعلة أبيه أرسل بكر بن المعتمر وكتب معه كتبا جعلها فى قوائم صناديق منقورة ، ألبسها جلود البقر ، وقال له : لا يظهرن أمير المؤمنين ولا أحد ممن فى عسكره على شىء من أمرك وما توجهت فيه ولا ما معك حتى يموت أمير المؤمنين ، فاذا مات فادفع الى كل رجل منهم كتابه ، ونجح رسول الأمين فى مهمته بالرغم من شك الرشيد ورجاله فيه ومحاولتهم عبثا العثور على ما يكون معه من رسائل . وحينما استوثق بكر من وفاة الرشيد ، أخرج الرسائل من مخبئها السرى ووزعها على أصحابها ، وانطلق رسول الى مرو يحمل كتاب الأمين الى أخيه المأمون وهو يقول فيه : « اذا ورد عليك كتاب أخيك ، أعاذه الله من فقدك عند حلول ما لا مرد له ولا مدفع مما قد أخف وتناسخ الأمم الخالية والقرون الماضية ، بما عزاك الله به ، واعلم أن الله جل ثناؤه قد اختار لأمير المؤمنين أفضل الدارين وأجزل الحظين ، فقبضه الله طاهرا زاكيا ، قد

شكر سعيه وغفر ذنبه ان شاء الله ، فقم فى أمرك قيام ذى الحزم والعزم والناظر لأخيه ونفسه وسلطانه وعامة المسلمين . واياك أن يغلب عليك الجزع فانه يحبط الأجر ، ويعقب الوزر ، وصلوات الله على أمير المؤمنين حيا وميتا ، وانا لله وانا اليه راجعون . وخذ البيعة على من قبلك من قوادك وجندك وخاصتك وعامتك لأخيك ، ثم لنفسك ، ثم للقاسم بن أمير المؤمنين على الشريطة التى جعلها لك أمير المؤمنين من نسخها له واثباتها ، فانك مقلد من ذاك ما قلدك الله وخليفته ، وأعلم من قبلك رأيى فى صلاحهم وسد خلتهم والتوسعة عليهم ، فمن أنكرته عند بيعته ، أو اتهمته على طاعته ، فابعث الى برأسه مع خبره ، واياك واقالته ، فان النار أولى به .. واعمل بما تأمر به لمن حضرك أو نأى عنك من اجنادك على حسب ما ترى وتشاهد ، فان أخاك يعرف حسن اختيارك وصحة رأيك وبعد نظرك ، وهو يستحفظ الله لك ، ويسأله أن يشد بك عضده ، ويجمع بك أمره ، انه لطيف لما يشاء » .

ولما وصلت هذه الرسالة الى المأمون ــ وهى تؤكد الشروط والعهود التى سبق أن أقرها الرشيد (١) ، وتكشف عن وثوق الأمين بصحة راى أخيه وبعد نظره ــ كان المأمون فى طريقه من مرو الى سمرقند ، فوصلته الرسالة وهو على مسيرة فرسخ من مرو ، فعاد اليها ودخل دار الامارة ، ثم نعى الرشيد على المنبر وشق ثوبه ونزل . وأمر للناس بمال فوزع عليهم ، وبايع لمحمد ولنفسه ، وأعطى الجند اثنى عشر شهرا . ولست أشك فى أن فجيعة المأمون

(١) فى كتاب « الامامة والسياسة » أن العلة حين اشتدت على هارون ذكر البيعة لابنه المأمون ، فلما سمعت بذلك زبيدة هجرته وتغاضت عنه ، ثم دخلت عليه فعاتبته فى ذلك أشد المعاتبة ، فقال لها الرشيد : ويحك انما هى أمة محمد ورعاية من استرعانى الله مطوقا بعنقى . ثم يقول فى ختام الرواية ان الرشيد جعل الخلافة للمأمون أولا ثم الأمين ، وهذه الرواية التى ينفرد بها الكتاب اما أن تكون خطأ أو لعلها تبين أن الرشيد حاول ذلك قبل وفاته (الامامة والسياسة ٢ : ١٧٢)

فى أبيه الرشيد كانت عظيمة ، فقد كان الرشيد – كما رأينا – يؤكد فى كل مناسبة تقديره العميق للمأمون وحبه الجارف له : لقد منحه ولاية خراسان وهو بعد صبى صغير ، فاستفاد من وجوده فيها فائدة عظيمة من الناحيتين السياسية والثقافية . أما من الناحية السياسية فقد تمكن وهو فى خراسان – موطن خئولته – من رد طغيان الأمين واستيلائه على السلطة فى النهاية ، وأما من الناحية الثقافية ، فقد تأثر بالهيلنية المحدثة التى كانت مرو مركزا لها ، واستفاد ثقافة فلسفية انضافت الى ثقافته العربية الأصـــــيلة .

وكان الرشيد فى حياته يدرب المأمون على أصـــــول الحكم والسياسة ، فكان يندبه لقيادة الجيوش وقمع الفتن ، كما كان ينيبه عنه فى المناسبات الاجتماعية ، فيخبرنا ابن عبد ربه أن الرشيد بعث ابنه المأمون للصلاة على الكسائى وابراهيم الموصلى والعباس بن الأحنف الذين ماتوا فى وقت واحد . وكان الرشيد يدرب المأمون أيضا على مواجهة الجماهير والتأثير فيهم عن طريق الخطابة التى كان موهوبا فيها منذ صغره لجهارة صوته وحسن لهجته . ويحكى أن الرشيد طلب من أبى محمد اليزيدى مؤدب المأمون أن يعد خطبة للمأمون ليلقيها يوم الجمعة ، فأعدها له ، فلما خطب بها رقت له قلوب الناس حتى أبكاهم .

وهكذا كانت حياة المأمون فى كنف الرشيد تظلها الرعاية والمحبة ، وكانت عملا وجهدا ، وكانت فترة تكوين لشخصية المأمون وتدريب له على السياسة والحكم . وواضح أن المأمون كان يتردد بين خراسان وبغداد ، يقيم فترة من الوقت فى مقر ولايته ، وفترة أخرى فى مركز الخلافة قريبا من الرشيد . وواضح أيضا أن المأمون تزوج فى سن مبكرة – شأن الشباب فى ذلك العصر – ولعل أولى زوجاته هى أم عيسى ابنة عمه موسى الهادى ، وقد ظلت مقيمة فى بغداد ومعها طفلاها من المأمون الى أن سقطت بغداد فى أيدى قواته ،

فانتقلت مع طفليها الى خراسان . ويذكر صاحب شذرات الذهب أن المأمون قد تزوجها فى عام ١٨٨ هـ أى أنه كان يبلغ ثمانية عشرة سنة من عمره وقتذاك .

وقد كان من الممكن أن تستمر حياة المأمون وأخيه الأمين كما أراد لهما الرشيد : المأمون يتولى أمر خراسان وله بها استقلال يكاد يكون كاملا ، والأمين خليفة المسلمين ، ولكن القدر كان يوجه حياتهما توجيها آخر ، ذلك أن قواد الرشيد وأهله تشاوروا — وهم فى خراسان عقب وفاة الرشيد — فى اللحاق بمحمد ، فبدأوا ينسجون خيوط الفتنة بين الأخوين ، فقال الفضل بن الربيع : لا أدع ملكا حاضرا لآخر لا ندرى ما يكون من أمره ، وأمر الناس بالرحيل الى بغداد ناكثين بوعودهم للرشيد بالبقاء الى جانب المأمون . فلما علم المأمون بذلك جمع من معه من قواد أبيه فشاورهم واخبرهم الخبر ، فأشاروا عليه بأن يلحقهم فى ألفى فارس فيردوهم ، الا أن الفضل بن سهل عارض هذا الرأى قائلا : ان فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هدية الى محمد ، ولكن الرأى أن تكتب اليهم كتابا وتوجه اليهم رسولا فتذكرهم البيعة ، وتسألهم الوفاء ، وتحذرهم الحنث .

ونفذ المأمون مشورة الفضل ، فلما وصل رسول المأمون الى جماعة المارقين وهم فى طريق عودتهم الى بغداد ، قال الفضل بن الربيع : انما أنا واحد منهم . أما عبد الرحمن بن جبلة فشد على حامل الرسالة بالرمح فأمره على جنبه ، ثم قال : قل لصاحبك والله لو كنت حاضرا لوضعت الرمح فى فيك ، ونال من المأمون .

ولما وصلت أخبار ذلك كله للمأمون ، جزع وتحسر ، وأحس أن بريق الخلافة قد أعمى أبصار فئة من الناس فضلوا وكذبوا العهود والمواثيق ، ولم يمض على وفاة الرشيد غير يوم أو بعض يوم ، ولكنه لم يلبث أن وجد حوله رجالا يقفون معه فى وجه العاصفة ، وعلى رأسهم الفضل بن سهل الذى هون على المأمون

خروج بعض قواده عليه قائلا : أعداء استرحت منهم . وعدد له الخارجين على الخلفاء من قبله وكيف تم القضاء عليهم . وأبان له أن موقفه أفضل من موقف الخلفاء السابقين لأنه نازل فى أخواله وبيعته فى أعناقهم ، ووضع الفضل يده على صدره وهو يقول للمأمون فى ختام حديثه : اصبر وأنا أضمن لك الخلافة (١) .

---

(١) انظر حديث الفضل بن سهل فى تاريخ الطبرى ١٠ : ١٢٨

الفصل الرابع

فى طوفان السياسة

أولا : فى مرو

شخصية عجيبة ارتبطت بحياة المأمون السياسية ارتباطا وثيقا منذ كان وليا للعهد فى حياة أبيه الرشيد ، حتى نهاية اقامته فى مرو بخراسان وهو خليفة على المسلمين وأقصد بهذه الشخصية الفضل ابن سهل ، وهو فارس مجوسى الأصل ، يقال انه كان من أولاد ملوك الفرس ، وأن أباه سهلا أسلم أيام المهدى (١) ، وأن الفضل كان يعمل قهرمانا ليحيى بن خالد ، أو أنه كان يشتغل فى عصر الرشيد — وهو ما يزال شابا فتيا — بالترجمة من الفارسية الى العربية ، فنقل ليحيى البرمكى كتابا لا ندرى ما هو فأعجب يحيى بحسن فهمه وجودة عبارته ، فقال له : انى أراك ذكيا وستبلغ مبلغا رفيعا ، فأسلم حتى أجد السبيل الى ادخالك فى أمورنا والاحسان اليك .

ونلاحظ هنا فى عبارة يحيى أن الفرس والموالى بصفة عامة كانوا يتخذون الاسلام وسيلة لاقتناص المراكز العليا فى الدولة . واستجاب الفضل لرغبة يحيى قائلا : نعم أصلح الله الوزير أسلم على يديك ، فقال له يحيى : لا ، ولكن أضعك موضعا تنال به حظا من دنيانا ، ودعا سلاما مولاه وقال له : خذ بيد هذا الفتى وامض به

---

(١) يقول ابن طباطبا انه أسلم أيام الرشيد (الفخرى : ٣٠٤)

الى جعفر وقل له يدخل على المأمون حتى يسلم على يديه ، وكان المأمون — كما نعلم — فى حجر جعفر . وتم الأمر كما أراد يحيى وكان ذلك فى عام ١٩٠ هـ . وظل الفضل بن سهل منذ ذلك التاريخ ملازما للمأمون ولجعفر بن يحيى ، وكان يتلقى على جعفر أصول المهارة السياسية التى كان يحذقها ، وكان البرامكة يعلقون على الفضل بن سهل آمالا كبيرة . من ذلك ما يذكره الجهشيارى قال : ذكر أبو العلاء المذارى أنه سمع الفضل بن سهل يقول ، قال لى يحيى بن خالد : فى كل أربعين سنة يحدث رجل يجدد الله به دولة ، وأنت عندى منهم . فلما نكب البرامكة تفرغ الفضل بن سهل لخدمة المأمون ، وظل امتدادا حقيقيا للبرامكة فى سخائه وكثرة أفضاله على الناس ، وفى براعته فى تحريك الأمور من وراء ستار . ووصفه الجهشيارى بأنه سخى سرى نبيل النفس . ويقول غير مصدر انه كان أخبر الناس بعلم النجامة وأكثرهم اصابة فى أحكامه ، وأن سبب ميله الى المأمون أنه نظر فى طالعه فرأى صعود نجمه فلزمه ، وبلغ من براعته فى معرفة الطوالع أنه ترك رسالة بوقت وفاته ومكان حدوثها فقال انها ستكون بين ماء ونار ، فكان مقتله فى الحمام !

وأرى أن لزوم الفضل بن سهل للمأمون واختياره جانبه لم يكن محتاجا الى رصد الطوالع والبراعة فى معرفة الغيب الذى لا يعلمه الا الله ، ولكنه كان ذكيا حاذقا يعرف شخصية المأمون جيدا وما هو عليه من همة عالية ورزانة وقدرة على تصريف الأمور ومواجهة الصعاب ، كما كان يعرف شخصية الأمين وضعفها وتهالكها على الملذات ومتابعة الشهوات . ويروى أن مؤدب المأمون قال يوما للفضل : ان المأمون لجميل الرأى فيك ، وانى لا أستبعد أن يحصل لك من جهته ألف ألف درهم ، فاغتاظ من ذلك وقال له : ألك على حقد ، ألى اليك اساءة ؟ فقال المؤدب : لا والله ما قلت هذا الا محبة لك . فقال : أتقول لى انك تحصل منه ألف ألف درهم ،

والله ما صحبته لأكتسب مالا قل أو جل ، ولكن صحبته يمضى حكم خاتمى هذا فى الشرق والغرب !

ثم لا تنسى أن الميل الطبيعى للفضل بن سهل الفارسى الأصل ينبغى أن يكون فى اتجاه المأمون لا الأمين ، ويجب أن نؤكد منذ البداية أن الفضل بن سهل لم ينس أصله الفارسى قط ، وأنه ظل يعمل لصالح الفرس ، واستطاع أن يغرر بالمأمون سنوات طويلة من ناحية استخدامه لتحقيق المصالح الفارسية أولا . ولهذا اتهم المأمون بأنه فارسى الهوى ، وأنه يقف على رأس النفوذ الفارسى ويمثله ، فى حين أن الأمين يمثل فى صراعه ضد أخيه النفوذ العربى .

وبالرغم من كل الشبهات التى تحيط بالفضل بن سهل ينبغى أن نقرر أنه يعتبر من الشخصيات التاريخية الفذة فى القدرة السياسية والاتزان الفكرى وضبط النفس الى أقصى حدودها . لقد رأينا كيف أن الفضل عارض كل مستشارى المأمون الذين أرادوا اعادة القواد الناكثين للعهود بالقوة ، وكان رأيه فى ذلك صائبا ، فما فائدة قائد منهم لا يحمل للمأمون تقديرا ولا حبا . ورأينا كيف ثبّت الفضل المأمون فى موقفه وقال له اصبر وأنا أضمن لك الخلافة ، ثقة بالنفس لا حد لها واعتداد من الفضل بقدرته ومواهبه ، ولكنه لم يكن مجرد قوال لا يدرى من أمره شيئا ، بل استطاع أن ينفذ ما وعد به المأمون فجعل الخلافة تنقاد له بعد صراع مرير وكفاح دائب .

لقد ولى الأمين الخلافة وليس فى خاطره أن ينكث بوعده ، كل ما فى نفسه أن ينصرف الى حياة عامرة بالملذات والبهجة ، حتى انه أمر ــ بعد بيعته بيوم واحد ــ ببناء ميدان حول قصر أبى جعفر فى بغداد يخصص للصوالجة . وكان ينعم بحب جاريته « نظم » التى تزوجها وأنجب منها ابنه موسى ، كما كان مشغولا بحبه الجديد للجارية « بذل » التى كانت لجعفر بن موسى الهادى فرآها الأمين وهام بها حبا حتى استطاع أن يشتريها بعشرين ألف ألف درهم كما يقول صاحب العقد الفريد وان كنت أشك فى صحة هذا الرقم

لضخامته ، ولم يكن يشغل بال الأمين صراع من أجل السلطان ، بل كان مشغولا بلهوه ، منهمكا فى الملذات — كما يقول كثير من المؤرخين ، حتى حين يلقى وزيره الفضل بن الربيع الذى آثر أن ينكث بوعده للمأمون ، ليبقى بجانب الأمين ايثارا منه لعاجل فائدة ، لم يكن لقاء الأمين مع وزيره جدا كله ، بل لعل معظم تلاقيهما كان للعب النرد ، ويقال انهما لعبا يوما فتراهنا فى خاتميهما ، فغلب الأمين فأخذ الخاتم وارسل فى الحال وأحضر صائغا ، وكان مكتوبا على الخاتم « الفضل بن الربيع » ، فقال الأمين للصائغ : اكتب تحته « ينكح » ، فنقش الصائغ ذلك فى الحال . ثم أعاد الخاتم الى الفضل وهو لا يعلم ما نقش عليه ، ومضت على ذلك أيام ، دخل بعدها الفضل على الأمين فسأله : ما على خاتمك مكتوب ؟ قال : اسمى واسم أبى ، فتناوله الأمين ثم قال له : ما هـذا المكتوب تحت اسمك ؟ فلما قرأه الفضل فهم ما فعله به الأمين ، فقال : لا حول ولا قوة الا بالله العظيم ، هذا والله هو الخذلان المبين ، أنا وزيرك ولى اليوم كذا وكذا يوما أختم الكتب بهذا الى الأطراف وهو على هذه الصفة ، هذا والله آخر الدولة ودمارها ! وهذه القصة — على غرابتها — ليست منكورة على الاطلاق لمن يعرف أخلاق الأمين وتشاغله بالبطالة واللهو عن كل امور الدولة وما يمس كرامتها وسمعتها .

وكان من الممكن أن تمضى به الأمور على هذا المنوال دون أن يدخل مسالك السياسة الضيقة ودروبها المعقدة ، ودون أن يشغل نفسه بالحرب وأهوالها ، ولكن قيض الله له وزيره الفضل بن الربيع — وقد رأينا قصر نظره فى الميل الى جانب الأمين دون المأمون — وكأنما خشى على نفسه غضب المأمون اذا صار الى الخلافة يوما (١) ،

---

(١) كشف المأمون عن بغض الفضل بن الربيع له منذ أيام أبيه الرشيد فقال : « كان فى أيام الرشيد وحاله حالى يرانى بوجه أعرف فيه البغضاء والشنآن ، وكان له عندى كالذى لى عنده ، ولكنى كنت أداريه خوفا من =

فسعى – كما يقول الطبرى – « فى اغراء محمد به وحثه على خلعه وصرف ولاية العهد من بعده الى ابنه موسى ، ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه ، بل كان عزمه فيما ذكر عنه الوفاء لأخويه .. فلم يزل الفضل به يصغر فى عينيه شأن المأمون ويزين له خلعه حتى قال له : ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك فان البيعة كانت لك متقدمة قبلهما ، وانما أدخلا فيها بعدك واحدا بعد واحد ، وأدخل فى ذلك من رأيه معه : على بن عيسى بن ماهان ، والسندى بن شاهك ، وغيرهما ممن بحضرته ، فأزال محمدا عن رأيه » .

ونحن نعلم مدى انقياد الأمين لآراء غيره ، فلم يلبث الا شهورا منذ بداية خلافته حتى عزل أخاه القاسم عن جميع ما كان أبوه هارون ولاه من عمل بالشام وقنسرين والعواصم والثغور ، وولى مكانه خزيمة بن خازم ، ثم أمر بالدعاء لابنه موسى على المنابر بالامرة بعد الدعاء له وللمأمون وللقاسم . وكانت هذه خطوة لها ما بعدها ، وقد استطاع المأمون أن يدرك أن الأمين يدبر خلعه فقطع البريد عنه واسقط اسمه من الطرز ، حتى يؤكد له تنبهه الى ما يراد به واستعداده للمقاومة . ولم يلبث بعض قواد الأمين – الذين أحسوا ضعفه وانقياده – أن تركوه ولحقوا بالمأمون فى خراسان ، وكان أهم هؤلاء القواد رافع بن الليث بن نصر بن سيار ، وهرثمة بن أيمن الذى ولاه المأمون قيادة حرسه . عندئذ بدأت الأمور تتحرج بين الأخوين ، وأحس كل منهما تأهب الآخر له بعد أن اظهر كلاهما المودة لصاحبه من اقبل ، فكانت رسالة الأمين الأولى مؤكدة للمواثيق والعهود ، أما المأمون فقد تواترت رسائله الى أخيه الأمين بالتعظيم ، كما تواترت هداياه اليه من طرف خراسان من المتاع والآنيـــة والمسك والدواب والسلاح .

= سعايته وحذرا من أكاذيبه ، فكنت اذا سلمت عليه فرد على أظل لذلك فرحا ، وبه مبتهجا ، وكان صفوه الى المخلوع (كتاب بغداد : ١٥)

ولم يلبث الأمين أن اقتنع بوجوب عزل اخويه من ولاية العهد ، فبعث الى المأمون ثلاثة رسل هم العباس بن موسى بن عيسى ، وصالح صاحب المصلى ، ومحمد بن عيسى بن نهيلة ليبلغوه تقديم موسى بن الأمين الذى سمى « الناطق بالحق » على نفسه ، فأبى المأمون ذلك ، وأراد أحدهم وهو العباس بن موسى أن يهون الأمر عليه قائلا : وما عليك أيها الأمير من ذلك ، فهذا جدى عيسى ابن موسى قد خلع فما ضره ذلك ! عندئذ صاح الفضل بن سهل بالعباس قائلا : اسكت فان جدك كان فى أيديهم أسيرا ، وهذا بين أخواله وشيعته . وأعجب الفضل بذكاء العباس فأراد أن يستميله الى جانب المأمون فخلا به وقال له : يذهب عليك فى فهمك وسنك أن تأخذ بحظك من المأمون ؟ ومناه بولاية الموسم وبعض مواضع الأعمال بمصر ، ولم يتركه حتى أخذ عليه البيعة للمأمون بالخلافة فكان العباس بن موسى بعد ذلك عينا على الأمين يبعث بأخبـاره الى المأمون .

وباشارة من الفضل فيما يظهر أطلق على المأمون اسم الامام تمهيدا لاعلان خلافته ، ولما استنكر أخوه الأمين هذه التسمية ، وأثار موضوعها أحد رسله ، أجاب الفضل بن سهل فى خبث : قد يكون امام المسجد والقبيلة ، فان وفيتم لم يضركم ، وان غدرتم فهو ذاك .

وبازاء هذا الجهد الضخم الذى كان يبذله الفضل بن سهل لتحقيق النصر السياسى للمأمون ، كان الفضل بن الربيع يقود المعركة فى الجانب الآخر : جانب الأمين ، فنهى عن ذكر المأمون والقاسم والدعاء لهما على المنابر ، وأعلن المبايعة لموسى بن الأمين وولاه العراق ، وأرسل الى مكة ليأخذ المواثيق التى وضعها الرشيد فى الكعبة ، ونجح فى الحصول عليها من الحجبة فمزقها الأمين .

وأخذ كل جانب من الفريقين يعجم عود الآخر ، فالأمين يطلب الى المأمون أن يتنازل له عن بعض الكور الداخلة فى نطاق ولايته ، والمأمون يأبى ذلك استنادا الى ما هو مثبت فى العهود والمواثيق ،

والى وجوده وسط عدو مخوف الشوكة وأجناد لا تطيع الا بالأموال. ثم يأمر المأمون بوضع حراسة مشددة على حدود خراسان ، فلا يجوز رسول من العراق الا مع ثقات من رجاله ، لا يدعونه يستعلم خبرا أو يؤثر أثرا . وبذلك استطاع أن يحمى أهل خراسان من أن يستمالوا برغبة أو تودع صدورهم رهبة . وكل ذلك كان بتدبير الفضل بن سهل الذى وكل اليه المأمون قيادة المعركة السياسية . ورد الأمين على رفض المأمون التنازل له عن كور الجبال ردا عنيفا ، فلم يملك المأمون الا أن يجيبه برسالة يقول فى ختامها : « فلا تبعثنى يا ابن أبى على مخالفتك وأنا مذعن بطاعتك ، ولا على قطيعتك وأنا على ايثار ما تحب من صلتك ، وارض مما حكم به الحق فى أمرك ، أكن بالمكان الذى أنزلنى به الحق فيما بينى وبينك والسلام » ووقعت هذه الرسالة وقع الصاعقة على الأمين فرد على أخيه ردا عنيفا يخوفه من تعرضه « لنار لا قبل له بها » . وانتابت المأمون الهواجس خوفا على زوجه وولديه الذين خلفهم فى بغداد ، وخوفا على ماله الذى تركه له الرشيد (١) .

فكتب الى الأمين يستأذنه فى حمل أهله وماله اليه ، فلم يأذن له . ومع ذلك ظل المأمون ثابتا فى موقفه ازاء هذا الجو المتوتر الملىء بالاحتمالات ، وكان الفضل بن سهل ينصحه بألا يكون « المستفتح باب الفرقة » حتى لا يفقد عطف العامة عليه ، والعامة دائما مع المظلوم المفترى عليه ، فى الوقت الذى كان الأمين فيه يستشير الناس فى خلع أخيه ، ويرى أن ولايته للعهد كانت « فلتة شبهها على الرشيد جعفر بن يحيى بسحره » .

والحقيقة ان الخلاف بين الأخوين منذ بدايته كان يتحول الى صالح المأمون بحكم شخصيته القوية الثابتة ، البعيدة عن التهالك

---

(١) ذكرنا أن الرشيد بعث الى المأمون فى بغداد مائة ألف دينار ، ولكن جاء على لسان المأمون فى رواية للطبرى أن الرشيد منحه مائة ألف ألف ، ولعلها دراهم وليست دنانير (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٤)

على الملذات والشهوات ، وبحكم مستشاريه الناصحين وعلى رأسهم الفضل بن سهل بسعة أفقه وحسن تدبيره ، وبحكم السياسة الرشيدة التى سار عليها المأمون فى خراسان فاستطاع استمالة الجنود وعامة الناس بحيث لا ينحازون الى غيره ، حتى ان الفضل ابن الربيع حين سأل أحد الخبراء عن امكان اثارة اهل خراسان وجندها ضد المأمون ، قال له : اجناد عبد الله قوم على بصيرة من أمرهم لتقدم سعيهم وما يتعاهدون من خطبهم ، وأما العامة فهم قوم كانوا فى بلوى عظيمة من تحيف ، ولأنهم فى أموالهم ثم فى انفسهم صاروا به الى الأمنية من المال والرفاهية فى المعيشة ، فهم يدافعون عن نعمة حادثة لهم ، ويتذكرون بلية لا يأمنون العودة اليها » . يضاف الى ذلك ان شعور عامة الناس كان مع المأمون لاحساسهم بأن الأمين قد ظلمه وحرمه من حق كان قد شهد عليه فى الكعبة .

ونرى فى الجانب الآخر ضعف شخصية الأمين وتهالكه على مغريات الحياة وتشاغله بالبطالة واللهو وتبديده الأموال فيما لا يجدى ، ثم ان من حوله من المستشارين الذين اصطنعهم كانوا ممن نبذهم أبوه الرشيد وأقصاهم لسوء سيرتهم ، فاذا لجأ الأمين الى ناصح يخلص له مثل يحيى بن سليم أبى أن يتبعه واتهمه بالخديعة . أما رأى يحيى فيقول فيه « اذا كان رأى أمير المؤمنين خلعه (اى المأمون) فلا تجاهره مجاهرة فيستنكرها الناس وتستشنعها العامة ولكن تستدعى الجند بعد الجند ، والقائد بعد القائد وتؤنسه بالألطاف والهدايا وتفرق ثقاته ومن معه وترغبهم بالأموال ، وتستميلهم بالأطماع ، فاذا أوهنت قوته واستفرغت رجاله أمرته بالقدوم عليك ، فان قدم صار الى الذى تريد منه ، وان أبى كنت قد تناولته وقد كل حده ، وهيض جناحه ، وضعف ركنه ، وانقطع عزه » .

ومع هذا كله كان المأمون يتهيب الموقف فى حالات ضعف تنتابه ، وكان يهم ان يسلم نفسه للأمين حتى لا يقع بينهما ما لابد

أن يقع من صدام وحرب ، وكان الفضل بن سهل يثبته فى مكانه المرة بعد المرة ويطالبه بالتمسك بموضعه ، فيجيب المأمون فى غمرة اليأس : « وكيف يمكننى التمسك بموضعى ومخالفة محمد وعظم القواد والجنود معه ، وأكثر الأموال والخزائن قد صارت اليه ، مع ما قد فرق فى أهل بغداد من صلاته وفوائده ، وانما النـاس مائلون مع الدراهم منقادون لها ، لا ينظرون اذا وجدوها حفظ بيعة ، ولا يرغبون فى وفاء عهد ولا أمانة » . ويثير الفضل الأمل فى نفس أميره ، ويستحث كرامته ونخوته فيقول : « أنا لغدر محمد متخوف ، ومن شرهه الى ما فى يديك مشفق ، ولأن تكون فى جندك وعزك ، مقيما بين ظهرانى أهل ولايتك أحرى ، فان دهمك منه أمر جردت له وناجزته وكايدته ، فاما أعطاك الله الظفر عليه بوفائك ونيتك ، أو كانت الأخرى فمت محافظا مكرما ، غير ملق بيديك ، ولا ممكن عدوك من الاحتكام فى نفسك ودمك » . ولا تظهر براعة الفضل بن سهل وثباته وحسن سياسته وتدبيره فى هـذا الموقف فحسب ، بل تبدو أيضا حين تخوف المأمون شر أخيه ، وشر ملوك العجم المحيطين به فى خراسان ، والذين استثارهم الأمين فى الغالب ضد أخيه ، فتحفزوا للقضاء على المأمون ، وهم جيفوية ، وخاقان صاحب التبت ، وملك كابل ، وملك أترار بنده ، مما جعل المأمون يفكر فى الهروب من هذا الموقف العسير كله ، ليلجأ الى ملك الترك ، ولكن الفضل شد من أزره ، وأشار عليه بمنح جيفوية وخاقان اسـتقلالهما الذاتى ، وارسال هـدايا الى ملك كابل لاسترضائه ، والتنازل عن الجزية لملك اترار بنده .

وكان لابد أن يحدث الصدام المسلح بعد معركة التحـدى السياسى من الجانبين فى صورة الرسائل المتبادلة بينهما ، وبعد أن أعلن الأمين خلع أخيه وبايع لابنيه موسى وسماه الناطق بالحق ، وعبد الله وسماه القائم بالحق . وبدأ الأمين هذا الصدام باعداد جيش قوى يتكون من أربعين ألف مقـاتل ، جعل قيادته لعلى بن موسى بن ماهان ، وبدأ الجيش مسيره فى جمادى الآخرة (وقيل

شعبان) عام ١٩٥ هـ ، وقائده مزهو بنفسه وبجيشه ، واثق من نجاحه فى مهمته ، حتى لقد أخذ معه قيدا من فضة ليليق بمعصم المأمون حين يأتى به أسيرا . وبعث المأمون جيشا متواضعا يبلغ تعداده أقل من أربعة آلاف يتكون معظمه من الأتراك والفرس ، وجعل على رأسه طاهر بن الحسين أكبر قواده ، وكان ذا شهرة واسعة فى فنون القتال .

وكان على بن عيسى يستعلم فى الطريق أخبار طاهر وهو يسخر منه ويقول : « وما طاهر ؟ فوالله ما هو الا شوكة من أغصانى ، أو شرارة من نارى ، وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ، ويلقى الحروب » . واستطاع طاهر بن الحسين أن يحدد موقع المعركة لتكون ملائمة لظروف قواته القليلة العدد ، فجعل الرى وراءه ليتحصن بها ويقاتل فى سككها اذا هزم ، وقبل أن يبدأ القتال ذكر طاهر على بن عيسى ببيعته للمأمون ، ثم جمع سبعمائة رجل ممن يثق بهم ، وهجم على قلب قوات على بن عيسى فى ضربة مفاجئة ، واستطاع بهذه الحركة أن ينال رأس على بن عيسى ، فدب اليأس فى نفوس جنده ، واستطاع طاهر أن يستبيح عسكره ، وهجم جنوده فوجدوا صناديق حسبوها مالا ، فلما كسروها فاذا فيها خمر سوادى !

وكان هذا الانتصار مفاجأة كبرى للفريقين المتنازعين . أما الأمين فلم يدر بخلده قط أن جيشه الضخم يمكن أن تدور عليه هزيمة منكرة ، وأن أعظم قواده وأولهم اجابة له فى خلع المأمون يقتل فى أول لقاء . وأما المأمون فكان يستهول جيش الأمين وقوة عدته ، ويتخوف على بن عيسى لمكانته وصحبته الطويلة لأهل خراسان ، ولهذا نراه قبل بدء القتال يبعث اليه رسالة مطولة يذكره فيها البيعة التى فى عنقه ، وكأنه يستعطفه الا يقود جيشا ضده . ولم يدر المأمون أن على بن عيسى سوف يقتله غروره بنفسه ، وزهوه بقوته ، واستهانته بعدوه ، حتى نسى أبسط قواعد القتال من بث الطلائع وجمع الأخبار . وأرسل طاهر الى الفضل بن سهل

وزير المأمون يبشره بالظفر قائلا : « أطال الله بقاءك وكبت أعداءك ، وجعل من يشناك فداك . كتبت اليك ورأس على بن عيسى فى حجرى ، وخاتمه فى يدى ، والحمد لله رب العالمين » .

وعقب هذا النصر العظيم لم يجد المأمون بدا من خلع أخيه الأمين واعلان نفسه خليفة على المسلمين ، فقد استعلن الشر ، ولابد من خوض المعركة الى نهايتها . وتغنى شعراء المأمون بهذا الانتصار الذى كان تمهيدا قويا للخلافة .

أما فى الجانب الآخر : جانب الأمين فقد كانت الضربة شديدة عليه فلم يدر ما يصنع الا أن يمعن فى تحديه للمأمون فصادر أمواله وضياعه وغلاته ، وضمها الى نفسه ، وأرسل الى زوجته أم عيسى المقيمة فى بغداد فطلب ما عندها من جوهر ، فلما امتنعت هجم على منزلها وانتهب كل ما فيه وأخذ كل ما لديها من جوهر . ثم سارع بارسال جيش آخر يبلغ عشرين ألفا بقيادة عبد الرحمن الابناوى ، لم يكن حظه خيرا من حظ سابقه ، وقتل عبد الرحمن أيضا بعد أن أبى الفرار وظل يقاتل فى شجاعة وبطولة ، ويحمس جنوده العرب مشيرا الى أعدائه قائلا : « انهم لعجم وليسوا بأصحاب مطاولة ولا صبر » .

وقبل أن يصل جيش عبد الرحمن ويقتتل مع طاهر ، كان طاهر قد فرغ لتوه من جيش آخر للأمين ، كان عبارة عن فلول جيش على بن عيسى جمعها ابنه يحيى بعد انقضاء المعركة وحاول أن يصنع شيئا الا أن طاهرا حصره فى همذان واضطره الى طلب الأمان .

وكان يحدث ذلك كله والأمين لا يغير شيئا من أسلوب حياته ، وكأنه لم يكن يرى فى هذه الحرب التى يخوضها معركة مصير ، بل مناوشة سرعان ما ينتهى أمرها ، تحتاج الى مال من السهل تدبيره ، والى رجال يسوقهم للموت وما أكثرهم ، أما هو فيتشاغل بعبثه « ينام نوم الظربان لا يفكر فى زوال نعمة ، ولا يروى فى امضاء

رأى ولا مكيدة ، قد ألهته كأسه وشغله قدحه ، فهو يجرى فى لهوه والأيام تضرع فى هلاكه »(١) .

بل يروى الطبرى ان الأمين لما جاءه نعى على بن عيسى ، كان على الشط يصيد السمك ، فقال للذى أخبره : ويلك دعنى فان كوثرا قد اصطاد سمكتين وانا ما اصطدت شيئا بعد .

وقد شجع انتصار جيوش المأمون جند أخيه على القيام بثورة ضده ، ولكنه استطاع تهدئتهم بتفريق الأموال فيهم ، ولكنه لم يستطع أن يمنع الشعراء من السخرية به وبمجونه وشذوذه ، وبولى عهده ووزيره ومستشاريه .

وأحس المأمون بعد انتصاره الثالث على جيوش الأمين استقرارا وأمنا بفضل سياسة وزيره الداهية ، بل لقد احس هذا الاستقرار والأمن منذ انتصار طاهر على جيش على بن عيسى الذى كان يمثل معظم قوة الأمين العسكرية ، ولهذا نراه يدخل المسجد فى مرو فيصعد المنبر ويحمد الله ويثنى عليه ويصلى على رسوله ، ثم يخاطب الناس فى شبه عهد مؤكد وميثاق يستهل به خلافته ، ويشرح فيه أسس سياسته فيقول : « أيها الناس انى جعلت الله على نفسى أن استرعانى أموركم أن أطيعه فيكم ولا أسفك دما عمدا لا تحله حدوده ، وتسفكه فرائضه ، ولا آخذ لأحد مالا ولا أثاثا ولا نحلة تحرم على ، ولا أحكم بهواى فى غضبى ولا رضاى الا ما كان فى الله له ، جعلت ذلك كله عهدا مؤكدا ، وميثاقا مشددا ، انى أفى رغبة فى زيادته اياى فى نعمى ، ورهبة من مسألته اياى عن حقه وخلقه ، فان غيرت أو بدلت كنت للعبر مستأهلا ، وللنكال متعرضا ، وأعوذ بالله من سخطه ، وارغب اليه فى المعونة على طاعته ، وأن يحول بينى وبين معصيته .

وشعر المأمون أنه مدين بهذا النصر العظيم للفضل بن سهل

---

(١) هذا ما وصفه به وزيره الفضل بن الربيع (الطبرى ١٠ : ١٥٧) والظربان دويبة يبدو انها تنام كثيرا .

فأراد مكافأته فعقد له على الشرق من جبل همذان الى جبل سقينان والتبت طولا ، ومن بحر فارس والهند الى بحر الديلم وجرجان عرضا ، وجعل له عمالة ثلاثة آلاف ألف درهم ، وعقد له لواء على سنان ذى شعبتين ، وأعطاه علما وسماه ذا الرئاستين : رئاسة الحرب ورئاسة التدبير . ويبدو أن المأمون لم يكتف بذلك فقد كان يحس أنه مغمور بمعروف الفضل بن سهل وبعد نظره ، فكتب له كتابا سماه « كتاب الشرط والحباء » يصف فيه طاعته ونصيحته وعظته وعنايته ، وذهابه بنفسه عن الدنيا ، وارتفاعه عما بذل من الأموال والقطائع والجوهر والعقد ، ويشرط له على نفسه كلما يسأل ويطلب لا يدفعه ولا يمنعه ، ووقع فيه المأمون بخطه وأشهد على نفسه .

والمأمون بتسليمه الفضل كل السلطات معذور أشد العذر ، فالفضل شخصية قوية طاغية ، ولولاه لأسلم المأمون نفسه للأمين ، فهو جدير بالثقة من ناحية ولائه للمأمون ، كما انه جدير بالثقة من نواح أخرى ، فقد كان نزيها عن أموال الرعية كما وصفه المأمون بحق ، وحينما قتل لم يوجد له مال ولا ضيعة ولا فرس ولا آنية يعتد بها ، وكل ما وجد فى ميراثه خمسة أعبد وفرس وبرذون . وكان الفضل يحس أنه غنى بجاهه ونفوذه ، فقد قال له أحد جلسائه يوما : « أيها الأمير لو أمرت أن يتخذ لك ضياع وعقد ، فقال : ولم ويحك ؟ ان دام ما أنا فيه فالدنيا كلها صنيعتى وعقدى . يضاف الى ذلك أنه لم يكن رجلا تتحكم فيه الشهوة أو تأسره اللذة ، فهو لم يبح لنفسه النبيذ الذى أباحه العراقيون بصفة عامة استنادا الى تفسير لأبى حنيفة ، بل كان يحرمه ويحظر شربه ويأمر بعقوبة شاربه . واذا صح ما روى من أن المأمون جهد بالفضل أن يزوجه بعض بناته فأبى ، لكان فى ذلك دلالة على قوته النفسية وعدم انسياقه وراء العواطف او المظاهر » .

وظل الفضل فى مرو يقود المعركة السياسية ضد الأمين ، بينما قائد المأمون العظيم طاهر بن الحسين يكتسح المدن والكور التى

تخلفها وراءها جيوش الأمين المنكسرة . ولم يكن جهد طاهر فى اقامة دولة المأمون أقل من جهد الفضل ، فقد تحمل عبء القيادة العسكرية منذ البداية ، فى الوقت الذى جبن فيه معظم قواد المأمون عن تحملها . وطاهر كالفضل من أصل فارسى ، فقد ذكر المسعودى نسبه فقال : طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق ابن حمزة الرستمى من ولد رستم بن دستان الشديد وهم موالى خزاعة فى الاسلام ، واليهم ينتمون . ويقول محمد الخضرى ان جد طاهر كان مولى طلحة بن عبيد الله المعروف بطلحة الطلحات الخزاعى والى سجستان ، ويغلب على الظن أنه مولى اسلام ، أسلم على يده فانتسب الى قبيلته ، ولذلك كان يقال له الخزاعى .

وبعد أن انتصر طاهر على جيوش الأمين فى ثلاث مواقع ، برغم ضخامتها ووفرة عدتها ، زادت ثقته بنفسه ، فانطلق يحوز المدن ويضمها الى ملك المأمون ، ولكن الأمين لم يكن قد ألقى سلاحه بعد ، لقد بعث الى أسد بن يزيد بن مزيد ليقود جيشاً جديدا ضد المأمون ، فاشترط أسد شروطا قاسية بالنسبة لاختيار الجند وما يقدم لهم من عطاء جزيل يوازى عطاء سنتين ، كما طلب ألا يحاسب عما يفتتحه من المدن والكور . ووافق الأمين مرغما على هذه الشروط جميعا ، الا أنه حمى غضبا حين طلب أسد أن يدفع اليه ابنا المأمون ليكونا أسيرين فى يده حتى يعطى أبوهما الطاعة ، فان أبى ينفذ فيهما أمره . وصاح الأمين بأسد بن يزيد — وهذا موقف يحمد له : « أنت اعرابى مجنون ، أدعوك الى ولاء أعنة العرب والعجم ، وأطعمك خراج كور الجبال الى خراسان ، وأرفع منزلتك عن نظرائك من أبناء القواد والملوك وتدعونى الى قتل ولدى وسفك دماء أهل بيتى ، ان هذا المخرق والتخطيط » .

وهذا الموقف النبيل الذى وقفه الأمين يتفق مع ما طلبه الى على بن عيسى — حين كان واثقا بالنصر — ألا يؤذى أخاه المأمون ، وأن يأتى به آسيرا .

وبدلا من أن يبعث الأمين بأسد بن يزيد قائدا ألقى به فى

السجن ، واختار أخاه أحمد بن يزيد لقيادة الجيش الجديد الذى تألف من عشرين ألف رجل من الأعراب ، كما عززه بجيش من الأبناء فى مثل هذا العدد يقوده عبد الله بن حميد بن قحطبة . وزحف الجيشان الى طاهر ، فاستعظم قوتهما ، ولكنه لم يلبث أن استخدم الأساليب السياسية فى تبديد شمل هذه القوة ، فدس الجواسيس يبثون الأراجيف أن الأمين قد أنقص عطاءهم ، حتى وقع الخلاف فى صفوف جيش الأمين ، وقاتل الجند بعضهم بعضا ، ورجعوا دون أن يقاتلوا طاهرا .

وكان لابد للأمين أن يرسل جيشا آخر بعد أن عظم أمر طاهر وعظم أمر سيده المأمون فأشار عليه عبد الملك بن صالح — وكان واليا على الشام فى عهد الرشيد — بأن يعد جيشا من أبناء الشام هذه المرة ، لأن جند العراق خوفتهم الهزائم المتلاحقة ، وأضعفتهم الحرب وامتلأت قلوبهم هيبة لعدوهم . فاستجاب الأمين لرأيه ، وولاه الشام والجزيرة ، واستحثه على الخروج لملاقاة جند المأمون ، ولم يقدر لهذا الجيش أن يخرج من الشام ، اذ نشبت بين جنوده معارك قبلية ، فقتل بعضهم بعضا ، وما لبث أن توفى عبد الملك ابن صالح نفسه . والى هنا كان الضيق قد بلغ مداه بأهل العراق عامة ، وأهل بغداد بصفة خاصة ، فدبروا انقلابا للاطاحة بخلافة الأمين ، واستطاعوا القبض عليه وسجنه ، وأخذوا عليه البيعة لأخيه المأمون . ومن العجيب أن مدبر هذا الانقلاب الذى أراد أن يصرف الخلافة الى المأمون هو الحسين ابن أول قائد لجيوش الأمين ضد المأمون على بن عيسى الذى قتل فى المعركة . ولم يستمر نجاح هذا الانقلاب أكثر من يومين ، استطاع بعدهما أنصار الأمين فك أسره واخماد الفتنة .

وفى غمرة هذا الاضطراب الذى كان يسود بغداد عاصمة خلافة الأمين ، كان طاهر يمضى فى طريقه من حلوان الى الأهواز ، فيستولى عليها ، وينفذ عماله فى كورها ، ويولى على اليمامة والبحرين وعمان عمالا من قبله . ثم يتوجه الى مدينة واسط ، وعمال الأمين يهربون

من وجهه . بل ان أحدهم لا يجد عارا فى ذلك فهو يقول لتابعه : « قرب فرس الهرب فانه طاهر ، ولا عار علينا فى الهرب منه » .

وأرسل طاهر أحد قواده فاستولى على الكوفة ، وسرعان ما جاءه كتاب من عامل الأمين على البصرة يقر فيه بخلع الأمين ، وكذلك فعل عامل الموصل ، وتبعهما بعد ذلك عامل الأمين على مكة والمدينة . وحين أقبل موسم الحج دعى للمأمون بالخلافة فيه لأول مرة بدلا من الأمين ، وكان يتولى الموسم العباس بن موسى ابن عيسى من قبل المأمون .

وعندما اقترب طاهر من بغداد انشق عليه عدد كبير من جنوده يبلغ نحو خمسة آلاف ، ملوا عنف المعارك وطمعوا فى صـــلات الأمين وعطاياه ، ويبدو أن رجال الأمين استطاعوا اســـتمالتهم من هذه الناحية ، فسر الأمين بانضمامهم اليه بعد أن سقطت أجزاء الدولة فى أيدى رجال المأمون ، وأصبح الأمين محصورا فى مدينة بغداد فحسب ، ولهذا فرق فى هؤلاء المارقين عن جيش طاهر أموالا عظيمة ، وقود رجالا منهم وغلف لحاهم بالغالية ، بينما لم يعط قواده شيئا . واستطاع جواسيس طاهر أن ينقلوا اليه ذلك الخبر ، فراسلهم ووعدهم ، واستمالهم وأغرى أصاغرهم بأكابرهم ، فشغبوا على محمد ، ولحق كثير منهم بطاهر . ولم يفلح « قواد الغالية » كما سماهم أهل بغداد ، فى قمع ثورتهم واضطرابهم ففسد الأمن وخرج أهل السجون ، وسادت الفوضى . وأصبح لا أمل لأهل بغداد الا دخول طاهر اليهم ، ليستتب الأمن والنظام فى مدينتهم .

ولم يحس الشعب وحده وطأة هذا الخلاف ، بل أحسه الأمراء العباسيون أنفسهم ، وقد ظلوا محايدين لا ينحازون الى فريق دون الآخر ، فلما امتد النزاع واستمر أكثر من عامين ، لم يجدوا بدا من اتخاذ جانب ، فمال معظمهم الى المأمون ، فلحق به أخوه القاسم ومنصور بن المهدى سنة سبع وتسعين ومائة . وفى السنة ذاتها تم لطاهر بمعونة القائد العربى العظيم هرثمة بن أيمن حصار بغداد . وضاق الخناق على الأمين فأنفق كل ما لديه من مال ، ثم اضطر

أن يبيع ما فى خزائنه من أمتعة ، كما أخرج آنية الذهب والفضة وضربها دنانير ودراهم لينفق منها على حـــربه اليائســـــة .
وانا لنستشعر يأس الأمين القاتل وندمه الشديد على كل ما بدر منه فى آخر خطبة له قبل مقتله بأيام ، وقد نفث فيها كل ما كان يعتمل فى صدره من ضيق ، ولم يتحرج فى كشف غفلته وســوء تقديره وانقياده لوزيره الفضل بن الربيع .

وبذل الفريقان جهدهما فى تقريب يوم الانتصار ، ولم يباليا بأرواح الناس وأرزاقهم ودورهم فى بغداد ، فعم القتل والتخريب والدمار ، وعاث الأوباش والرعاع واللصوص ، وكان البغدادى الذى يجد سبيلا للهجرة هو السعيد فى تلك الأيام . واضطر الأمين الى اصطناع السفلة والأوباش ، فكان الناس اذا تخلصوا من أيديهم ووصلوا الى جانب طاهر ، ذهب عنهم الروع وأمنوا وأظهرت المرأة ما معها من ذهب وفضة أو متاع وبز . وما ذاك الا لأن جيش طاهر نظامى ، وكانت أوامره صريحة بحفظ الضعفاء والنساء ، أما جيش الأمين فكان فلولا مبعثرة يدخل فيها كل طامع أثيم . بل نجد الأمين بعد انتصار قواته على جيش طاهر لأول مرة فى وقعة قصر صالح ، يقبل على اللهو والشراب ، ويكل أمره كله الى محمد بن عيسى بن نهيك والى الهرش ، وهم اللصوص والفساق الذين كانوا يسلبون ما يقدرون عليه من الناس . ولكن هؤلاء السفلة الأوباش ظهر فيهم شجعان ومقاتلون خطرون ، استهان بهم أحد فرسان جيش طاهر حين رآهم عرايا لا سلاح معهم ولا عدة ، ولا جنة تقيهم فأوتر قوسه وتقدم فأبصره بعضهم وتحت ابطه مخلاة فيها حجارة ، وفى يده بارية مقيرة (١) ، فجعل الخراسانى كلما رمى بسهم استتر منه الرجل ، فوقع فى باريته أو قريبا منه ، فيأخذه فيجعله فى موضع من باريته وهو يصيح : دانق أى ثمن النشابة دانق قد أحرزه ، ولم تزل تلك حال الخراسانى حتى أنفد سهامه ، ثم حمل

(١) البارية : حصير .

على الرجل ليضربه بسيفه ، فأخرج من مخلاته حجرا فجعله فى مقلاع ورماه فما أخطأ به عين الفارس ، ثم ثناه بآخر فكاد يصرعه عن فرسه لولا هروبه من وجهه .

وبذل طاهر ما بوسعه لانهاء الحرب ، فهدم الدور وحرقها ، ومنع الزاد عن المدينة ، وضيق عليها أشد الضيق ، وكانت له فى كل يوم معركة حامية مع إقوات الأمين . وقد صور لنا شعراء الشعب فى تلك الفترة — وخاصة عمرو بن عبد الملك الوراق — كل هذه الوقائع فى شعرهم بحيث يمكن أن تكون لوحات فنية معبرة عن يوميات الحرب منسوبة الى أماكنها أو الى أيامها : وقعة درب الحجارة ، وقعة الكناسة ، وقعة باب الشماسية ، وقعة يوم الأحد ، وقعة يوم الاثنين وهكذا .

وبعد أشهر طويلة من القتال العنيف الذى لا يعرف هوادة ولا رحمة ، وبعد أن تفرق عن الأمين معظم قواده وجنده ، حتى صاحب شرطته ، استقر رأيه على الفرار من المدينة ، من ناحية هرثمة بن أيمن القائد العربى ، وخاف أن يخرج من ناحية طاهر حتى لا يقع فى يده ، ولكن طاهرا كمن له حتى صار فى حراقته ، فرماها جنده بالسهام والحجارة ففرقت ، وسبح الأمين حتى وصل الى الشاطىء ، فتلقاه جند طاهر الذى لم يلبث أن أمر بقتله . وقد بعث طاهر برسالة مطولة الى المأمون شرح فيها كل الظروف المحيطة بانتهاء حرب بغداد والتى أدت الى قتل الأمين . وقد أبان فى هذه الرسالة بوضوح اختلاقه مع القائد العربى هرثمة ابن أيمن الذى كان من رأيه تخلية سبيل الأمين ، وهو يعلل تشدده فى رفض ذلك بأنه لا يريد أن يثير الأمين فتنة من جديد ، ثم يدعى طاهر أن مواليه هم الذين اقتلوا الأمين تقـــربا منهم الى المأمون (وتناولوه بأسيافهم منازعة فيه وتشاحنا عليه) ، ثم يعلل تمثيله به ووضعه رأسه على أحد أبواب بغداد بقوله (فلما أصبحت هاج الناس واختلفوا فى المخلوع فمصدق بقتله ومكذب ، وشاك وموقن ،

فرأيت أن أطرح عنهم الشبهة فى أمره ، فمضيت برأسه لينظروا اليه فيصبح بعينهم » .

فماذا كان موقف المأمون من مقتل أخيه ؟ يقول الطبرى ان الفضل بن سهل دخل عليه برأس محمد على ترس بيده ، فلما رآه المأمون سجد ، وسجوده — فى رأيى — كان تعبيرا عن شكره لله تعالى الذى آزره ونصره وهو المستضعف المظلوم المسلوب الحق . أما أنه لم يحزن على قتل أخيه بهذه الصورة البشعة فهذا ما ننفيه تماما . ولعل مما يصور ألمه قول الفضل بن سهل الذى نراه تعبيرا عما بنفس المأمون : ما فعل بنا طاهر ؟ سل علينا سيوف الناس وألسنتهم ، أمرنا أن يبعث به أسيرا فبعث به عقيرا » . وما أمر به الفضل انما كان من توجيه المأمون . ولهذا غضب المأمون على طاهر غضبة عنيفة ، وولى كل ما كان افتتحه من كور الجبال وفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن الحسن بن سهل أخا الفضل . ولم تصف له نفسه بعد ذلك قط ، بل يروى أنه أوعز الى غلام له بمرافقة طاهر فى ولايته لخراسان حتى اذا صادف غرة منه دس له السم . ونحن وان كنا نستبعد أن يفعل المأمون ذلك ، الا أننا نؤمن بكراهيته الشديدة له ازاء ما فعله بأخيه ، ولكن يد طاهر العظمى فى بناء دولة المأمون جعلته يتغاضى عن كرهه له فى الظاهر ، ويذكر ابن طيفور أن المأمون قال لطاهر : أول من يؤخذ بدمه يوم القيامة ثلاثة لست أنا ولا أنت رابعهم ولا خامسهم وهم : الفضل بن الربيع ، وبكر بن المعتمر ، والسندى بن شاهك ، هم والله ثأر أخى وعندهم دمه . ولكنه فى موطن آخر بكى حين دخل عليه طاهر ، فما عرف أحد سر بكائه ، وجهد طاهر أن يعرف السر ، فأغرى خادم المأمون بمال كثير حتى استطاع أن يعرف سر هذا البكاء اذ قال المأمون « انى ذكرت محمـــدا أخى وما ناله من الذلة فخنقتنى العبرة فاسترحت الى الافاضة ولن يفوت طاهرا منى ما يكره » . ويبدو أن طاهرا أحس كراهية المأمون له فدبر فى نفسه أمرا ، ذلك انه صعد المنبر يوم الجمعة فخطب فلما بلغ الى ذكر الخليفة امسك

عن الدعاء له . ولم تمض عليه هذه الليلة حتى كان قد مات ، ولهذا اتهم المأمون بتدبير موته — وهذا بعيد عندى — وان كان قد أظهر شماتته حين بلغه نعيه فقال ، لليدين وللفم ، الحمد لله الذى قدمه وأخرنا .

والواقع ان مقتل الأمين بيد طاهر ومواليه الأعاجم لا ينبغى ان ينظر اليه على أنه حادث فردى عابر ، بل هو جزء من قضية اساسية هى قضية الصراع بين العرب والأعاجم . فقد رأينا كيف أن إقائد الأمين كان يصيح فى جنوده ويقول لهم : « انهم لعجم وليسوا بأصحاب مطاولة ولا صبر » . فكأن الأمين كان يمثل جانب العرب فى حربه ضد أخيه الذى يمثل جانب العجم . والظروف التى وضع فيها الاثنان كانت تحتم أن يحدث هذا الصدام بين العرب والعجم على الرغم منهما . فالمأمون فى قلب بلاد العجم ، ووزراؤه ومستشاروه كلهم من العجم ، ولابد أن قواده وجنوده سوف يكونون منهم الا القليل ممن لزمه أو لجأ اليه مثل هرثمة ابن أيمن . ولكن اذا كان المأمون قد وجد فى هذا الموقف اضطرارا فان وزيره الفضل بن سهل قد استغل هذا الموقف استغلالا كاملا متعمدا لصالح العجم ضد المصالح العربية . وقد استطاع أن يسيطر على المأمون سيطرة كاملة حتى قيل أنه قد أنزله إقصرا حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده من الخاصة والعامة ، وأنه يبرم الأمور على هواه ويستبد بالرأى دونه .

وعلى الرغم من استقرار الخلافة للمأمون بعد مقتل أخيـــه وبقائه سيد الامبراطورية الأوحد كما يقول بروكلمن الا أنه ظل فى مكانه بمرو بتدبير الفضل بن سهل قرابة خمس سنوات ، وكان الفضل يرمى من وراء ذلك الى نقل مركز الخلافة الاسلامية من العراق الى خراسان ، واختيار مرو عاصمة للخلافة ، وبذلك يحس الأعاجم من الفرس بعودة دولتهم اليهم . وكان الفضل يصنع صنيع وزراء الفرس الأقدمين فقد هيأ كرسيا مجنحا كان يحمل فيه اذا دخل على المأمون ، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه ،

فيوضع الكرسى وينزل منه فيمشى ، ثم يحمل الكرسى حتى يوضع بين يدى المأمون ، فيسلم الفضـــل عليه ويعود فيجلس عــلى كرسيه . ويقول الجهشيارى « وانما ذهب ذو الرياستين فى ذلك مذهب الأكاسرة ، فان وزيرا من وزرائها كان يحمل فى مثل ذلك الكرسى ويقعد بين أيديها عليه » .

وكان من نتيجة بقاء المأمون بعيدا عن مركز الخلافة الأصلى فى بغداد أن كثر الطامعون فى الخلافة الخارجون عليها ، الكارهون لحكم الفضل بن سهل وجماعته من الفرس ، حتى انه أوعز الى المأمون بأن يعين أخاه الحسن بن سهل مكان طاهر بن الحسين ــ كما سبق أن أشرنا ــ ويبعد طاهرا فيوليه على الموصل والجزيرة والشام والمغرب ، ثم يندبه لقتال نصر بن شبث أول الخارجين على دولة المأمون ، وهو من بنى عقيل ، كان عربيا شريفا شهما ، رأى فى اقتل الأمين انتصارا للفرس على العرب فغضب لذلك ، وخاصة لما رآه من ميل المأمون للأعاجم ووقوعه فى أيديهم . ولما قوى أمره بانضمام كثير من العرب الناقمين اليه ، قال له بعض مستشاريه : لو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك ، فقال : من أى الناس ؟ فقالوا : نبايع لبعض آل على بن أبى طالب ، فقـــال : أبايع بعض أولاد السوداوات فيقول انه خلقنى ورزقنى ! ــ يشير الى المعتقدات الفارسية التى دخلت التشيع ــ قالوا : فنبايع لبعض بنى أمية ، قال : أولئك قوم قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل أبدا ، ولو سلم على رجل مدبر لأعدانى ادباره ، وانما هواى فى بنى العباس ، وانما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم . وهكذا كانت أولى الثورات ضد المأمون ثورة عربية ضد النفوذ الفارسى الذى يؤرث ناره الفضل بن سهل ...

وما لبث أن ثار على حكم المأمون المغلوب على أمره محمـــد ابن ابراهيم المعروف بابن طباطبا ، ثار بالكوفة يدعو الى الرضا من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنة . ويشير الطبرى الى سبب ثورته الحقيقى فيقول ان غلبة الفضل بن سهل على المأمون وتعيين

الحسن بن سهل واليا على العراق قد أثارت الفتن فى الأمصار . واستطاع ابن طباطبا أن يهزم الجيش الذى قاده الحسن بن سهل ، ولكنه ما لبث أن مات فجأة ، فانتهت ثورته بموته ، ولكن ما لبث أن أحياها أبو السرايا السرى بن منصور الشيبانى ، وهو من رجال هرثمة بن أيمن ، يقال انه مطله بأرزاقه فغضب أبو السرايا ومضى الى الكوفة فبايع ابن طباطبا وأخذ الكوفة واستوثق أهلها له بالطاعة ، فلما مات ابن طباطبا ، ظل أبو السرايا يقاتل جيوش المأمون التى يعدها الحسن بن سهل ، وينتصر عليها ، حتى أرسل له المأمون هرثمة بن أيمن فقضى عليه .

ولم يكد هرثمة يفرغ من قتال أبى السرايا حتى ندب لقتال محمد بن محمد العلوى الذى هجم على دور بنى العباس بالكوفة ودور مواليهم وأتباعهم ، فخربها وانتهبها ، واستطاع هرثمة أن يعيد السكينة والأمن الى المدينة المنكوبة . وما برح مكانه حتى أتته كتب المأمون بتوليته الشام أو الحجاز ، ولكنه كان يحس أن المأمون أسير الفضل بن سهل ، ليست له حرية التصرف فى شىء ، وأن الفضل يريد أن يصرف الخلافة الى الأعاجم ، فأبى أن يذهب الى ولايته قبل أن يلقى المأمون ليبصره بأسباب هذه الثورات المتلاحقة ضد حكمه منذ قتل الأمين ، ويطلب اليه الانتقال الى بغداد دار خلافة آبائه وملكهم ليتوسط سلطانه ويكبح الطامعين . وهنا يظهر الفضل بن سهل حقيقة نواياه ، فاستئثاره بالسلطة دون المأمون يجعله يبعد المزاحمين الأقوياء مثل طاهر بن الحسين أو هرثمة بن أيمن ، ولكن اذا فكر احدهم فى الاقتراب من المأمون لافساد تدبير الفضل — وخاصة من ناحية سيادة الأعاجم فى هذه الدولة دولة المأمون التى يضعها على عينه فالويل له .

لقد دخل هرثمة الى مرو كما أراد وخاف أن يحول الفضل بن سهل بينه وبين المأمون فدق الطبول عند دخوله المدينة ، وسرعان ما أوغر الفضل صدر المأمون عليه . لقد صوره فى صورة المارق الذى يعادى دولة المأمون ، وأفهم الخليفة أن ثورة ابى السرايا كانت من

تدبير هرثمة نفسه ، وأثبت له دليل عدائه بعدم استجابته لأمر الخليفة بالذهاب الى الشام أو الحجاز ، وأبان له ان سبب قدومه عليه رغبته فى الخلاف والتهديد بالثورة . فلما دخل هرثمة على المأمون واجهه صراحة بهذا الصراع الذى يدور ضد العرب بتدبير الفضل بن سهل ، وقال له : قدمت هذه المجوسى على أوليائك وأنصارك . وأشار الى الفضل قائلا : « الحمد لله الذى لم يمتنى حتى رأيت هذا المجوسى فى هذا المجلس على كرسى » . ولما كان صدر المأمون موغرا بكلام الفضل لم يسمح لهرثمة باطلاعه على حقائق الأمور ، وانما كان اللقاء بينهما عاصفا حارا ، واستشاط المأمون غضبا فأمر بهرثمة فوجىء على أنفه وديس بطنه وسحب من بين يديه ، ثم أمر بحبسه . وما لبث أن قتل فى سجنه ، لا ندرى هل كان ذلك باذن من المأمون أو الفضل ، وان كان الطبرى يقول ان الفضل دس اليه من قتله .

وهكذا دفع القائد العظيم هرثمة حياته ثمنا لدفاعه عن العروبة واخلاصه النصيحة للمأمون الذى زادت الثورات اشتعالا ضده ، فخرج ابراهيم بن موسى باليمن ، وكان يقال له الجزار لكثرة من قتل باليمن من الناس . ثم بايع الطالبيون محمد بن جعفر بالخلافة وكان شيخا زاهدا محببا ، فلما ارتكب جنوده المقابح والخطايا أعلن خلع نفسه والعودة للطاعة . وفى السنة ذاتها (سنة ٢٠٠ هـ) ثار بالبصرة زيد بن موسى المعروف بزيد النار لكثرة ما حرقه من دور العباسيين وأتباعهم فى البصرة . وبعد مقتل هرثمة ثار الجنود فى وجه الحسن بن سهل وطردوه من بغداد ، فلجأ الى المدائن ثم ارتد الى واسط بسبب ما هاج من الفتن ضده .

والحقيقة ان موقف المأمون من الصراع بين العرب والفرس لم يكن واضحا كل الوضوح فى هذه الفترة ، فعلى الرغم من غلبة الفضل بن سهل عليه الا أن بعض العرب الذين كانوا حوله ، كانت تتمثل فيهم العصبية العربية . ولم يملك أحدهم نفسه وهو يحيى بن عامر بن اسماعيل الذى أغلظ للمأمون لوقوعه تحت تأثير

الفرس فقال له : يا أمير الكافرين ! فأمر به المأمون فقتل بين يديه .

أما عبد الله بن مالك الخزاعي فكان عربيا له مكانته منذ أيام المهدى والرشيد ، وكان يمثل الحـــزب العربى فى بطانة المأمون بمرو ، فناصبه آل سهل العداء ، وأخذوا يكيدون له عند المأمون حتى أمر به فحمل على ظهر جمـــل وضربت استه كما يضرب الصبيان ! . ومن العجيب أن الفضل بن سهل الذى يدبر كل ذلك ويحرك المأمون لتنفيذ ما دبره ، يظهر نفسه أمام المأمون بمظهر الناصح المشفق عليه لكثرة ما يتعقب العرب بالقتل ، وذلك حين أراد أن يقتل نعيم بن حازم ، فيذكره الفضل بما كان منه قائلا : « يا أمير المؤمنين انك قتلت بالأمس هرثمة وقدره فى الناس قدره وأظهرت موته ، وقد تيقن الناس قتلك اياه ، وضربت عنق يحيى ابن عامر صبرا ، وأمرت بحمل عبد الله بن مالك وضربت استه كما يضرب الصبيان » ويبدو أن المأمون قد وقر فى نفسه ـــ بتأثير الأعاجم بطبيعة الحال ـــ أن العرب ليسوا أهل طاعة وولاء ، ويتضح هذا من حديث رواه الطبرى أن رجلا تعرض للمأمون بالشـــام فقال له : يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان ، فقال : أكثرت على يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل الا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهما شاريا ، اعزب فعل الله بك .

وتأكيدا لسيادة الفرس واستئثارهم بالسلطان ـــ والمأمون بينهم فى مرو ـــ استطاع الفضل بن سهل أن يميل قلب المأمون الى العلويين ، واستغل فيما يبدو ثوراتهم المتلاحقة ضد المأمون ســــلاحا للتأثير عليه ليقبلهم كأولياء فيكف أيديهم عن حربه . وتختلف الآراء بالنسبة لموقف المأمون من العلويين . فمن قائل انه

كان شديد الميل اليهم طبعا لا تكلفا ، ويدللون على ذلك بأنه كان يحرص على حضور جنائز رؤسائهم كيحيى بن الحسين بن زيد الذى صلى عليه بنفسه ، ورأى الناس عليه من الحزن والكآبة ما تعجبوا منه ، على حين أنه أرسل أخاه صالحا لينوب عنه فى جنازة أحد العباسيين الأقرباء ، وقد مات بعد يحيى بقليل ، فلما عزى صالح أم الفقيد وهى زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ابنة عم المنصور ـ وكانت لها عند العباسيين هيبة ومنزلة عظيمة . واعتذر عن تخلفه عن الصلاة عليه ، ظهر غضبها وقالت لحفيدها : تقدم فصل على أبيك ، وتمثلت بقول الشاعر :

سبكناه ونحسبه لجينا ،فأبدى الكير عن خبث الحديد !

ثم قالت لصالح : قل له يا ابن مراجل : أما لو كان يحيى ابن الحسين بن زيد لوضعت ذيلك على فيك وعدوت خلف جنازته !

وحين مات محمد بن جعفر ـ وكان قد أرسل الى خراسان بعد خروجه على المأمون ـ دخل المأمون بين عمودى السرير فحمله حتى وضعه فى لحده وقال : هذه رحم مجفوة منذ مائتى سنة ، وقضى دينه وكان عليه نحو ثلاثين ألف دينار .

ويرى بعض الباحثين أن المأمون كان يفضل على بن أبى طالب على غيره من الخلفاء الراشدين ويرى أنه كان أحق بالخلافة منهم ، ويرجعون هذا الاعتقاد الى تأثير البيئة التى تربى فيها المأمون فانه كان فى أول أمره فى حجر جعفر البرمكى ثم انتقل الى الفضل ابن سهل ، وكلاهما يضمر التشيع ، فاختمرت عنده هذه الفكرة على غير ما كان عليه آباؤه . ولهذا كان المأمون يعامل الطالبيين معاملة تناسب اعتقاده فى فضل أبيهم . وظل على عقيدته تلك الى آخر حياته بدليل ما جاء فى وصيته لأخيه المعتصم : « وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فأحسن صحبتهم ، وتجاوز عن مسيئهم ، وأقبل من محسنهم ، وصلاتهم فلا تغفلها

فى كل سنة عند محلها ، فان حقوقهم تجب من وجوه شتى » .

ويمكن أن نفسر فى ضوء هذا الاعتقاد ما قاله المأمون لزينب بنت سليمان بن على التى كان العباسيون يعظمونها — كما اشرنا من قبل — حين سألته عما دعاه الى نقل الخلافة من بيته الى بيت على ، قال : يا عمة انى رأيت عليا حين ولى الخلافة أحسن الى بنى العباس ، وما رأيت أحدا من أهل بيتى حين أفضى الأمر اليهم كافؤوه على فعله فى ولده ، فأحببت أن أكافئه على احسانه .

والمأمون حين قال ذلك وحين كتب وصيته كان بعيدا عن تأثير الفضل بن سهل بعد أن قضى نحبه منذ زمن طويل ، ولكن لا يخلو اعتقاده مع ذلك من تأثير قديم صحب نشأته .

وقد يرى بعض الباحثين أن المأمون لم يكن يعتقد ما يقوله حقا بدليل مناقشته لعلى بن موسى الرضا الذى اختاره لولاية عهده اذ قال له : بم تدعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة على من النبى صلى الله عليه وسلم وبقرابة فاطمة . فقال المأمون ، ان لم يكن ها هنا شىء الا القرابة ، ففى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بيته من هو أقرب اليه من على ، ومن هو فى القرابة مثله ، وان كان بقرابة فاطمة من رسول الله ، فان الحق بعد فاطمة للحسن والحسين ، وليس لعلى فى هذا الأمر حق وهما حيان ، واذا كان الأمر على ذلك فان عليا قد ابتزهما جميعا وهما حيان صحيحان واستولى على عــــلى ما لا يجب له . وما دام رأى المأمون كذلك فميله الى العلويين اذن كان مجرد مناورة سياسية بارعة منه ، فهو يريد أن يحمل العلويين على الظهور لأن القوم كادوا يعدونهم من غير الطينة البشرية ، فارتأى أنهم متى ظهروا من استتارهم للناس ، رأوهم مثل غيرهم ، وفيهم الفاجر والطاهر ، فتنتهى المطالبة أو تخف ، وتحقن الدماء .

وهذا الرأى الذى يبديه محمد كرد على منقول فى الحقيقة عن القفطى الذى يريد أن يثبت أن المأمون كان أعظم دهاء من الفضل ابن سهل ، فهو يقول ان المأمون قد رأى آل أمير المؤمنين على

ابن أبى طالب متخشين مختفين من خوف المنصور ومن جاء بعده من بنى العباس ، ورأى العوام قد خفيت عنهم أمورهم بالاختفاء ، فظنوا بهم ما يظنونه بالأنبياء : ويتنوهون فى حقهم بما يخرجهم عن الشريعة من التغالى فأراد معاقبة العامة على هذا الفعل ، ثم فكر أنه اذا فعل هذا بالعوام زادهم اغراء به ، فنظر فى هــذا الأمر نظرا دقيقا ، وقال لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم وظلم الظالم لسقطوا من أعينهم ولانقلب شكرهم لهم ذما ، ثم قال : اذا أمرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوءا ، واذن فالرأى أن نقدم أحدهم ويظهر لهم اماما ، فاذا رأوا هذا أنسوا وظهروا وأظهروا ما خفى بالاختفاء ، فاذا تحقق ذلك ازلت من أقمته ، ورددت الأمر الى حالته الأولى .

وقوى هذا الرأى عنده وكتم باطنه عن خواصه وأظهر للفضل ابن سهل أنه يريد أن يقيم اماما من آل أمير المؤمنين على ، واهتديا الى الرضا ، فأخذ الفضل فى تقرير ذلك وترتيبه وهو لا يعلم باطن الأمر ، وأخذ فى اختيار وقت لبيعة الرضا فاختار طالع السرطان وفيه المشترى . فأراد عبد الله بن سهل بن نوبخت المنجم أن يعلم نية المأمون فى هذه البيعة فأنفذ اليه رقعة قبل العقد مع ثقة من خدمه ، قال فيها : ان هذه البيعة فى الوقت الذى اختاره ذو الرياستين لا تتم بل تنقض لأسباب فلكية بينها ، فرد عليه المأمون : قد وقفت على ذلك أحسن الله جزاءك ، فاحذر كل الحذر أن تنبه ذا الرياستين على هــــذا ، فانه ان زال عن رأيه علمت أنك أنت المنبه له . فهم ذو الرياستين بذلك ، فما زال عبد الله ابن نوبخت يصوب رأيه الأول حتى مضى أمر البيعة وأعتقد ان هذه القصة موضوعة لتبرئة الفضل بن سهل من تهمة تحويل الخلافة الى العلويين ، ويبدو لى أن المأمون قد تأثر بتعاليم المعتزلة وهو ما يزال فى مروَ ، فكان رأيه فى الخلافة رأيهم أن تكون للأصلح لها فى المسلمين ، ولو كان من غير قريش ، ولهذا كان متحيرا فى اختيار ولى عهده . وقد كانت مسألة الامامة من أخص موضوعات

الخصومة بين العرب والفرس التى كانت نفس المأمون مسرحا لها . وقد جعلت الحيرة فى أمرها تجاذبه مجاذبة متصلة ذات اليمين وذات الشمال كما يقول الدكتور الحاجرى بحق . ولهذا نراه يدعو العلماء الى الكتابة فى أمر الامامة ، وأن تحمل كتبهم اليه فى مرو ، وكان الجاحظ أحد الذين استجابوا له وأرسلوا كتبهم اليه .

ومن الواضح أن المأمون قد اقتنع بعدم صلاحية أخيه القاسم الملقب بالمؤتمن للخلافة ، فأعلن خلعه منذ عام ١٩٨ هـ ، ولم يخالف بهذا الخلع عهد الرشيد اذ جاء فيه « فاذا أفضت الخلافة الى عبد الله بن أمير المؤمنين ، فالأمر اليه فى امضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صرف ذلك عنه الى من رأى من ولده واخوته ، وتقديم من أراد أن يقدم قبله ، يحكم فى ذلك بما أحب ورأى » . ويبدو أن الفضل بن سهل انتهز فرصة خلو ولاية العهد وحيرة المأمون فى اختيار الأصلح لها ، فزين له على بن موسى بن جعفر لفضله وورعه وعلمه فاختاره وليا للعهد عام ٢٠١ هـ وسماه الرضا من آل محمد ، وأمر جنده بطرح السواد ولبس ثياب الخضرة ، وكتب بذلك الى الآفاق طالبا أخذ البيعة له . وغضب أهل بغداد لذلك وقالوا : انما هذا دسيس من الفضل بن سهل واجتمع العباسيون فقر رأيهم على خلع المأمون ولكنهم اختلفوا على شخص الخليفة منهم ، فعرضوا الأمر على منصور بن المهدى فأبى وقال : أنا خليفة أمير المؤمنين حتى يقدم أو يولى من أحب ، فبايع أهل بغداد لابراهيم بن المهدى بالخلافة وسموه المبارك . وغلب ابراهيم مع أهل بغداد على أهل الكوفة والسواد كله ، وعسكر بالمدائن . وابراهيم هو عم المأمون ولكنه كان أسود اللون لأن أمه كانت جارية سوداء اسمها شكلة ، وكان مع سواده عظيم الجثة ، ولهذا يقال له التنين .

ولم يثر أهل بغداد فحسب على المأمون لصرفه الخلافة الى العلويين بتأثير الفرس ، بل نجد العرب فى خراسان يثورون ايضا ولا يتحرج نعيم بن حـــازم أن يقول للفضل بن سهل فى حضرة

المأمون : انك انما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس الى ولد علي ، ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسرويا ، ولولا أنك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة علي وولده وهي البياض الى الخضرة ، وهي لباس كسرى والمجوس . فكأن نعيم بن حازم يريد أن يقول أن الفضل بن سهل صرف الخلافة الى أولاد علي كمرحلة انتقالية تصير بعدها الى الفرس ، ودليله على ذلك اختيار اللون الأخضر وهو شعار الفرس بدلا من الأسود الذي يميز العباسيين ، والأبيض الذي يميز العلويين . وكان هذا هو فهم العرب الصحيح للموقف السياسي اذ ذاك ، ولهذا جهدوا الجهد كله في تبصير المأمون بالعاقبة .

ولعلنا نتساءل : كيف تم اختيار علي بن موسى من بين العلويين ؟ يقول صاحب « مقاتل الطالبيين » ان المأمون وجه الى جماعة من آل أبي طالب فحملوا اليه من المدينة وفيهم علي بن موسى الرضا ، فلما قدموا على المأمون أنزلهم دارا وأنزل علي بن موسى الرضا دارا ، ووجه الى الفضل بن سهل فأعلمه أنه يريد العقد له ، وأمره بالاجتماع مع أخيه الحسن بن سهل على ذلك . ففعل واجتمعا بحضرته ، فجعل الحسن يعظم ذلك عليه ويعرفه ما فيه اخراج الأمر من أهله عليه ، فقال له : اني عاهدت الله أن أخرجها الى أفضل آل أبي طالب ان ظفرت بالمخلوع ، وما أعلم أحدا أفضل من هذا الرجل . فاجتمعا معه على ما أراد فأرسلهما الى علي ابن موسى الرضا ، فعرضا ذلك عليه فأبى ، فتهدداه وتهدده المأمون حتى قبل ، وحين أجلسه للبيعة جعل ابنه العباس أول المبايعين .

وهذا النص يطلعنا على رغبة المأمون الحقيقية في اختيار ولي عهده من بين الطالبيين ، وأن فكره اتجه الى علي بن موسى الرضا بدليل انزاله في دار مستقلة . ويبدو أن عليا كان طيب السمعة حتى انه كان يكنى بأبي بكر في نزاهته وعدالته . أما معارضة الحسن ابن سهل فلعلها من تدبير أخيه الفضل ليبعدا عن نفسيهما تهمة التأثير على المأمون في ذلك الأمر الخطير . وربما كانت فكرة تعيين أحد العلويين فكرتهما حقا ، ولكن اختيار الشخص نفسه كان بتدبير

المأمون بدليل الكراهية المتبادلة بين على بن موسى الرضا من جانب ، والفضل وأخيه الحسن من الجانب الآخر . وبفعل هذه الكراهية استطاع ولى عهد المأمون أن يوغر صدره عليهما بتعداد مساوئهما ، كما نجح فى ازالة الغشاوة من على عينيه وتبصيره بالحقيقة التى يحاول الفضل اخفاءها عنه دائما . لقد كشف له عن الفتن التى تضطرب بها البلاد منذ خلوص الخلافة له ، وكيف أن أهل بيته والناس جميعا قد نقموا عليه أشياء حتى قالوا عنه أنه مسحور مجنون . ولما بلغ بهم الضيق كل مبلغ بايعوا لعمه ابراهيم بن المهدى بالخلافة . وبدأ المأمون كأنه يسمع ذلك لأول مرة ، فقد رد قائلا : انهم لم يبايعوا له بالخلافة ، وانما صيروه أميرا يقوم بأمرهم ! ووضح أن هذا ما اخبره به الفضل ليحجب عنه خطورة الموقف . ولم يجد على بن موسى بدا من اخبار المأمون بأن الفضل قد كذبه وغشه ، وأن الحرب دائرة بين ابراهيم والحسن بن سهل ، وان الناس تكره مكان الفضل وأخيه من المأمون . وكان على صريحا غاية الصراحة حين ذكر للمأمون أن الناس تكرهه أيضا وتكره ولايته للعهد .

واستطاع المأمون أن يستوثق من صحة هذه الأنباء الخطيرة بعد سؤال جماعة طلبوا الأمان من الفضل بن سهل أولا ، فأيدوا قول على بن موسى وزادوا عليه اخبار المأمون بحقيقة موقف هرثمة الذى جاء ينصحه فقتل ، وحقيقة موقف طاهر بن الحسين الذى اخلص له فأقصى الى الرقة .

وانقشعت سحابة الأكاذيب التى صنعها الفضل بن سهل ليحجب الحقائق عن المأمون بقصد ابعاده عن طوفان السياسة . لا لخوفه أن يغرق فيه ، ولكن لابقائه فى قاع الطوفان . عندئذ قرر المأمون أن يترك مرو ويهجر خراسان التى عاش فيها أشقى واحلى فترات حياته ، لينطلق الى بغداد يواجه عاصفة السياسة متحديا ، بدلا من اخفاء رأسه فى أكاذيب الفضل بن سهل التى يريد أن ينسج منها مجد الفرس لا مجد العرب .

ثانيًا : فى بغــداد

بدأ المأمون رحلته من مرو قاصدا بغداد فى أواخر عام ٢٠٢ هـ ، ولكنه لم يصل الى بغداد الا فى أوائل عام ٢٠٤ هـ ، فكأنه قضى ما يقرب من عامين فى الطريق من خراسان الى العراق ، وهذا أمر يدعو الى أشد الغرابة والتساؤل ، وكأنى بالمأمون كان يقدم رجلا ويؤخر أخرى وهو فى طريقه الى بغداد ، وكأنه كان يتوقع أمرا جللا ويتوجس من أعظم الأخطار .

والحقيقة ان المأمون رسم سياسة حكيمة للقضاء على الفتنة فى العراق بهذا التمهل الشديد فى رحلته اذ جعل أعداءه يتهاوون واحدا اثر الآخر كلما أحسوا باقترابه . ونرى المأمون فى الوقت ذاته ، يعيش فى المدن التى مر بها أياما وشهورا ليثبت حكمه ويقوى سلطانه ، وكأنى به يريد أن يقول للناس فى كل مكان : هأنذا ببنكم ، أتفقد بنفسى أحوالكم ، وقد أصبح الفضل بن سهل غير مستطيع التأثير على ، لأنى أقيم الآن شئون حكمى بنفسى .

وأهم المدن التى توقف المأمون عندها وطال مكثه فيها والتى تعتبر مراكز تحركاته منذ غادر مرو : سرخس ، طوس ، جرجان ، الرى ، النهروان . ولا نعرف بالضبط المدة التى قضاها فى كل مدينة ، ولكننا نعرف بعض هذه المدن من خلال أحاديث الطبرى ، فقد قضى فى سرخس مثلا ما يقرب من ستة أشهر .

وفى خلال هذه الرحلة الطويلة جرت أحداث خطيرة ، يعسر على الانسان أن يصدق أنها محض صدفة ، فما ان غادر المأمون مرو فى طريقه الى بغداد حتى كانت سرخس أولى المدن التى عرج عليها ليقيم فيها . وفى خلال اقامته بهذه المدينة تمت حادثة اغتيال مروعة

لوزيره ومستشاره الأول الفضل بن سهل (١) ، دخل عليه المتآمرون وهو فى الحمام فضربوه بالسيوف . واختلف المؤرخون حول شخصيات الذين اغتالوه ، فذكر الطبرى أنهم أربعة : غالب المسعودى الأسود ، وقسطنطين الرومى ، وفرج الديلمى ، وموفق الصقلبى ، بينما نجد اليعقوبى يذكر أن القتلة اثنان : غالب الرومى صاحب ركاب المأمون ، وسراج الخادم . واتفق المؤرخان أن الذى دس فى قتل الفضل ابن أخته على بن أبى سعيد (٢) ، أو هكذا اعترف القتلة أمام المأمون . ويبدو أن غالبا كان زعيم المؤامرة اذ يذكر اليعقوبى أن الفضل حاول رشوته بمائة ألف دينار ليهب له حياته ، فقال له غالب « ليس بأوان تملق ولا رشوة » . ومن العجيب أن بعض المصادر تذكر أن غالبا هذا هو خال المأمون وهذا أمر نستبعده ، ولابد أن يكون فى الكلمة تحريف ، فلعل الكاتب أراد أن يقول « خادم » المأمون . واختلف الباحثون حول دور المأمون فى هذه الجريمة الغامضة ، هل تمت بتدبيره خصوصا وأن القتلة من عبيده وخدمه ، ويد التدبير واضحة فى اختيارهم من أجناس مختلفة حتى لا يكون ثأر الفضل محصورا فى جنس بعينه . واذا كان المأمون قد بعث فى طلب القتلة بعد هروبهم وجعل جائزة كبيرة لمن يأتى بهم ، فقد يكون ذلك مجرد تمويه منه لاخفاء الحقيقة . بل لقد تردد فى كتابات بعض المؤرخين أن القتلة واجهوا المأمون بأنه هو الذى أمرهم بقتل الفضل فقالوا له : أنت أمرتنا بذلك ثم تقتلنا ، فقال لهم : أنا أقتلكم باقراركم ، وأما ما ادعيتموه على من أنى أمرتكم بذلك فدعوى ليس لها بينة . وقيل انهم اتهموا ابن أخت الفضل بذلك ، ولو صحت هذه الرواية فان قولهم كان لابعاد الشبهة عن المأمون ، اذ ليس مقتل الفضل من مصلحة ابن أخته

---

(١) يقول اليعقوبى ان اغتيال الفضل تم فى قومس ولم يذكر ذلك غيره (تاريخ اليعقوبى ٣ : ١٧٩)

(٢) يذكر اليعقوبى أنه ابن خالته (تاريخ اليعقوبى ٣ : ١٨٠)

على بن أبى سعيد الذى وجد كل معونة من الفضل وكان يعهد اليه بأعمال سياسية خطيرة .

واتماما لفصول الرواية أمر المأمون بقتل المتآمرين جميعا ومعهم من حامت حولهم الشكوك والشبهات وهم : عبد العزيز بن عمران الطائى ، وخلف بن عمر البصرى ، وموسى البصرى وعلى بن أبى سعيد (١) ولابد أن القتلة قد ذكروا هذه الأسماء أمام المأمون فأخذهم بالشبهة ليدرأ عن نفسه التهمة .

ويميل أكثر المؤرخين الى اثبات يد المأمون فى مقتل الفضل ، ويتابعهم فى ذلك بعض الباحثين المحدثين (٢) والحقيقة ان الملابسات كلها تدين المأمون ، فهو قد هجر مرو بعد ان احس اهتزاز عرشه وسطوة الفضل عليه ، ثم هو فى طريقه الى بغداد ضد ارادة الفضل وجماعته من الفرس ، وهو يعلم أن أهل العراق ناقمون عليه بسبب تأثير الفضل عليه ، فلماذا لا يكتسب محبة العراقيين بالتخلص من الفضل ، وهو بذلك يستطيع أن يحكم فى حرية ، ويثبت لمن حوله قدرته على الاضطلاع بمهام الدولة بنفسه دون استشارة أحد .

وأراد المأمون أن يستميل الحسن بن سهل والفرس جميعا الى جانبه ، فاسترضاه وبعث اليه برؤوس ضحايا المؤامرة ، وصيره فى مكان أخيه من الناحية الظاهرية ، بل أراد أن يوثق صلته بآل سهل الى أبعد مدى فتزوج بوران بنت الحسن بن سهل بعد شهور من مقتل الفضل ، ولم يكن من دافع وراء هذا الزواج غير السياسة ، اذ كانت بوران فى ذلك الوقت طفلة لم تتجاوز العام العاشر من عمرها ، ولهذا عقد المأمون عليها توكيدا للمعنى السياسى الذى قصده ، ولم يدخل بها الا بعد انقضاء ثمانية أعوام .

---

(١) ذكر الطبرى أسماءهم كما يلى : عبد العزيز بن عمران وموسى وخلف ، أما اليعقوبى فذكرهم بالصورة التى أثبتناها .

(٢) من المؤرخين الطبرى وابن الطقطقى وابن خلكان والمسعودى الذى انفرد برواية غريبة بعيدة عن الصحة وهى أن المأمون قتل الفضل لأنه ضايقه فى جارية اشتراها (مروج الذهب ٢ : ٣١٧) ومن الباحثين الشيخ الخضرى .

ويرى كاتب مادة المأمون فى دائرة المعارف الاسلامية أن العرب هم الذين قتلوا الفضل بن سهل باعتباره عدوا لهم ، والحقيقة ان مقتل الفضل لم يكن انتصارا للعرب بقدر ما هو ايقاف لتيار المد الفارسى الذى كان الفضل يعده ليجرف أمامه الخلافة العربية . وقد رثى شعراء الفرس الفضل بن سهل أمر رثاء ، واتجهت آمالهم بعده الى أخيه الحسن .

واذا كان الحسن بن سهل قد اخذ مكان أخيه الا أنه لم تكن له خطورة تذكر ، وكان فيما يبدو ضعيف الشخصية سهل القياد .

وترك المأمون سرخس بعد انقضاء شهرين على مقتل الفضل ، ورحل الى طوس فمكث فيها عدة أشهر . وفى طوس حدثت مفاجأة جديدة اذ مات ولى عهد المأمون على بن موسى الرضا بصـــــورة فجائية ، جعلت أصابع الاتهام تشير الى المأمون مرة أخرى فى خلال ستة أشهر فحسب . فذكروا انه قدم لولى عهده عنبا مسموما أو رمانا فى بعض الروايات . ويقول ابن طباطبا فى ذلك : « ثم دس (المأمون) الى على بن موسى الرضا سما فى عنب ــ وكان يحب العنب ــ فأكل منه واستكثر فمات من ساعته ، ثم كتب الى بنى العباس ببغداد يقول لهم : ان الذى أنكرتموه من أمر على ابن موسى قد زال ، وان الرجل قد مات » .

والربط بين موت على بن موسى وبين رســـــالة المأمون الى العباسيين بهذه الصورة توحى حقا بأن المأمون قد دبر مقتل على . أما اليعقوبى فهو مؤمن أيضا بأن وفاة على بن موسى لم تكن طبيعية ، ولكنه لم ينسب ذلك الى المأمون صراحة ، فهو يقول : « يقال ان على بن هشام أطعمه رمانا فيه سم » ولكنه لم يذكر لنا من هو على بن هشام ، وأغلب الظن انه واحد من حاشية المأمون ، بل هو كذلك بالفعل ، فهل دبرت الحاشية هذه الجريمة دون علم المأمون ؟ ان اليعقوبى يثبت حزن المأمون الشديد على وفاة على الرضا ، فهو ينقل عن شاهد عيان أن المأمون سار فى جنازة الرضا حاسرا فى مبطنة بيضاء ، وهو بين قائمتى النعش يقول : الى من أروح

بعدك يا أبا الحسن ؟ وأقام عند قبره ثلاثة أيام ، يؤتى فى كل يوم برغيف وملح فيأكله ، ثم انصرف فى اليوم الرابع .

ثم لا ننسى أن المأمون قد وثق صلته بولى عهده قبل مقتله بشهور ، اذ زوجه ابنته أم حبيب ، كما زوج محمد بن على ابن موسى ابنته الأخرى أم الفضل على حلكة لونه وسواده ، ومع ذلك يتهمه أكثر من مرجع بتدبيره موت ولى عهده امام الشيعة الثامن . و قد اكد هذا أبو الفرج الأصفهانى وأبدى اقتناعه التام بموت على ابن موسى بالسم ، ولكن التردد فى كيفية السم الذى سقيه . وبرغم اقتناع أبى الفرج الأصفهانى أقر بأن المأمون لم يظهر موت على ابن موسى فى وقته ، وتركه يوما وليلة ثم وجه الى محمد بن جعفر ابن محمد وجماعة من آل أبى طالب ، فلما أحضرهم وأراهم اياه صحيح الجسد لا أثر له ، بكى وقال : عز على يا أخى أن أراك فى هذه الحالة ، وقد كنت أؤمل أن أقدم قبلك ، فأبى الله الا ما أراد . وأظهر جزعا شديدا وحزنا كثيرا . وخرج مع جنازته يحملها فدفنه الى جانب هارون الرشيد . ومن العجيب أن أبا الفرج هو المصدر الوحيد الذى أثبت أن المأمون دخل الى على بن موسى فى علته يعوده ، فوجده يجود بنفسه ، فبكى وقال : اعز على يا اخى بأن أعيش ليومك ، وقد كان فى بقائك أمل ، وأغلظ على من ذلك وأشد أن الناس يقولون انى سقيتك سما ، وأنا الى الله من ذلك برىء ، فقال له الرضا : صدقت يا أمير المؤمنين ، أنت والله برىء .

والمتمعن فى هذه الروايات جميعا يخرج بعدة حقائق فى هذه القضية ، منها أن اشاعة دس السم قد انتشرت بمجرد مرض على ابن موسى وقد تبرأ منها المأمون ووافقه على ذلك على بن موسى نفسه برواية أبى الفرج الأصفهانى وميوله الشيعية غير منكورة . ومنها أيضا أن المأمون حرص على اطلاع العلويين على جسد على ابن موسى بعد وفاته ليعاينوا بأنفسهم كذب اشاعة التسمم وهو يترك آثارا ظاهرة . ويضاف الى ذلك جزع المأمون الشديد على ولى عهده ، وهو فى الوقت ذاته زوج ابنته ، كما ثبت من الروايات

جميعا اعجاب المأمون بشخصه لحكمته وصدقه ، ولا ننسى أن على ابن موسى هو الذى كشف للمأمون حقيقة الدور الخطير الذى يقوم به الفضل بن سهل ، فكان السبب المباشر فى اتجاه المأمون الى العراق . فالأقرب الى التصور اذن ـ ان كان موت الفضل قد تم بالسم حقا وليس موتا طبيعيا ـ أن يكون ذلك بتدبير آل سهل انتقاما لمقتل الفضل ، وردا على افساده تدبير الفرس بالاستقرار فى مرو . ولعل السم المستخدم فى هذه الحالة لا تكون له آثار ظاهرة . ومن المؤرخين الذين استبعدوا قتل المأمون لعلى بن موسى ابن الأثير واقتنع بذلك بعض الباحثين المحدثين مثل الخضرى الذى نسب القتل الى بطانة المأمون لرغبتهم فى اجتذاب ولاء العباسيين له . ومثل أحمد فريد رفاعى الذى استند الى ان شخصية المأمون وخلقه يجعلان فرض اقتله لولى عهده فرضا واهنا ضعيفا . ولكن الباحثين من الشيعة يؤمنون بصحة هذا الافتراض كل الايمان .

واذا كنا قد ملنا الى تأييد فكرة تدبير المأمون مقتل الفضل ابن سهل ، الا اننا نؤمن بعدم اشتراكه فى تدبير هذا الموت الفجائى لعلى الرضا ، ولو أن فائدة المأمون محققة بموت الشخصين .

أما رسالة المأمون الى بنى العباس يدعوهم فيها الى طاعته بعد وفاة على الرضا فلا تعدو أن تكون اقرارا للواقع واستفادة به : وليس معناها أن المأمون يقول للعباسيين : لقد قتلت لكم الشخص الذى تكرهونه وتنقمون على خلافتى بسبب ولايته لعهدى ، ويحجب عنى ولاءكم .

وكان على المأمون أن يحارب فى جبهات متعددة بقصد استقرار الحكم له فى الداخل ، وحماية الدولة من أعدائها فى الخارج أيضا . ففى الشرق كانت العقائد التى بشر بها أبو مسلم الخراسانى وتلميذه المقنع ، وهى القائلة بتناسخ الأرواح وتجسد الذات الالهية ، قد بعثت فى اذربيجان على يد بابك الخرمى الذى اجتمع حوله خلق كثيرون ، واتسع سلطانه حتى لقد أوشك أن يعـــزل المقاطعات الفارسية عن العرب . وقد بدأت ثورة بابك هذه عام ٢٠١ هـ وظلت

قوية طوال عهد المأمون بحيث لم يستطع القضاء عليها قط ، والذى أخمدها هو أخوه المعتصم عام ٢٢١ هـ ، أى انها استمرت عشرين عاما بلا انقطاع ، بدأت والمأمون فى مرو واستمرت طوال اقامته فى بغداد .

وقد ظهر بابك فى كورة من شمال بلاد فارس تسمى البذ ، ويقول السمعانى فى كتابه الانساب أن الخرمى نسبة الى طائفة من الباطنية يقال لهم الخرمدينية ، وهم قوم يدينون بما يريدون ويشتهون ، وانما لقبوا بذلك لاباحتهم المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم وفعل ما يتلذذون به . ويقول ابن النديم فى الفهرست أن الخرمية صنفان : الخرمية الأولون ويسمون المحمرة ، وهم منتشرون بنواحى الجبال فيما بين أذربيجان وأرمينية وبلاد الديلم وهمذان ودينور ، وفيما بين أصفهان وبلاد الأهواز ، وهؤلاء أهل مجوس فى الأصل . ويقصد ابن النديم بهؤلاء أصحاب مزدك الذى أمرهم باقتراف اللذات والعكوف على الشهوات والأكل والشرب ، ولهم مشاركة فى الحرم ، ومع هذا يرون أفعال الخير وترك القتل . أما الخرمية البابكية فان صاحبهم بابك الخرمى كان يقول لمن استغواه : انه اله ، وأحدث فى مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب ، فكأن ثورته ضد الخلافة العباسية كانت ثورة عقائدية تريد أن تطيح بالاسلام وتقوض أركان المجتمع بما تحدث فيه من آراء هدامة . ولهذا لم يتوان المأمون عن قتال الخرمية ، ولكن جميع قواده الذين أرسلهم لقتال بابك قتلوا أو وقعوا فى الأسر ، ولهذا أوصى أخاه المعتصم باستئصال الخرمية غضبا للدين وحماية له ، يقول فى وصيته : « والخرمية فاغزهم ذا خرامة وصرامة وجلد ، وأكنفه بالأموال والسلاح والجنود ، من الفرسان والرجالة فان طالت مدتهم ، فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعمل فى ذلك مقدم النية فيه ، راجيا ثواب الله عليه » .

وقد حاول بندلى جوزى أن يصور الحركة البابكية بأنها حركة

اشتراكية شيوعية ، وخاصة أنها كانت بالمصادفة تتخذ ألوية حمراء ، ويقول انها انتشرت انتشارا هائلا حتى ان عدد الذين انضموا الى جيش بابك فى أذربيجان والديلم فقط بلغ ثلاثمائة الف نفس . ويقول أيضا ان الحركة البابكية لم تكن لمقاومة الاسلام والمسلمين ، ولا مقاومة العرب كأمة مغتصبة فاتحة ، بل محاربة النظام الاجتماعى الذى كانت تئن تحته الطبقات السفلى ، وابداله بنظام جديد ليس فيه طبقات ولا نزاع مستمر بينها ، ولا ظالم ولا مظلوم ، ولا غنى ولا فقير ، ولا سيد ولا عبد ، نظام مبنى على العدل والاخاء والمساواة ، ثم يحاول الباحث بعد ذلك ان يدحض كل الاتهامات التى توجه الى الحركة البابكية ، والتى تصور شذوذها الاجتماعى واستباحتها للمحرمات .

وبندلى جوزى فى دفاعه عن الحركة البابكية انما يدافع عن حركة شيوعية ملحدة ، لا يهمه منها غير هذا الجانب ، اما مخالفتها للدين وتصادمها مع القيم الروحية والخلقية فلم يكن يعنيه فى شيء . وقد كان المأمون مدركا كل الادراك خطورة هذه الحركة على الدين وعلى الدولة معا ، وكان يعلم جيدا الصلة بين الحركة البابكية وبين أعدائه من الروم ، ولهذا اهتم بقتال بابك وارسل عدة جيوش لقتاله ، ولكن فشل كل قواده فى انزال الهزيمة به لوعورة هذه المناطق الجبلية التى كان بابك يتحصن بها ، وللمساعدات القيمة التى كان الروم يمنحونها لبابك نكاية فى الدولة الاسلامية .

والى جانب ثورة بابك ، كان على المأمون أن يخمد ثورة اخرى فى المشرق أيضا ، قام بها حاتم بن هرثمة انتقاما لمقتل أبيه هرثمة ابن أيمن . وقد استفاد بابك من هذه الثورة العربية اذ أصبحت منطقة أذربيجان تغلى بالثورات ضد الخليفة ، وتحاول اقتطاع هذه الولايات من جسم الدولة .

وفى منطقة سجستان ومكران كان الحمزية ــ وهم فرقة من الخوارج تتبع حمزة بن اكرك وتقول بتكفير من لا يوافقه على قتال مخالفيه ــ تعيث فسادا فى المنطقة منذ خرجوا فى عهد الرشيد سنة

تسع وسبعين ومائة . فلما استقر المأمون فى بغداد كتب الى حمزة كتابا استدعاه فيه الى طاعته فأبى ، فبعث المأمون بطاهر بن الحسين فقتل الكثير من الحمزية ، ثم استدعاه المأمون ، فطمع حمزة فى خراسان فتصدى له عبد الرحمن النيسابورى أحد قواد المأمون وقضى عليه .

ويقول البغدادى ان دعوة الباطنية ظهرت أيضا فى أيام المأمون ، من حمدان قرمط ومن عبد الله بن ميمون القداح ، وهى ترجع الى أصل مجوسى . وما أصدق هذا الباحث اذ يقول : « ما ظهرت البدع والضلالات فى الأديان الا من أبناء السبايا ! » وكان من حظ المأمون أن ظهر منها فى عهده عدد ليس باليسير ، كان عليه ان يقاومها جميعا .

وفى بغداد كانت ثورة العباسيين ضد المأمون قد أتت بابراهيم ابن المهدى خليفة ــ كما سبق أن ذكرنا ــ وطرد الحسن بن سهل نائب المأمون على العراق ، فانتقل الى المدائن ، واستطاع ابراهيم ابن المهدى أن يغلب على الكوفة والسواد كله ، ولكن لم يستقر له الأمر تماما فخاض حروبا ضد أعدائه ، وكانت بينه وبين الحسن ابن سهل وقائع كثيرة ، لم يحرز أحدهما فيها انتصارا حاسما ، ولكن ابراهيم انتصر على مهدى بن علوان الحرورى ، وعلى أخى
ابن سهل وقائع كثيرة ، لم يحرز أحدهما فيها انتصارا حاسما ،
الذى كان يدعو الى العمل بكتاب الله وسنة نبيه ، وأن لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وقد انتشرت دعوته انتشارا عظيما ، وعمل كل مؤمن بها برجا على باب داره نصب عليه السلاح والمصاحف ، ويبدو أن ابراهيم بن المهدى تخوف من هذه الدعوة فقاتل أصحابها وسجن زعيمها ، ولكن حينما دخل المأمون بغداد أطلق سهلا من سجنه وأجازه ووصله وأمره أن يجلس فى منزله ليواصل دعوته ، اذ لم يجد فيها أى تعارض مع حكمه أو سلطانه ، بل وجدها ــ على العكس من ذلك ــ امتدادا لحركة المطوعة الذين كانوا نكيرا على الفساق فى بغداد .

وبعد رحيل المأمون عن طوس وافته الكتب بأن نائبه ووزيره الحسن بن سهل قد أصابته لوثة ، بسبب حزنه على مقتل أخيه الفضل فيما يبدو — حتى شد فى الحديد وحبس فى بيته ليتداوى . وأظهر الناس شماتتهم فيه بسبب كراهيتهم لشخصه .

ويقول أحد الباحثين ان حكم الحسن بن سهل نيابة عن المأمون دام ست سنوات ، كانت كلها طغيانا وارتباكا صائرا بالتدريج الى فوضى .

وبعد موت على بن موسى الرضا لم يجد العباسيون فى بغداد عذرا لقبول خلافة « التنين الأسود » أو « ابن شكلة » أى ابراهيم ابن المهدى فخلعوه بعد أن استمر فى الخلافة سنة وبضعة أشهر ، ودعوا للمأمون بالخلافة من جديد ، فلم يجد ابراهيم بدا من الاختفاء حتى لا يتعرض لنقمة المأمون عليه ، وأخذ يعتب على العباسيين تفريطهم فيه : بعد أن نقل المأمون الخلافة الى العلويين .

ولما صار المأمون الى النهروان خرج اليه أهل بيته والقواد ووجوه الناس بعد ان دانوا بطاعته ، وأراد أن يشفى الجراح التى أحدثها الفضل بن سهل فى نفس قائده طاهر بن الحسين فبعث اليه ليوافيه بالنهروان وصحبه فى دخوله الى بغداد ، وكان ما يزال هو وأصحابه يلبسون الثياب الخضر لاعلان ميلهم الى العلويين ، وكان دخول المأمون الى بغداد شجاعة خارقة منه بعد ان مزقتها الفتن والثورات ، ولم يكن مع المأمون مال يستطيع أن يسترضى به الخارجين عليه كما نفهم من حديث جرى بينه وبين واحد من صحابته فقد روى أحمد بن أبى خالد — الذى صار وزيرا للمأمون بعد مرض الحسن بن سهل — قال : لما قدمنا من خراسان مع المأمون فصرنا فى عقبة حلوان ، وكنت زميله ، قال لى المأمون : يا أحمد انى أجد رائحة العراق ، قال : فأجبته بغير جوابه ، وقلت له : ما أخلقه ! فقال : ليس هذا جوابى ، ولكنى أحسبك سهوت أو كنت مفكرا ، قال : قلت نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فيم فكرت ؟

قال : قلت فكرت في هجومنا على بغداد وليس معنا الا خمسون ألف درهم مع فتنة غلبت على قلوب الناس واستعذبوها ، فكيف يكون حالنا ان هاج هائم أو تحرك متحرك ؟ قال : فأطرق مليا ثم قال : صدقت يا أحمد ما أحسن ما فكرت ولكنى أخبرك : الناس على طبقات ثلاث فى هذه المدينة ــ يعنى بغداد ــ : ظالم : ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ، فأما الظالم فليس يتوقع الا عفونا وامساكنا ، وأما المظلوم فليس يتوقع أن ينصف الا بنا ، ومن كان لا ظالما ولا مظلوما فبيته يسعه . فوالله ما كان الا كما قال .

وبعد أيام من دخول المأمون الى بغداد لم يجد حرجا فى العدول عن الثياب الخضر شعار العلويين ، واتخاذ اللون الأسود شعار العباسيين ، وذلك حتى يزيل ما علق بنفوس أهله من ميله السابق الى العلويين . ومع تمزق الثياب الخضر تمزقت العلاقة بين المأمون والعلويين التى ظلت فى شبه هدنة بضع سنوات ، ولكنه مع ذلك ظل يضعهم فى جانب من قلبه يحرص عليهم ويجاملهم . وفى عام ٢٠٧ هـ ثار أحد الطالبيين على خلافة المأمون ــ وهو عبد الرحمن ابن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب ــ وكان يدعو فى أرض اليمن الى الرضا من آل محمد . فأرسل اليه المأمون جيشا كثيفا قضى على ثورته ، وغضب المأمون بعدها على الطالبيين فمنعهم من الدخول عليه وأمرهم بلبس السواد .

بل نراه يهتم باشاعة وصلته ــ بعد ذلك بسنوات ــ عن علاقة عبد الله بن طاهر بالعلويين ، فيبعث اليه جاسوسا يستجلى حقيقة الأمر ، فلما استوثق من براءة ابن طاهر ــ وكأن الصلة بالعلويين أصبحت فى نظر المأمون تهمة خطيرة ــ استبشر وقال عنه : ذلك غرس يدى والف أدبى وترب تلقيحى .

وعلى الرغم من انشغال المأمون بحرب بابك الا أنه اضطر لقتال جماعة أخرى من الخارجين على دولته يطلقون عليهم اسم الزط ، قال عنهم ابن خلدون « وهم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا وأفسدوا البلاد » . والزط هم النور ،

أصلهم من آسيا ، كانوا يسكنون شواطىء الخليج الفارسى ، وقد تجمعوا واستولوا على طريق البصرة فى أيام الفتنة بين الأمين والمأمون ، وظلوا يشغبون على الدولة فترة طويلة دون أن تستطيع القضاء عليهم . وكما ظل بابك شوكة فى جسم الدولة طوال حياة المأمون كذلك كان الزط ، فلم يقض عليهم الا المعتصم ، والسبب فى ذلك كما يقول الخضرى أنهم كانوا اذا أحرجهم الجند تفرقوا فى الفياف فيصعب اصطيادهم . ولكن استياء المأمون من فشل قواده فى حرب بابك والزط قابله استبشاره بالقضاء على ثورة نصر ابن شبث بعد أن تجبر نصر ورفض الطاعة للمأمون الا على شروط قاسية ، أولها ألا يطأ له بساطا ، فكان رد المأمون على ذلك قوله : لا أجيبه والله الى هذا أبدا ولو أفضيت الى بيع قميصى حتى يطأ بساطى . واجاب نصر على تحدى المأمون بصيحة الحرب قائلا : ويلى عليه ، هو لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه ــ يعنى الزط ــ يقوى على حلبة العرب (١) . وتولى قيادة جيش المأمون عبد الله بن طاهر فكان له الظفر على نصر ، وأتى به الى المأمون فى بغداد . ولم يلبث أن سقط فى يد المأمون ابراهيم بن محمد ابن عبد الوهاب المعروف بابن عائشة ، ومحمد بن ابراهيم الافريقى ، ومالك بن شاهى ، وفرج البغدادى ، وهم رؤوس الفتنة التى ثارت ضد المأمون وانتهت بخلعه وتعيين عمه ابراهيم بن المهدى خليفة فى بغداد ، ثم وقع ابراهيم بن المهدى نفسه أسيرا ، أخذ وهو متنقب فى زى امرأة ، وبذلك تمت للمأمون الغلبة على الذين كانوا ينازعونه الحكم . ولم يعد أمامه خصم قوى يجاذبه الخلافة ، حتى بين قواده الأقوياء بعد أن مات طاهر بن الحسين فى ظروف غامضة عقب غضب المأمون عليه واقصائه الى خراسان . ويبدو أن

(١) لم يكن الزط أربعمائة ولكن نصرا يقلل من شأنهم . وقد بلغ تعداد الزط حين اضطروا للتسليم أيام المعتصم سبعة وعشرين ألفا بين رجل وامرأة وصبى وكان عدد المقاتلين فيهم اثنى عشر ألف مقاتل .

طاهرا كان يزمع الثورة على المأمون ، وكان أحمد بن أبى خالد وزير المأمون قد تكفل بمراقبته فدس اليه من قضى على حياته فى ليل اليوم نفسه الذى قطع فيه اسم المأمون من خطبة الجمعة . ولم يلبث أن توفى فى سنة ثمان ومائتين الفضل بن الربيع وزير الأمين الذى كان يناصب المأمون العداء ، ومع ذلك فقد عفا عنه بعد قدومه الى بغداد . كما توفى فى السنة ذاتها موسى بن محمد الأمين الذى خاض أبوه الحرب ضد أخيه المأمون من أجل توليته الخلافة من بعده ، ولو اطلع على الغيب وأدرك قصر عمر ابنه ما سل سيفا ، ولا انتهى الى المصير المحزن الذى آل اليه .

ومن أخطر الثورات التى نشبت فى عصر المأمون ثورة عبيد الله ابن السرى بن الحكم فى مصر ، وقد انتدب لها المأمون عبد الله ابن طاهر فحاصر السرى ، فأراد صرفه عن حصاره ، فبعث اليه ليلا بألف وصيف ووصيفة ، مع كل منهم ألف دينار فى كيس حرير ، فرد ذلك عبد الله بن طاهر وكتب اليه : لو قبلت هديتك نهارا لقبلتها ليلا ، بل أنتم بهديتكم تفرحون . وعندئذ لم يجد ابن السرى بدا من طلب الأمان . وكان جماعة من أهل الأندلس انتهزوا فرصة ثورة ابن السرى فنزلوا الاسكندرية وتغلبوا عليها ، فأنذرهم عبد الله بن طاهر بالحرب وأجلاهم عن المدينة .

ونشبت فتن أخرى فى خلال العهد البغدادى من حياة المأمون استطاع القضاء عليها جميعا كفتنة بلال الضبابى وهو من الخوارج ، وفتنة أهل قم بسبب تظلمهم من الخراج ، وفتنة عبد السلام وابن جليس فى مصر .

وظلت مصر مركزا للثورات فى الحقبة الأخيرة من عهد المأمون اذ لم يلبث أن ثار أهل الوجه البحرى ومعهم الأقباط على عيسى ابن منصور عامل المأمون لسوء سيرته فيهم وضعف سياسته وتدبيره . وقد حاول عيسى اخماد الفتنة بكل ما لديه من وسائل ، ولكنه فشل ، فأرسل المأمون القائد التركى المعروف بالأفشين فقاتل الأهالى وأصاب منهم عددا كبيرا ، فخمدت الفتنة ولكن الى

حين . ولم يجد المأمون بدا من القدوم الى مصر عام ٢١٧ هـ ليتعرف بنفسه على أسباب الثورة ، ومكث فيها نحو أربعين يوما لمقاتلة الثوار وازالة أسباب الشكوى التى قامت على أساسها الثورة ، واستطاع أن يظفر بعبدوس الفهرى قائد الثورة فقتله .

ولم يشغل المأمون نفسه بأمور السياسة الداخلية فحسب – وما أكثر تقلباتها وفتنها ومذاهبها – بل شغل أيضا بالسياسة الخارجية ، وان كان اهتمامه بها كان أقل بكثير من اهتمام ابيه الرشيد . ولعل السبب فى ذلك يرجع الى طغيان السياسة الداخلية التى لم تجعل للمأمون فرصة للاهتمام بعلاقاته مع الأمم الأجنبية المجاورة وخاصة الروم أعداء العرب التقليديين . أما علاقة المأمون بأهل الشرق الذين لم يخضعوا لسلطان الدولة العباسية كالترك والديلم فكانت قائمة على محاولة التوسع فى غزو هذه المناطق ، وقد استطاع عبد الله بن حرداذبة والى طبرستان من قبل المأمون أن يفتتح اللارز والشيرز من بلاد الديلم ، وافتتح جبال طبرستان ، وأسقط حكم شهريار بن شروين عنها .

وأما علاقة المأمون بالروم فقد ظلت هادئة أكثر من عشر سنوات ، والسبب فى ذلك كما يقول ميور يرجع الى أن بطريق انطاكية ببلاد سورية كان قد توج توماس امبراطورا ، ولو نجح فى تأميره وسلطانه كفى العرب مؤونة القتال ، ولكان توماس هذا تابعا للخليفة المأمون . ولكن الخلاف الذى نشب بين توماس وميخائيل انتهى لمصلحة ميخائيل . ولولا انتظار العرب لنتيجة هذا الصراع لكان فى امكانهم غزو الروم واستباحتهم فى غمرة الخلاف على عرش القسطنطينية . وقد بدأ المأمون حربه ضد الروم عام ٢١٥ هـ ففتح كثيرا من الحصون القريبة من حدود دولته كحصن قرة وماجدة وسندس وسنان ، ثم عاد الى الشام . وما لبث أن جاءته الأنباء بقتل ملك الروم قوما من أهل طرسوس والمصيصة يبلغ تعدادهم ألفا وستمائة ، فعاد مرة أخرى الى غزو الروم بعد شهور من غزوته الأولى ، ومكث فى تلك الغزوة نحو أربعة أشهر

أغار فيها على أذنه وانطيفوا وهرقلة ووجه أخاه المعتصم ففتح ثلاثين حصنا .

وفى السنة التالية دخل المأمون أرض الروم للمرة الثالثة ، وهناك طلب اليه تيوفيل ملك الروم الصلح وعرض الفدية . ولم يعد المأمون من غزوته تلك الى الشام أو الى مصر أو الى عاصمة ملكه بغداد ، بل قضى نحبه فى البدندون القريبة من طرسوس .

ومما يتصل بالمسائل السياسية فى الفترة البغدادية من حياة المأمون اتصالا وثيقا المناقشات التى كانت تدور حول الامامة ، وهى فى الحقيقة من أقدم المسائل السياسية التى اشتجرت حولها الأهواء والعقول فى البيئات الاسلامية المختلفة . وقد أشرنا من قبل الى الجو السياسى فى مرو الذى يصطرع بالخصومة بين الفرس والعرب ، وعلاقة ذلك بمسائل الامامة . وكان من نتيجة ذلك الصراع تعيين على بن موسى الرضا وليا لعهد الخلافة العباسية . وبعد أن انتقل المأمون الى بغداد ظل مهتما بمسائل الامامة اهتماما كبيرا يتبدى لنا فيما ذكره الطبرى من نقاش حاد فى مجلس المأمون بين بشر بن غياث المريسى ، وثمامة ، ومحمد بن أبى العباس ، وعلى ابن الهيثم . وكانوا يتناظرون فى التشيع ، فنصر محمد بن أبى العباس الامامية ، ونصر على بن الهيثم الزيدية .

ويربط الدكتور طه الحاجرى بين كتاب امامة معاوية الذى ألفه الجاحظ ــ وأشار فيه الى تيارين متضادين يذهب أحدهما الى لعن معاوية ويذهب الآخر الى تهجين هذا الرأى ــ وبين ما ذكره الطبرى فى حوادث سنة ٢١١ هـ اذ يقول « وفيها أمر المأمون مناديا فنادى برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير أو فضله على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ويرى الباحث أن هذه الكلمة المقتضبة تحمل فى أطوائها تاريخا طويلا من النزاع بين منزعين : منزع المعتزلة ومنزع أهل الحديث ، وكانا يتمثلان معا فى دار الخلافة ، ويتنازعان توجيه سياسة الدولة الدينية . وكان

يمثل المنزع الأول ثمامة بن اشرس ، ويمثل المنزع الأخير يحيى ابن أكثم . وقد كان الحكم على معاوية من مسائل الخلاف بين المعتزلة واهل الحديث (١) .

واذا تركنا ما يمس الحياة السياسية من مسائل الامامة فلابد أن نقف قليلا عند الوزراء الذين عملوا مع المأمون واشتركوا معه فى توجيه سياسة الدولة خلال فترة حكمه فى بغداد التى استمرت نحو أربعة عشر عاماً .

يقول المسعودى انه بعد أن أظهر الحسن بن سهل العجز عن الخدمة لعوارض من العلل ، ولزم منزله عدل المأمون الى استكتاب كتاب لعلمه بكتابتهم وجزالتهم ، وانه ليس فى عصرهم من يوازيهم ولا يدانيهم ، فاستوزر واحدا بعد واحد . أولهم أحمد بن أبى خالد الأحول ، وكان ينوب عن الحسن بن سهل لما تخلف فى منزله ، فلما دعاه المأمون الى أن يستوزره قال : يا أمير المؤمنين : اجعل بيتى وبين الناس منزلة يرجونى لها صديقى ويخافنى بها عدوى ، فما بعد الغايات الا الآفات .

ويقول المسعودى أيضا ان المأمون لم يملك بعد الفضل بن سهل كتابه أمره لقيامه بالملك واضطلاعه به ، ولم ير أحدا أنه مفتقر الى وزير يشركه فى تدبيره ، ولم يكن يسمى بين يديه أحدا من كتابه وزيرا ، ولا يكاتب بذلك . فلأجل ذلك ترك كثير من الناس أن يعد كتابه من الوزراء . وفى كلام المسعودى بعض التناقض ، فهو يقول ان أحمد بن أبى خالد هو الذى أبى أن يتسمى بالوزارة ثم يعود فيقول ان المأمون كره ذلك بعد ما كان من استبداد الفضل

---

(١) الجاحظ حياته وآثاره ١٨٨. ويقول الذهبى فى أحداث سنة ٢١١ هـ ان المأمون امر بأن يقال : خير الخلق بعد النبى صلى الله عليه وسلم على وأمر بالنداء أن برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير ، ولهذا يقول ان المأمون أظهر التشيع فى هذه السنة . والواقع أن المسألتين منفصلتان بالنسبة لتاريخ المأمون (انظر دول الاسلام حوادث سنة ٢١١ هـ)

ابن سهل . وتلك حقيقة يكاد يشير اليها كثير من المؤرخين . فأحمد ابن أبى خالد وأحمد بن يوسف وأبو عباد ثابت بن يحيى وعمرو ابن مسعدة بن صول ، ومحمد بن يزداد بن سديد كانوا مجرد مستشارين وكتاب للمأمون ، ولم يتولوا شئون الوزارة بمسئولياتها الضخمة كما تولاها البرامكة من قبل ، أو كما تولاها الفضل ابن سهل .

وقد قام أحمد بن أبى خالد بدور كبير الى جانب المأمون منذ دخوله الى بغداد ، وهو من أصل شامى ، كان مولى لبنى عامر ابن لؤى ، وكان أبوه كاتب سر ابن عبيد الله كاتب المهدى ووزيره . وكان ابن أبى خالد ذا كفاية عظيمة . وهو الذى كفى المأمون شر طاهر بن الحسين حين انتوى الغدر ـ كما سبق أن بينا . ولكن شرهه الى الطعام كان من أعظم نقائصه حتى انه ولى رجلا كورة عظيمة القدر مقابل فالوذج أهداه اليه ، الا أن قدرة المأمون وبراعته فى استخدام الرجال جعلته يستطيع أن يستر هذا النقص فى وزيره دون الاضرار بمصالح الدولة أو الأفراد .

ولما توفى ابن أبى خالد عام ٢١١ هـ استعان المأمون بأحمد ابن يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب ، وهو من أهل الكوفة من موالى بنى عجل ، وكان يتولى ديوان الرسائل للمأمون منذ كان فى مرو ، وأعجب بكتابته اعجابا شديدا ، وخاصة برسالته التى يعتذر فيها عن اقدام المأمون على قتل أخيه . واستطاعت الوشايات أن تفسد ما بينه وبين المأمون فقضى عليه بالبخور .

وتولى بعده ابو عباد ثابت بن يحيى بن يسار الرازى ، ويقول عنه ابن الطقطقى انه كان أهوج محمقا . أما عمرو بن مسعدة ابن سعد بن صول فهو من أصل تركى ، كان من عمال الدولة فظهرت كفايته وبلاغته ، واستطاع أن يتصل بالخليفة ، بل كان هو وأبو عباد ثابت بن يحيى يكتبان بين يدى المأمون ويتصلان بكل شئونه . وكان المأمون من أشد المعجبين ببلاغة عمرو وفصاحته . وقد عمل كاتبا منذ أيام الرشيد وكان البرامكة يثنون عليه . وهو

ابن عم ابراهيم بن العباس الصولى الشاعر المعروف ، وقد توفى عمرو سنة سبع عشرة ومائتين . وآخر من تولى شئون الحكم فى عهد المأمون عبد الله محمد بن يزداد بن سويد ، وهو من مجوس خراسان الذين أسلموا . وقد توفى المأمون وهو ما يزال فى خدمته .

ونلاحظ أن كل الوزراء كانوا من الموالى ، وهذا راجع الى كونهم من كتاب الدواوين وغالبيتهم العظمى — ان لم يكونوا كلهم — من الموالى . ويضيف بعض الباحثين الى قائمة وزراء المأمون يحيى بن أكثم التميمى ويجعلون وزارته بعد أحمد بن يوسف ، ولكن أغلب المؤرخين لا يثبتونه ضمن وزراء المأمون (١) .

ومما تقـــدم يتضح لنا أن المأمون لم ينعم بمقامه فى بغداد ، بل ظل كما كان فى مرو يخوض بحار السياسة ويبذل من نفسه لاصلاح شأن دولته ، ويحاول أن يستميل الثائرين عليه باللين والموادعة ، فان أبوا خاض اليهم غمرات الحرب . وكان يبذل فى ذلك جهدا ومالا حتى أتت عليه فترات كان لا يجد فى خزائنـــه مالا ينفق منه على نفسه أو على الجند .

وكان لا يعتمد على وزرائه أو مستشاريه أو قضائه فى انصاف الناس والنظر فى حاجاتهم وشكاواهم ، بل كان كثيرا ما ينهض بهذا العبء بنفسه ، لاحساسه العظيم بمسئوليته ، وما كان أعظمها فى تاريخ هذا الخليفة الذى عاش طوال حياته السياسية مناضلا ومات وهو يحمل سيفه فى يده .

---

(١) ممن جعله من الوزراء ابن طيفور ، وممن أسقطه ابن طباطبا والمسعودى .

الفصل الخامس

في تيار الثقافة

منذ خرج العرب من جزيرتهم التقوا بثقافات أجنبية كثيرة ، أثرت في تفكيرهم واتجاهاتهم العقلية تأثيرا واضحا ، وكان لقاؤهم مع الأجناس المختلفة المغلوبة على أمرها لقاء اتحاد جنسي وفكري وان ظل للعـــرب ولغتهم السيادة والنفوذ ، ولكن كان العنصر الفارسي من القوة والانتشار بحيث جعل للغته مكانا فى المجتمـــع الاسلامى منذ القرن الأول ، فتأثرت بها العربية بعض التأثر ، وظهر ذلك فى الشعر ، حتى ان شعراء البدو لم يعتصموا من تأثير الألفاظ الفارسية ، فكانوا يدخلونها فى شعرهم للتملح كما يقول الجاحظ .

وقد يتساءل المرء : لماذا لم تتأثر العربية بغير الفارسية من اللغات المحلية فى أثناء مصارعتها اياها فى بيئاتها الطبيعية ، فنحن لا نكاد نجد مثل هـــذا التأثير الفارسى القوى بالنسبة للألفاظ السريانية أو القبطية مثلا . والسبب فى هذا يرجع الى طغيان الحضارة الفارسية على غيرها من الحضارات ، كما يرجع الى تأثير الفرس القوى فى البصرة والكوفة بالذات ــ وهما مركزان اسلاميان خطيران فى الحياة الثقافية والعقلية العربية ، وخاصة ابان تكونها وتشكلها منذ القرن الأول .

وقام الموالى والرقيق بدور خطير فى تأثر العربية بالفارسية ، وقد أدى ذلك الى ظهور أسلوب عربى مولد له خصائص ومميزات

يفترق بها عن أسلوب اللغة العربية الأصيلة التى جاء بها العرب المهاجرون الى البلاد المفتوحة . وقد تكون هذا الأسلوب المولد من العوائد اللغوية الراجعة الى اللهجة الدارجة فى مناطق العربية القديمة كما يقول « يوهان فك » ، الا أنه تصور وجود لغة مولدة لا الأسلوب الذى أشرت اليه .

ومما ساعد على وجود هذا الأسلوب المولد ظهور شعراء من غير العرب منذ النصف الثانى للقرن الأول الهجرى مثل زياد الأعجم وأبى عطاء السندى . ولا يعنى هذا أن الأسلوب العربى الفصيح قد انتهى أمره وغلبه هذا الأسلوب المولد ، ولكن كان لكل منهما تيار يسير فيه .

وكان عصر الرشيد نفسه من أزهي العصور بالنسبة لحياة اللغة العربية والتأليف فيها . ويكفى أن نذكر من علماء هذه الفترة الكسائى والأصمعى والفراء وأبا عبيدة وآبا زيد الأنصارى لنتبين صدق ما ذهبت اليه .

واهتم الخلفاء العباسيون اهتماما كبيرا بتعليم اولادهم أصول العربية . وقد رأينا ما فعله الرشيد فى تعليم ابنيه الأمين والمأمون . ويقول الرواة ان المأمون غضب حين سمع لحنا لبعض ولده فقال لهم ، ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده : ويزين بها مشهده ، ويفل حجج خصمه ، بمسكنات حكمه ، ويملك مجلس سلطانه بظاهر بيانه ، ليس لأحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته : فلا يزال الدهر أسير كلمته .

واذا تركنا التطور اللغوى الذى كان أساسا للثقافة فى القرن الثانى وما تلاه ، ونظرنا فى نواحى التطور الفكرى فى هذا العصر وجدنا أن أثر الثقافة الفارسية فى المجتمع الاسلامى لم يكن لفظيا أو لغويا فحسب ، بل تعدى ذلك الى نواح أخفى وادق بحيث لا تظهر لأول وهلة كهذه الأسماء الفارسية التى أطلقت على مظاهر الحضارة المختلفة من أنواع الأطعمة والملابس والأزهار والرياض وغير ذلك ، أو كطرق الغناء وفنون الايقاع والآلات الموسيقية بأنواعها

المختلفة ، بل نراه فى المذاهب والمعتقدات المختلفة التى شاعت فى القرن الثانى ، وتأثر بها كثير من العرب المثقفين .

وأهم الثقافات التى التقى بها العرب وتأثروا بها ـ بعد الثقافة الفارسية ـ الثقافة اليونانية ، فقد أحس المسلمون حاجتهم اليها بعد امتداد حركة الفتوح اذ صادفوا مللا وديانات مختلفة كانت تقف عقبة فى سبيل انتشار الاسلام وتقدمه فى البلاد المفتوحة . وكان أصحاب هذه الديانات من السريان والنصارى والفرس الزرادشتيين والحرانيين الصائبة وغيرهم قد هضموا التراث اليونانى وتمثلوه أحسن تمثيل ، كما مرنوا على أساليب الجدل والمحاجاة لاحاطتهم بوسائل المنطق اليونانى . عندئذ أحس المسلمون حاجتهم الى وسائل هذا المنطق ، والى التدرب على أساليب الجدل للدفاع عن الاسلام ضد خصومه ، واقناع المنكرين له من أصحاب الديانات الأخرى . ولهذا لم ير المتكلمون المسلمون مندوحة لهم عن التلمذة فى مدرسة المنطق الهلينى ، وبهذا وضع الأساس لبناء علم كلام اسلامى يعمل بأدوات هلينية . ونشطت عندئذ ترجمة كتب أرسطو والمنطق اليونانى لمواجهة هذه الحاجة العملية التى استشعرها علماء الكلام المسلمون .

وكان من نتيجة دخول المنطق اليونانى والفلسفة اليونانية محيط الثقافة العربية عن طريق متكلمى النصارى وغيرهم ظهور فرق اسلامية متأثرة فى منهجها وبرامجها بهذا المنطق وبهذه الفلسفة ، كالمعتزلة والأشاعرة وغيرهم . ويرى ڤون كريمر أن تطور الطوائف الدينية ـ منذ اواخر القرن الأول ـ والمبادىء المذهبية التى صدرت عنها قد حدث تحت تأثير الآراء المسيحية بوجه خاص لأن التراث اليونانى الذى نقل للعرب وصل اليهم فى ثوب هلينى متأخر : أى فى صورة المسيحية الشرقية ، ثم فى صورة المانوية والزرادشتية المشبعة بالروح اليونانية . وكانت المسيحية أول نظام اتصل بالاسلام اتصالا وثيقا فى دمشق أيام الحكم الأموى ، ولابد أن العلاقات بين رجال الدين المسلمين والمسيحيين كانت متشعبة .

والمنافسات الدينية كانت مستمرة ، ومن المحتمل أن تكون قد نشأت عنها الطوائف الاسلامية الأولى كالمرجئة والقدرية . ولما كان فون كريمر يرى ان مذهب المعتزلة كان امتدادا لمذهب القدرية الذى نشأ فى القرن الأول بحكم أن نقطة ابتدائهم كانت مذهب الاختيار وحرية الارادة ، لهذا يقرر وجود أثر مسيحى فى حركة الاعتزال . ولكن نلينو يرفض فكرة الربط بين المعتزلة والقدرية أساسا ، وان كانت القدرية فى رأيى قد هيأت الأذهان لنشوء حركة الاعتزال فى البصرة ، اذ كانت منتشرة فيها بصورة واسعة ، حتى ان الخطيب البغدادى يقول : لو فتشت أهل البصرة وجدت ثلثهم قدرية ولعله يقصد بالقدرية هنا المعتزلة بحكم هذا الارتباط الذى نشير اليه . والحقيقة ان حركة الاعتزال سواء أكانت امتدادا للمرجئة أم القدرية نشأت بتأثير الفلسفة اليونانية ، وكان لها تأثير عميق فى الحياة السياسية والفكرية فى القرن الثانى ، وخاصة فى عهد المأمون الذى كان على صلة وثيقة بها وبرجالها ، بل أراد فرضها على أهل السنة كما سنرى فى حديثنا عن موقف المأمون من العقيدة .

وفيما عدا التأثير الثقافى الفارسى واليونانى والثقافات الدينية المسيحية وغيرها التى نقلت عن طريق السريان والحرانيين ، نجد أن الثقافة الهندية كان لها تأثير أيضا فى الحياة العقلية فى القرن الثانى اذ شملت حركة الترجمة فى القرنين الأول والثانى كتبا هندية فى الأدب والرياضيات والالهيات .

ونجد التأثير الهندى واضحا فى المذاهب والمعتقدات التى كانت تسود القرن الثانى ، ففكرة التناسخ التى ظهرت فى معتقدات بعض الفرق انما هى فكرة هندية حتى ان البيرونى يطلق عليها اسم « علم النحلة الهندية » .

ومن ذلك كله يتبين لنا أن القرن الثانى شهد حركة عقلية ضخمة أمدتها روافد كثيرة أولها الثقافة العربية الأصيلة التى تتمثل فى الشعر والقرآن والحديث وفقههما وعلوم اللغة العربية : وقد احرزت هذه الفروع جميعها تقدما كبيرا فى هذا القرن ، بل ان بعضها

خلق فيه خلقا جديدا كالنحو والعروض مثلا ، كما جمع التراث الشعرى القديم لأول مرة ودون فى ذلك العصر . وهذه الثقافة العربية قد أخذت تهضم ـ منذ انتهاء حركة الفتوح ـ ثقافات الأمم الأجنبية التى استولى العرب على بلادها لتصبح غير محدودة بزمان او مكان أو جنس ، ولكنها صارت ثقافة عالمية بكل ما فى هذا التعبير من معان . وقد آثرنا أن ننقل صورة التطور الثقافى فى هذا العصر لنبين أن المأمون الخليفة العالم كان وليد هذه الثقافات المصطرعة فى عصره ، وكان خير معبر عنها فى أقواله ومواقفه الفكرية ، وان كان عصره غنيا بالعلماء الأفذاذ فى كل فروع المعرفة ، ففيه الشافعى وابن حنبل وسفيان بن عيينة ، وفيه الواقدى صاحب السير والمغازى ، وفيه أبو عبيدة معمر بن المثنى الراوية وأبو عمرو الشيبانى اللغوى والفراء أمام العربية وقطرب النحوى والنضر بن شميل واليزيدى ويعقوب الحضرمى ، وأبو زيد الأنصارى وكثيرون غيرهم من علماء الفقه والحديث والشعر واللغة والسير والرواية ، الى جانب الفلاسفة وأصحاب المذاهب الكلامية .

ولقد بينا من قبل نوع الدراسات التى أقبل عليها المأمون وكيف أنه برز فيها جميعا منذ صباه الباكر ، ولكننا ينبغى أن نرى أثر ذلك فى حياته وسلوكه التفكيرى . لقد كانت ثقافة المأمون العربية عميقة شاملة ، فى الأنساب واللغات وتاريخ العرب وأشعارهم : وكان اهتمامه بالأدب كبيرا فقد كان عالما بالشعر بصيرا به ، وكان هو نفسه شاعرا منذ كان شابا صغير السن ، ويروى فى ذلك أن الرشيد كان قد أراد سفرا فأمر الناس أن يتأهبوا لذلك ، وأعلمهم أنه خارج بعد الأسبوع . فمضى الأسبوع ولم يخرج ، فاجتمعوا الى المأمون فسألوه أن يستعلم ذلك ، ولم يكن الرشيد يعلم أن المأمون يقول الشعر ، فكتب اليه المأمون :

يا خير من دبت المطي به ... ومن تقدى بسرجه فرس
هل غاية فى المسير نعرفها ... أم أمرنا فى المسير ملتبس

ما علـــم هــــذا الا الى ملك من نوره فى الظـــلام نقتبس
ان سرت سار الرشــــاد متبعا وان تقف فالرشـــاد محتبس

فقرأها الرشيد فسر بها .

وقد ذكرنا من قبل أبياته التى كتبها فى جارية أبيه التى أحبها ووهبه الرشيد اياها ،

ظبى كتبت بطرفى من الضـــمير اليه
قبلته من بعيـــد فاعتل من شفتيه
ورد أخبث رد بالكسر من حاجبيه
فما برحت مكانى حتى قدرت عليه

وهى أبيات تتميز بالرقة المفرطة التى عرف بها تغزل المولدين فى هذا العصر ، رقة فى الألفاظ وفى البحر الموسيقى القصير ، وفى القافية الواهنة . وهذه الرقة نلمحها فى كل أشعار المأمون التى تغزل فيها ــ على قلة تلك الأشعار ــ فقد اشتهرت أبياته التى يقول فيها :

بعثتك مرتادا ففـــزت بنظـــــرة
وأغفلتنى حتى أســـأت بك الظنـــا
فناجيت من أهـــوى وكنت مباعدا
فياليت شـــعرى عن دنوك ما أغنى
ورددت طرفا فى محاسن وجههـــا
ومتعت باستسماع نغمتهـــا أذنا
ارى أثرا منه بعينيك بينـــــا
لقد أخذت عيناك من عينه حسنا (١)

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٣٠٠ والكامل فى التاريخ ٥ : ٢٢٩ وكتاب بغداد : ١٥٦ وقد وضع فيه «منشاقا» بدلا من «مرتادا» عيون الاخبار ٤ : ١٠٥ والبيت الثالث زيادة فيه عن المصادر السابقة مع بعض تغيير فى الألفاظ .

ويشير بعض الرواة الى أن المأمون قد عول فى هذا المعنى على قول العباس بن الأحنف :

ان تشق عينى بها فقد سعدت   عين رسولى وفزت بالخبر

وكلما جاءنى الرسول لها   رددت عمدا فى طرفه نظرى

يظهر فى وجهه محاسنها   قد أثرت فيه أحسن الأثر

خذ مقلتى يا رسول عارية   فانظر بها واحتكم على بصرى

وليس بعيدا أن يكون المأمون قد اطلع على قول العباس وتأثر به ، فمن المعروف أنه كان معجبا بشعره الى حد بعيد ، وكان يحفظ بعضه وربما أكثره . وبلغ من اعجاب المأمون بالعباس أنه يقدم للصلاة على جثمانه قبل الكسائى وابراهيم الموصلى — وقد ماتوا جميعا فى يوم واحد — وذلك تكريما للعباس فى قوله :

يا بعيد الدار عن وطنه   هائما يبكى على شجنه

كلما جد البكاء به   زادت الأسقام فى بدنه

ومع ذلك فاننا نرى أن أبيات المأمون أجود من ناحية صياغتها وروعة أدائها .

ومن شعر المأمون الرقيق فى التغزل أيضا قوله :

لسانى كتوم لأسراركم   ودمعى نموم لسرى مذيع

فلولا دموعى كتمت الهوى   ولولا الهوى لم يكن لى دموع

ويذكر الرواة أبياتا أخرى فى التغزل قالها المأمون وبلغ فيها من لطف الكناية ما حدا بالجرجانى الى اثباتها فى كتابه « الكنايات » ، ذلك أن المأمون لما طلب الدخول على بوران دافعوه لعذر بها فلم يندفع ، فلما زفت اليه وجدها حائضا فتركها . فلما قعد للناس من الغد دخل عليه أحمد بن يوسف الكاتب وقال : يا أمير المؤمنين هنأك الله بما أخذت من الأمر باليمن والبركة وشدة الحركة والظفر بالمعركة ، فأنشده المأمون :

فارس ماض بحربتـــه صادق بالطعن فى الظلم
رام أن يدمى فريســـته فاتقته من دم بـــدم

وكان الشعر عند المأمون طرفة يلجأ اليها فى أوقات الصفو ، فهو يصف الشطرنج لعبته المفضـلة التى كان يخلو اليها حين لا تشغله أمور الدولة فيقول :

أرض مربعة حمـــراء من أرم ما بين الفين معروفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها فطنا بغير أن يأثما فيها بسفك دم
هذا يغير على هذا وذاك عـــلى هذا يغير وعين الحـــزم لم تنم
فانظر الى فطن حالت بمعـــرفة فى عسكرين بلا طبل ولا عـــلم

وحين أخمد عبد الله بن طاهر فتنة عبيد الله بن السرى فى مصر التى استشرت واستمرت وقتا طويلا كتب المأمون لعبد الله بن طاهر يعبر عن صفو وده له ، ويعابثه بطريقة اخوانية لطيفة ، قال ،

أخى أنت ومولاى ومن اشـــكر نعماه
فما أحببت من أمر فانى الدهر أهداه
ومـــا تكره من شيء فانى لست أرضاه
لك الله عـــلى ذاك لك الله لك الله

وكان المأمون يقدر الأخوة والصداقة حق قدرهما ، فهو يصف الصديق الحق بقوله :

ان اخاك الحق من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعـــك
ومن اذا صرف الزمان صـدعك بدد شمل نفسه ليجمعـــك

وبعث اليه عنبسة بن أسحق عامله على الرقة يصف خروج الأعراب بناحية سنجار وعبثهم بها ، فرد عليه المأمون ببيتين يفخر فيهما بقوته وقدرته على اخماد الثورات ، قال :

أسمعت غير كهام السـمع والبصر
لا يقطع السيف الا فى يد الحـــذر

سيصبح القوم من سيفى وضاربه
مثل الهشيم ذرته الريح بالمطر

وجلس المأمون يوما لينظر فى المظالم ، فتقدمت اليه امرأة بشكواها وقد صاغتها شعرا ، قالت :

يا خير منتصف يهدى له الرشد
ويا اماما به قد أشرق البلد
تشكو اليك عميد القوم أرملة
عدى عليها فلم يترك لها سبد
وابتز منى ضياعى بعد منعتها
ظلما وفرق منى الأهل والولد

فأطرق المأمون حينا ثم رفع رأسه اليها وهو يقول :

فى دون ما قلت زال الصبر والجلد
عنى وأقرح منى القلب والكبد
هذا أذان صلاة العصر فانصرفى
وأحضرى الخصم فى اليوم الذى اعد
فالمجلس السبت أن يقض الجلوس لنا
ننصفك منه والا المجلس الأحد

وشبيه بهذه الحادثة ما وقع بين المأمون وابراهيم بن المهدى فقد أراد المأمون أن يعابثه بعد أن عفا عنه فقال له : أنت الخليفة الأسود ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أنت مننت على بالعفو ، وقد قال عبد بنى الحسحاس ،

أشعار عبد بنى الحسحاس قمن له
عند الفخار مقام الأصل والورق
ان كنت عبدا فنفسى حرة كرما
أو أسود الجلد انى أبيض الخلق

فقال المأمون : يا عم خرجك الهزل الى الجد . ثم أنشأ يقول :

ليس يزرى الســـــواد بالرجل الشـ
ـــــهم ولا بالفتى الأديب الأريب
أن يكن للســـــــواد منك نصيب
فبياض الأخــــلاق منــك نصيبى

ويبدو أن المأمون كان مغرما بالعبث بعمه الذى شق عليه عصا الطاعة ، فقد روى أن ابراهيم بن المهدى ـ وكان ذا جثة عظيمة ـ دخل يوما على المأمون فتأمل جثته وقال : يا ابراهيم عشقت قط ؟ قال : يا أمير المؤمنين أجلك عن الجواب فى هذا ، قال : بحياتى أصدقنى . قال : وحياتك ما خلوت من عشق قط . قال له : كذبت وحياتك يا أبا اسحق :

وجه الذى يعشق معروف لأنه اصــــفر منحوف
ليس كمن تلقــاه ذا جثة كأنه المذبح معـــلوف !

ومما يدل على سرعة بديهة المأمون أيضا ما روى عنه حين أهدى اليه عبد الله بن طاهر قينة وأمرها أن تنشد المأمون شعرا صنعه عبد الله يمدح به نفسه ، فلما جلست فى مجلس المأمون أنشأت تقول كما أمرها عبد الله :

أغمــدى سيفى وقولى جم يا ســــــيف طويلا
قد فتحت الشرق والغر ب وآمنت الســـــبيلا

فلما فرغت قال لها المأمون : لا تقطعى صــــوتك وقولى ما أقول لك :

بنا نلت الذى نلت فدع عنك الفضــولا
أنت لولا نحن فى الشـــكة لم تسو فتيلا

ثم قال : ارجعى اليه فأنشديه هذا فان شاء بعد فليردك .

وكان المأمون مشغوفا بالحكمة يصوغها شعرا ونثرا ، وهو يحاول أن تتضمن فكرة جديدة ، فمن ذلك قوله :

فلو كان يستغنى عن الشكر ماجـــد
لكثرة مـــــال أو عـــلو مكان

لما ندب الله العبـــــاد لشـــكره
فقـــال أشـــكروا لى أيها الثقلان

ولم يكن المأمون يعالج الشعر ترفا وتزجية للوقت ، بل كان يعبر به عن نفسه ــ كما رأينا ــ وعن أحاسيسه ، ويحاول الرد على الذين يجابهونه بأشعارهم . يضاف الى ذلك شدة بصره بالشعر الجيد والردىء : وصدق حكمه عليه ، وفهمه لصناعته . أنشده عمارة بن عقيل قصيدة يمدحه بها كانت فى مائة بيت ، فكان عمارة يبتدىء بصدر البيت فيبادره المأمون الى قافيته ، فقال عمارة : والله يا أمير المؤمنين ما سمعها منى أحد قط ، قال المأمون : هكذا ينبغى أن يكون ، ثم أقبل على عمارة فقال : أما بلغك أن عمر ابن أبى ربيعة أنشد عبد الله بن العباس قصيدته التى يقول فيها : (تشط غدا دار جيراننا) فقال ابن العباس : (وللدار بعد غد أبعد) حتى انشده القصيدة يقفيها ابن العباس ؟ ثم قال : أنا ابن ذاك .

ثم قابل الشاعر عبد الله بن أبى السمط عمارة بن عقيل فقال له : ان المأمون لا يبصر الشعر ، قال عمارة : ومن ذا يكون أعلم به منه ، فوالله انك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا الى آخره ، قال عبد الله : انى أنشدته بيتا أجدت فيه فلم أره تحرك له ، قال عمارة : وما الذى أنشدته ؟ قال : أنشدته :

أضحى امام الهـدى المأمون مشتغلا
بالدين والنـــاس بالدنيا مشاغيل

قال عمارة : انك والله ما صنعت شيئا ، وهل زدت على أن جعلته عجوزا فى محرابها ، فى يدها سبحتها ، فمن القائم بأمر الدنيا اذا تشاغل عنها وهو المطوق بها ، هلا قلت فيه كما قال عمك جرير فى عبد العزيز بن الوليد ،

فلا هو فى الدنيـــا مضيع نصيبه

ولا عرض الدنيـا عن الدين شاغله

وحين تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل مدحه محمد ابن حازم الباهلى بقوله :

بارك الله للحســـــن ولبـــــوران فى الختن

يا ابن هارون قد ظفــر ت ولكن ببنت من ؟ !

فلما نمى هذا الشعر للمأمون لم تغب عنه سخرية الشـــاعر فقال : والله ما ندرى خيرا أراد أم شرا .

ومما يدل على احاطة المأمون الواسعة بانتاج الشعراء فى عصره : سؤاله الدائم عن هذا الشاعر أو ذاك ، واستجادته لقصائد شعراء مختلفين ، فهو يثنى على شعر للعباس بن الأحنف ، ولأبى نواس ، ولمسلم بن الوليد ، وللحسين بن الضحاك ، ولعلى بن جبلة ، ولأبى الشيعى ، وقد أفرط فى استحسان قصيدة لأبى الشيعى ـــ كما يقول ابن المعتز ـــ تدل على ذوقه الأدبى الرفيع .

وكان المأمون كلما ولى رجلا سأله : أتروى شيئا من الشعر ؟ وكلما سمع شعرا عذبا استجاده ، دعا بدواة فكتبه .

وأخبار المأمون تدل جميعا على أنه كان يعقد مجالس تنشد فيها الأشعار ، ويتناقش الناس حولها ، مما يشير الى اهتمامه العظيم بالشعر وروايته . وفى أحد هذه المجالس كان عند المأمون جماعة من قريش فسألهم : أيكم يحفظ أبيات عبد الله بن الزبعرى التى يعتذر فيها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال مصعب ابن عبد الله الزبيرى : أنا يا أمير المؤمنين وأنشده القصيدة التى مطلعها :

منــع الرقاد بلابل وهمـــوم والليـــل معتلج الرواق بهيم

فأمر له بثلاثين ألف درهم وقال : ليكن القرشى مثلك . وهكذا كان المأمون مع الشعراء أجود من السحاب الحافل والريح العاصف كما وصفه أحد عماله . ومما يروى فى ذلك أن شاعرا بصريا من

تميم كان معروفا بالظرف فأغراه والى البصرة بأن يتوجه الى مدح المأمون ــ وكان وقتها في الشام يتهيأ لغزو الروم ــ وفي الطريق قابل الشاعر فارسا كهلا على بغل فاره فسلم عليه وسأله عن نسبه وقصده : فقال الرجل : قصدت هذا الملك الذى ما سمعت بمثله أندى راحة .. قال ، فما الذى قصدته به ؟ قال : شعر طيب يلذ على الأفواه ، قال الفارس : فأنشدنيه ، فغضب الشاعر وقال : يا ركيك أخبرتك أنى قصدت الخليفة بشعر قلته ومديح حبرته ، تقول أنشدنيه . قال : وما الذى تأمل فيه ؟ فقال الشاعر : ان كان على ما ذكر لى عنه فألف دينار ، قال الفارس : فأنا أعطيك ألف دينار ان رأيت الشعر جيدا ، فأنشده قوله :

مأمـــون يا ذا المنن الشريفة

وصـــاحب المرتبـــة المنيفة

وقائد الكتيبة الكثيفـــــة

هل لك فى أرجـــوزة ظريفة

اظرف من فقه أبى حنيفـــة .. الخ

وما أن انتهى الشاعر من أرجوزته حتى رأى زهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا الأفق يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله ، فارتاع الرجل ، فقال له المأمون : لا بأس عليك أى أخى ، فقال الشاعر ، يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداك ، أتعرف لغات العرب ؟ قال : أى لعمر الله . قال : فمن جعل الكاف منهم مكان القاف ؟ قال : هذه حمير . قال : لعنها الله ولعن من استعمل هذه اللغة بعد اليوم . فضحك المأمون وعلم ما أراد ، والتفت الى خادم الى جانبه وقال : أعطه ما معك فأخرج له كيسا فيه ثلاثة آلاف دينار فأخذها الشاعر ومضى (١) .

---

(١) كتاب بغداد : ١٥٠ ويقصد الشاعر أنه اراد بكلمة (ركيك) التى وصف بها المأمون لفظ (رقيق) ولكنه نطقها بلغة حمير !

وقال المأمون يوما لمحمد بن الجهم : أنشدنى ثلاثة أبيات فى المديح والهجاء والمراثى ، ولك بكل بيت كورة ! وقد تكون فى هذه الرواية مبالغة ، ولكنها تدل على أى حال على اهتمام المأمون العظيم بالشعر واستعداده للاثابة الجزيلة عليه .

وعلى الرغم من تقبل المأمون لمديح كثير من الشعراء الأكابر والأصاغر فى عصره : منذ كان طفلا فى عهد أبيه الرشيد حتى صار حاكما على خراسان ثم خليفة يقيم فى مرو ثم فى بغداد ، الا أن صلته ببعض الشعراء الكبار فى عصره كانت تحكمها ظروف نفسية أو تاريخية معينة . مثال ذلك دعبل الخزاعى شاعر الشيعة فقد كانت صلته بالمأمون تحكمها علاقة المأمون بالشيعة ، فحينما صافاهم مدحه دعبل كما رأينا ، فلما عاد الى العباسيين ، هجاه دعبل هجاء مرا كما فى قوله :

انى من القوم الذين سيوفهم
قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله
واستنقذوك من الحضيض الأوهد

بل كان دعبل يهجو العباسيين جميعا — كما رأينا فى أبياته التى رثى بها على بن موسى الرضا ، وكما فى أبياته التى يهجو فيها ابراهيم بن المهدى عم المأمون لما تولى الخلافة العباسية فترة من الزمان فى أثناء الاضطراب الذى حدث ببغداد ، فهو يقول فيه :

نفر ابن شكلة بالعراق وأهله ... فهفا اليه كل أطيش مائق
ان كان ابراهيم مضطلعا بها ... فلتصلحن من بعده لمخارق
ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل ... ولتصلحن وراثة للمارق
أنى يكون وليس ذاك بكائن ... يرث الخلافة فاسق عن فاسق

وعلى الرغم من هجاء دعبل للمأمون ، الا أن المأمون كان معجبا بشعره كل الاعجاب ، حتى بهجائه لعمه وله وللعباسيين جميعا ، فقد كان ينظر الى الشعر نظرة موضوعية فلا يملك الا الاعجاب

بحس الشاعر المرهف والعالم البصير ، وقد أبدى هذا الرأى في أكثر من مناسبة . ولما دخل المأمون بغداد أحضر دعبلا بعد أن أعطاه الأمان ، فعاتبه على هجائه له وطلب اليه أن ينشده قصيدته التائية فاستعفاه ، فقال ، لا بأس عليك وقد رويتها : وانما احببت أن أسمعها منك ، فأنشدها دعبل ؛ فلما انتهى الى قوله :

ألم تر أنى مذ ثلاثين حجـــة   أروح وأغـــدو دائم الحسرات
أرى فيئهم فى غيرهم متقسـما   وايديهم من فيئهم صـــفرات
اذا وتروا مدوا الى أهل وترهم   أكفا عن الأوتار منقبضـــات
وآل رسول الله نحف جسومهم   وآل زياد غلاظ القصـــرات
بنات زياد فى القصـــور مصونة   وبنت رســول الله فى الفلوات

بكى المأمون وجدد له الأمان وأحسن له الصلة .

أما علاقة الحسين بن الضحاك بالمأمون فمرد سوئها أن الحسين كان نديم الأمين فكان يتورط فى مديحه الى حد هجاء المأمون . ولما قدم المأمون الى بغداد طلب أن يسمى له قوم من أهل الأدب يجالسونه ، فذكر له جماعة منهم الحسين بن الضحاك فلما بلغ اسمه قال : أليس الذى يقول فى المخلوع :

هلا بقيت لســد فاقتنا   فينا وكان لغيرك التلف
فلقد خلفت خلائفا سلفوا   ولسوف يعوز بعدك الخلف

لا حاجة لى به لا يرانى والله الا فى الطريق .

واذا صحت هذه الرواية فان المأمون لم يذكر الا أخف شعر الحسين بن الضحاك الذى يعرض به فيه ، ذلك أن مقتل الأمين كان صدمة عنيفة على الحسين فبالغ فى رثائه والبكاء عليه ، حتى ان أبا الفرج الأصفهانى يقول : « وبلغ من جزعه عليه أنه خولط فكان ينكر قتله لما بلغه ، ويدفعه ويقول انه مستتر » . ومما قاله فى رثاء الأمين وهجاء المأمون :

أطل حزنا وابك الامام محمدا   بحزن وان خفت الحسام المهندا
فلا تمت الأشياء بعد محمـد   ولا زال شمل الملك فيها مبددا
ولا فرح المأمون بالملك بعـده   ولا زال فى الدنيا طريدا مشردا

وقال أيضا :

وهما شجا قلبى ويسكب عبرتى
محارم من آل الرسول استحلت
ومهتوكة بالخلد عنها سجوفها
كعاب كقرن الشمس حين تبدت
وسرب ظباء من ذؤابة هاشم
هتفن بدعوى خير حى وميت
أرد يدا منى اذا ما ذكرته
على كبد حرى وقلب مفتت
فلا بات ليل الشامتين بغبطة
ولا بلغت آمالهم ما تمنت

ويذكر ابن الأثير أن المأمون قد آلمته هذه الأبيات فأحضر الحسين وقال له : هل رأيت يوم قتل أخي هاشمية قتلت وهتكت ؟ قال : لا ، قال ، فما قولك الأبيات .. فقال : يا أمير المؤمنين لوعة غلبتنى وروعة فاجأتنى ، ونعمة سلبتها بعد أن غمرتنى ، واحسان شكرته فأنطقنى ، وسيد فقدته فأقلقنى ، فان عاقبت فبحقك ، وان غفرت فبفضلك . فدمعت عين المأمون وقال : قد عفوت عنك : وأمرت بادرار أرزاقك عليك ، وجعلت عقوبة ذنبك امتناعى عن استخدامك . ولكن الحسين بن الضحاك لم يسلم بهذه النتيجة فيما يبدو ، فحاول أن يسترضى المأمون بشتى الطرق ، ووسط فى ذلك عمرو ابن مسعدة ، كما يتضح لنا من قصيدته التى كتبها اليه وقال فيها :

أنت طودى من بين هذى الهضاب
وشهابى من دون كل شهاب
أنت يا عمرو قوتى وحياتى
ولسانى وأنت ظفرى ونابى
أترانى أنسى أياديك البيض
اذا اسود نائل الأصحاب

أين عطف الكرام فى مأقط الحـــا
جة يحمون حـــــوزة الآداب
أين أخلاقك الرضـــــية حالت
فى أم أين رقـــــة الكتـــاب
ان عطف الأديب فى بلد الغـــر
بة جود عـــلى ذوى الألبـــاب
أنا فى ذمـــــة السحاب وأظمأ
ان هـــذا لوصـــمة فى السحاب
قم الى ســــيد البـــرية عنى
قومة تستجر حسن خطـــاب

وكتب الى المأمون نفسه قصيدته التى مطلعها :

أجرنى فانى قد ظمئت الى الوعـد
متى تنجز الوعد المؤكد بالعهـــد

ويبدو أن الحسين انقطع عن قول الشعر فيما يجيده من الخمر والغزل والملاهى طوال عهد المأمون خشية أن يأخذه بذلك وهو غاضب عليه . والدليل على هذا اشارته التى يقول فيها عن شعره فى احدى القصائد (بضاعة أكسدها المأمون) . ويبدو أن المأمون رضى أخيرا عن الحسين فأراد استقدامه ـ وان كان قد ظل يصله وهو مقيم بعيدا عنه فى البصرة ـ فقد ذكر ابن المعتز ان أحـد البصريين قدم على المأمون فقال له : كيف ظريف شعرائكم وواحد مصركم ؟ فلما أنكر البصرى معرفته به قال المأمون : ذاك الحسين ابن الضحاك ، أليس هو الذى يقول :

رأى الله عبد الله خير عبـاده فملكه والله أعلم بالعبـــد

ما قال فى أحد من شعراء زماننا أبلغ من بيته هذا : فاكتب اليه فاستقدمه ، فلما أعلمه البصرى بمرضه ، كتب المأمون الى عامل الخراج على البصرة ليعطى الحسين ثلاثين ألف درهـم . وشاعر ثالث من أكبر شعراء ذلك العصر ، لم تكن صلته بالمأمون

قوية . على الرغم من انه نال شهرة واسعة في عهد المعتصم ، وما نظن أنه كان مجهول القدر فى أيام المأمون ، ونقصد به أبا تمام . لقد ولد أبو تمام عام ١٧٢ هـ على أصح الأقوال فهو قريب اذن من عمر المأمون ، أى أنه صار شاعرا ناضجا معروفا حين أصبح المأمون خليفة : أو على الأقل حين استقر له الأمر فى بغداد عام ٢٠٤ هـ . يقول عمر فروخ فى دراسته عن أبى تمام ان أبا تمام قد سعى ليتصل بالمأمون وهو يومذاك في الشام — وكان ذلك نحو عام ٢١٥ هـ كما نعلم من مصاحبتنا لحكم المأمون فى بغداد — فلما دخل عليه مدحه ، ولكنه لم يظفر منه بما يؤمل ولا بأدنى مما يؤمل ، بل بدر من الخليفة نحو الشاعر ما صرفه عن بغداد ، فان المأمون كان قد انقلب على آل على فأوغر صدره أن يرى أبا تمام يمدحهم ويعرض ببنى العباس فى قصيدته التى مدحه بها وهى التى مطلعها ،

دمن ألم بها فقال سلام — كم حل عقدة صبره الالمام

ولكن الدكتور البهبيتى يرى أن أبا تمام مدح المأمون بقصيدتين أخريين الأولى :

كشف الغطاء فأوقدى أو اخمدى
لم تكمدى فظننت أن لم تكمدى

والأخرى :

رقت حواشي الدهر فهى تمرمر
وغدا الثرى فى حليه يتكسر

ومع ذلك لا نرى المأمون قد قرب اليه أبا تمام أو أدخله فى بطانته من الشعراء ، مع أن ذكر أبى تمام يتردد مع شعراء أقل منه شأنا كانوا يترددون كثيرا على المأمون مثل عمارة بن عقيل ودعبل الخزاعى . ويبدو لى أن السبب الذى ذكره عمر فروخ ليس مقنعا تماما ، أو على الأقل ليس كل ما يقال فى هذه القطيعة بين المأمون وأبى تمام . بل يجب أن نضيف اليه أن وجود أبى تمام فى بطانة أبى دلف العجلى وتردده عليه — كما تشير الروايات المختلفة — كان

من الأسباب التى جعلت المأمون يجفوه . ودليلنا على ذلك موقف المأمون من على بن جبلة ، فقد رفض مدحه له لاختصاصه بأبى دلف ومدحه الرائع له .

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا أخبار المأمون مع شعراء عصره ، أو آراءه فى الشعراء السابقين الذين كانوا موضع نقاش دائم بينه وبين مجالسيه من أهل الأدب . وغاية ما يقال فى ذلك أن وجود المأمون فى الخلافة كان دفعة قوية للشعر فى أيامه لبصره واهتمامه به ، واثابته للشعراء . ونستطيع أن نجد أخبارا كثيرة للمأمون ـ فيما عدا من ذكرنا من الشعراء ـ مع أبى العتاهية وأبى نزار الضرير وأبى العميثل وجحشويه وخالد القناص والعتابى وابراهيم ابن المهدى ـ الذى كتب فى المأمون مدائح رائعة ـ ومن اليهم . أما أبو نواس فقد مات قبل تولى المأمون الخلافة ، وكان قد يئس من الأمين فقال فى سجنه :

أما الأمين فلست أرجو دفعه عنى فمن لى اليـــوم بالمأمون

ويقال ان المأمون لما بلغه ذلك قال : والله لئن لحقته لأغنيته غنى لا يؤمله . ولا عجب فى ذلك فقد كان المأمون يعجب بشــعر أبى نواس اعجابا شديدا حتى ليفضله على كثير من الشعراء فى القديم والحديث كما يخبرنا ابن طيفور .

وكان المأمون يعجب بالبلاغة أينما كانت سواء فى شعر أم نثر . روى أحمد بن يوسف قال : دخلت على المأمون وفى يده كتاب وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة ، ويصعد فيه بصره ويصوبه ، فالتفت الى وقد لحظنى فى أثناء قراءته للكتاب ، فقال : أراك منكرا منى ما تراه . قلت : نعم وقى الله أمير المؤمنين المخاوف . قال ، لا مكروه ان شاء الله : ولكنى قرأت كتابا وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقوله عن البلاغة ، فانى سمعته يقول : البلاغة التباعد من الاطالة والتقرب من البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى . وما كنت أتوهم أحدا يقدر على هذه البلاغة حتى قرات هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة الينا فاذا فيه : كتابى الى أمير المؤمنين ومن

قبلى من الأجناد فى الطاعة والانقياد . على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت اعطياتهم واختلت أحوالهم .. ألا ترى يا أحمد الى ادماجه فى الأجناد واعفائه سلطانه من الاكثار ؟

لهذا لم يكن غريبا أن يحف بالمأمون أعظم الكتاب فى ذلك العصر ، الذين كان لهم مكان فى تاريخ النثر العربى مثل أحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة والفضل والحسن ابنى سهل ، بل اننا نعد طاهر ابن الحسين من أعظم الكتاب فى ذلك العصر ، ويكفى أنه صاحب الرسالة المشهورة التى كتبها لابنه عبد الله عند خروجه لحرب نصر بن شيث ، والتى وصفها المأمون بقوله : ما أبقى أبو الطيب (طاهر بن الحسين) شيئا من أمر الدين والدنيا ، والتدبير والرأى والسياسة ، واصلاح الملك والرعية ، وحفظ البيضة ، وطاعة الخلفاء ، وتقديم الخلافة ، الا وقد أحكمه وأوصى به : ولهذا أمر المأمون أن يكتب نص الرسالة ويوزع على جميع العمال فى مملكته .

ولم يكن الأدب وحده نصيب المأمون من ثقافة عصره الواسعة ، بل كان ضليعا فى الفقه أيضا ، بصيرا بالسنن وفرائض الدين ، بل كانت له مشاركة فى فروع المعرفة كلها التى كانت سائدة فى عصره ، يقول عنه أبو حنيفة الدينورى انه نجم ولد العباس فى العلم والحكمة ، وانه اخذ من جميع العلوم بقسط ، وضرب فيها بسهم . ويقول عنه ابن الطقطقى انه من أفاضل الخلفاء والعلماء والحكماء ، ويصفه جمال الدين القاسمى بقوله : « عرف الخليفة المأمون بمحبته للعلم والعلماء ، وشغفه بالحكمة والحكماء ، بل لم ير فى أولاد الملوك من تعشق العلوم الحكمية على حداثة سنه ، وأقام بين العلماء لمناظرتهم فى جميع أنواع العلوم مثله ، فما دخل عليه مرة الا والفى فى مجلس من العلماء والأدباء . وقد ورث ذلك عن أبيه الرشيد ، فقد كان العلمـــاء والأدباء لا يفارقونه فى حضر ولا سفر .. وانما قرب العلماء الى الرشيد ما بنفسه من الميل الى الأدب والحرص على احراز العلوم .. وكان من الفضل بحيث أن مآدبه لم تخل قط من عالم أو أديب أو شاعر . وبلغ به التواضع

لهم أن معاوية المحدث الضرير كان اذا جلس الى طعامه قام الرشيد من موضعه وصب الماء على يده تعظيما لقدر العلماء » .

ويقول « ول ديورانت » ان تشجيع المأمون للفنون والعلوم والآداب والفلسفة كان ذا أثر أعظم مما كان فى عهد أبيه ، فقد أرسل البعوث الى القسطنطينية والاسكندرية وأنطاكية وغيرها من المدن للبحث عن مؤلفات علماء اليونان ، وأجرى الأرزاق على طائفة كبيرة من المترجمين لنقل هذه الكتب الى اللغة العربية ، وأنشأ مجمعا علميا فى بغداد ومرصدين فيها وفى تدمر ، وكان الأطباء والفقهاء والموسيقيون والشعراء وعلماء الرياضة والفلك يستمتعون بعطاياه .

هذه بعض أقوال الباحثين من قدامى ومحدثين عن علم المأمون وأثره فى تشجيع العلوم والآداب فى عصره ، فما حقيقة ذلك ؟ يذكر القفطى أن المأمون رأى فى منامه كأن رجلا أبيض مشربا بحمرة ، واسع الجبين ، مقرون الحاجبين ، أجلح الرأس ، أشهل العينين ، حسن الشمائل جالسا على سرير . قال المأمون : وكأنى بين يديه وقد ملئت له هيبة ، فقلت له : من أنت ؟ فقال ، أنا أرسطوطاليس ، فسررت به وقلت : أيها الحكيم أسألك . قال : سل ، قلت : ما الحسن ؟ قال : ما حسن فى العقل ، قلت : ثم ماذا ؟ ، قال : ما حسن فى الشرع .. فلما استيقظ المأمون من منامه حدثته نفسه ، وحثته همته على تطلب كتب أرسطوطاليس فلم يجد شيئا منها فى بلاد الاسلام .. وتمضى القصة الى نهايتها لتؤكد أن المأمون بذل كل ما فى وسعه لاستحضار الكتب اليونانية وترجمتها بسبب هذا الحلم . ويعلق « روزنتال » على ذلك بقوله ، ان بعض حلقات المفكرين المسلمين كانت ترى أن الهنود هم واضعوا العلوم جميعا ، وقد نسبوا الى المنصور أنه أوحى اليه فى حلم ما شدد من عزمه فى نقل العلوم الفلكية والرياضية ، والحصول على ترجمة لكتاب كليلة ودمنة من بلاد الهند . كما ان بعض الحلقات الأخرى أرادت أن تبين فضل اليونان على الحضارة العربية فأوحت الى المأمون هذا الحلم . ويبدو أن نظرية العلماء المسلمين فى أصل العلوم ونشأتها

لم تكن تميل الى الأخذ بنظرية التطور التدريجي ، بل هي تخضعها للسعي والجهـــد العقلي عند الانسان ، أو تجعلها نتيجة وحى سماوى .

والحقيقة ان المأمون قد اتصل بالفلسفة اتصالا وثيقا منـــذ كان شابا يافعا ، فقد عشق بفطرته العلوم العقلية ومال اليها : ويقول أبو حنيفة الدينورى ان أستاذه في الأديان والمقالات أبو الهذيل العلاف . ثم اتصل بعلوم عصره ومعارفها المختلفة ، فشجع الحركة العلمية تشجيعا قويا بما أشرب قلبه من حب العلم ، وكان تشجيعه لكل العلوم على قدم المساواة ، ومن هنا جاء الازدهار العظيم فى حياة الترجمة فى عصره . على أننا ينبغى أن نقرر أن المأمون لم يبدأ الترجمة ولم يكن أول خليفة أعان على نقل العلوم المختلفة وشجعها ، ولعلنا أشرنا الى ذلك فى أول هذا الفصل ، فقد بدأت الترجمة منذ العصر الأموى ، ويشير بعض الباحثين الى أهمية الدور الذى قام به خالد بن يزيد بن معاوية الذى لقب بالحكيم أو الفيلسوف ، وان كان بعض الدارسين يقللون من أهمية هذا الدور ويكادون ينكرونه . ويقول فى ذلك « ألدو ميبلى » : لم يكن هناك علم عربى حقيقى قبل عصر العباسيين ، بغض النظر عن بعض شـــواذ واستثناءات ، ففى القرن الأول من خلافة العباسيين كان المترجمون من الاغريقية الى السريانية ومن السريانية الى العربية هم الذين يحتلون المرتبة الأولى من النشاط العملى ، ولا سيما أولئك المترجمون الذين كانوا من المسيحيين المنشقين : مثل تيوفيل بن توما الرهاوى الذى كان فلكى الخليفة المهدى وقد ترجم من السريانيـــة كتابا لجالينوس ، ومثل جرجيس بن جبريل بن بختيشوع الذى عمل عند المنصور وهو أقدم ممثل لطبقة من الأطباء الذائعى الشهرة ، ومنهم حفيده جبريل بن بختيشوع ، وأبو يحيى البطريق وابنـــه أبو زكريا يحيى بن البطريق . وقد عدد ميبلى الترجمات التى قام بها هؤلاء المترجمون جميعا . وهناك علماء آخرون من الفرس قاموا بدور مهم فى الترجمة قبل عصر المأمون ، مثل يعقوب بن طارق ،

ومحمد بن ابراهيم الفزارى الذى كان أبوه فلكيا مشهورا وقد كتب منظومة فى الفلك . ويقال انه أول من صنع الاسطرلاب من المسلمين . وهذان العالمان بالذات كانت لهما علاقات علمية بالهند اذ كانا يعرفان قسما من « السندهند » وهو كتاب فلكى مشهور . ونستطيع أن نعد أيضا من المترجمين الفضل بن نوبخت رئيس مكتبة هارون الرشيد . ومن المترجمين من البهلوية الى العربية عبد الله بن المقفع الذى ترجم بعض الكتب فى المنطق والطب ، ولكنه اشتهر على الأخص بترجمة كتاب خداينامة أى سير ملوك العجم كما سماه ، وكذلك كتاب كليلة ودمنة ، وقام ابنه محمد بدور كبير فى نقل الكتب الفلسفية اليونانية .

وهذا النشاط فى حركة الترجمة ونقل العلوم المختلفة لم يساعد عليه الخلفاء العباسيون فحسب ، بل شدت من أزره كثيرا الأسر القوية التى كانت تتنافس بينها فى هذا المضمار ، وأهم هذه الأسر البرامكة ، حتى أن بعض الباحثين يقولون أن الرشيد حاول أن يتشبه بهم فى تشجيع العلوم وترجمتها .

فكأن المأمون اذن قد واصل جهود سابقيه حين دعا المترجمين الى العمل وأظلهم برعايته وأجرى عليهم الأرزاق ، ولكنه أضاف الى ذلك تأسيس بيت الحكمة فى بغداد الذى زوده بمكتبة ومرصد فلكى ، كما أمر فلكييه بعمل الزيجات لحركات الكواكب ، وبقياس درجتين أرضيتين لامكان تقدير حجم الأرض بصورة أدق من ذى قبل كما أمر برسم خريطة جغرافية كبيرة . ومن الراجح جدا أن يكون محمد ابن موسى الخوارزمى العالم الذائع الصيت قد اشترك فى قياس الدرجتين المذكورتين ، كما شارك فى رسم خريطة العالم ، واشترك فى قياس المساحات الأرضية والفلكية خالد بن عبد الملك المروزى ، وسند بن على ، وعلى بن عيسى الاسطرلابى ، ويحيى بن أبى منصور — الذى كان قائما على المرصد الذى أسس بأمر المأمون — وغيرهم . وقد قامت هذه الجماعة من العلماء بعملها فى الشماسية ببغداد ، وجبل قاسيون بدمشق ،

وذلك فى سنة خمس عشرة وست عشرة وسبع عشرة ومائتين .
ومن الذين قاموا بدور هام فى الترجمة أيام المأمون حنين بن اسحق العبادى الطبيب النسطورى الذى كان يتنقل بين بغداد وسورية وفلسطين والاسكندرية ليصيب كل ما وصل اليه العالم القديم من علم بالطب ، وليزداد علما باليونانية . ولحنين بالاضافة الى جهده فيما نقله من المؤلفات الطبية الفضل فى ترجمة كتب المقولات والطبيعيات وعلم الأخلاق لأرسطو ، والجمهورية والقوانين ومحاورة طيماوس لأفلاطون ، وان كانت هذه الكتب لم تترجم كاملة فى جميع الأحوال .

ومن الذين قاموا بجهد فى الترجمة أيضا أيام المأمون يحيى ابن ماسويه الذى كان يشرف على بيت الحكمة فى بغداد ، وكان يؤلف بالسريانية والعربية ، كما كان متمكنا من اليونانية . ويقول « أوليرى » ان كتابه الطبى عن الحميات اشتهر زمنا طويلا ، وترجم فيما بعد الى اللاتينية والعبرية .

ومن الشخصيات العلمية الأخرى فى عصر المأمون ميخائيل ابن ماسويه طبيبه الخاص ، وكان المأمون يكرمه غاية الاكرام — كما يقول القفطى — ويثق بعلمه فلا يشرب دواء الا من تركيبه . وعبد الله بن سهل بن نوبخت منجم المأمون ، وكان قديرا فى صناعته ، وموضعا لثقة المأمون . وكما قام البرامكة بدور مهم فى تشجيع حركة الترجمة أيام الرشيد ، كذلك فعل بنو شاكر المنجم أيام المأمون ، فقد أنفذوا حنين بن اسحق وغيره الى بلاد الروم فجاءوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات . ويقال انهم كانوا يرزقون جماعة من المترجمين منهم حنين بن اسحق وحبيش ابن الحسن ، وثابت بن قرة ، وغيرهم نحو خمسمائة دينار كل شهر . وقد جمع أحمد فريد رفاعى فى كتابه (عصر المأمون) أسماء العلماء والمترجمين فى ذلك العصر ، كما كتب جورجى زيدان فى كتابه (تاريخ التمدن الاسلامى) ثبتا بالكتب التى ترجمت عن اليونانية والفارسية والهندية والنبطية والعبرانية واللاتينية

والقبطية فى الفلسفة والأدب والطب والرياضيات والفلك والأخبار والسير ومختلف فروع المعرفة الانسانية ، فلا حاجة بنـــا الى استقصاء ذلك مرة أخرى . غير أننا نتســـاءل عن طبيعة بيت الحكمة : هل كان مجرد مكتبة يحاول المأمون استحضار الكتب اليها من جهات متفرقة وخاصة من آسيا الصغرى ، أو هو مركز علمى يفد اليه الباحثون وينقطعون فيه الى دراساتهم ، والمترجمون الى ترجماتهم ؟ أغلب الظن أنه كان كذلك بدليل ما يقوله القفطى عن محمد بن موسى الخوارزمى مثلا أنه كان منقطعا الى خزانة كتب الحكمة . وأغلب المصادر التى بين أيدينا تؤكد أن بيت الحكمة قد أنشىء أيام المأمون ، ولكننا نرى أنه أسس فى أيام الرشيد بدليل ما يقوله القفطى عن الفضل بن نوبخت أن الرشيد ولاه القيام بخزانة كتب الحكمة ، وكان ينقل من الفارسى الى العربى ما يجده من كتب الحكمة الفارسية . وكان « دى بور » الباحث الوحيد الذى أيد وجود بيت الحكمة فى عصر الرشيد . ويبدو لى أن بيت الحكمة كان فى عصر الرشيد مجرد خزانة كتب فأضاف اليه المأمون صفته الأخرى كمركز علمى ينقطع اليه الباحثون .

لقد ازدهرت اذن الحركة العلمية ترجمة وتأليفا أيام المأمون ، وفى عهده استهل أبو يوسف يعقوب الكندى فيلسوف العـــرب نشاطه الفكرى . ويقول « بروكلمن » عنه أنه لم يقتصر على تعريف مواطنيه بفلسفة أرسطو وأفلاطون عن طريق الترجمة والاقتباس فحسب ، بل عدا ذلك الى توسيع آفاقهم العقلية بما أخرج من دراسات فى التاريخ الطبيعى وعلم الظواهر الجوية مكتوبة بروح تلك الفلسفة .

ولم يكن نشاط المأمـــون العلمى مقتصرا على شراء الكتب والتشجيع على التأليف والترجمة ، بل كان يسعى الى احضار العلماء الأجانب للاستفادة بعلمهم وخبرتهم . ولعل أصدق ما يدل على ذلك الحاح المأمون فى طلب العالم الهندسى ليون الذى كان قد دفن نفسه فى أحياء القسطنطينية الفقيرة ، وأخذ يعيش عيشا

رقيقا بتعليم الناس ، فاتفق أن كان أحد تلامذته من بين أسرى العرب ، فأظهر فى احدى المناسبات معرفته بالاستدلال الهندسى ، فلما سئل عن معلمه دل عليه ، فأرسل اليه المأمون كتابا يدعــوه للحضور الى بغداد ، فعرض ليون الرسالة على الجهات الرسمية فى بلاده : وعلم الامبراطور بها فمنعه من السفر ، وكانت رسـالة المأمون سببا فى شهرة هذا العالم وتنبه بلاده الى عبقريته ، وظل المأمون يراسله ليسأله عن أمور هندسية وفلكية . ولم يكن المأمون بعيدا عن الاحاطة ببعض المسائل الهندسية فقد كان يقول : لا يعرف الهندسة من لم يقرأ كتاب اقليدس ، وهو من الهندسة بمنزلة حروف ا ب ت ث الكلام والكتابة . ولا يقول مثل هذا الكلام الا من قرأ كتاب اقليدس وعرف مكانته ، والى جانب ثقافة المأمون العامة فى العلوم المختلفة ، كان بارزا فى المسائل الفقهية بروزا واضحا ، وقد أجمع المؤرخون على عناية المأمون بدراسة المسائل المتعلقة بعلم الكلام ، كما أنه تلقى دروسا كثيرة فى الحديث وعلوم القرآن . ويبدو أنه كان مهتما بالدراسة الفقهية ليشبع نهمه فى الجدل والمناظرة . ولكى يشبع ميوله العقلية جمع الى بلاطه من مختلف أنحاء مملكته الفلاسفة والمفكرين والفقهاء ، وكان يجلس للمناظرة فى الفقه يوم الثلاثاء — كما يقول قاضيه يحيى بن أكثم — الذى أعطانا صورة واضحة لمجالس المأمون قال : اذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم انزعوا أخفافكم ، ثم أحضرت الموائد وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء ، ومن خفه ضيق فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها . فاذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا ثم خرجــوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك الى أن تزول الشمس ، ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون .

ومن اعجب ما يروى عن فقه المأمون أن قاضى بغداد بشر ابن الوليد الكندى ضرب رجلا أتهم بأنه شتم أبا بكر وعمر : وأطافه

على جمل ، فلما قدم المأمون أحضر الفقهاء ، فقال : انى قد نظرت فى قضيتك يا بشر فوجدتك قد أخطأت بهذا خمس عشرة خطيئة ، ثم أقبل على الفقهاء فقال : أفيكم من وقف على هذا ؟ قالوا ، وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : يا بشر ، أقمت الحد على هذا الرجل ؟ قال : بشتم أبى بكر وعمر ، قال حضرك خصومه ؟ قال : لا ، قال : فوكلوك ؟ قال : لا ، قال : فللحاكم أن يقيم حد القذف بغير حضور خصم ؟ قال ، لا ، قال : كنت تأمن أن يهب بعض القوم حصته فيبطل الحد ؟ قال : لا ، قال : فأمهما كافرتان أو مسلمتان ؟ قال : بل كافرتان ، قال : فيقام فى الكافرة حد المسلمة ؟ قال : لا ، قال : فهبك فعلت هذا بما يجب لأبى بكر وعمر من الحق : أفيشهد عندك شاهدا عدل ؟ قال : قد زكى أحدهما ، قال : فيقام الحد بغير شاهدين عدلين ؟ قال : لا ، قال : ثم أقمت الحد فى رمضان ، فالحدود تقام فى شهر رمضان ؟ قال : لا ، قال : ثم جلدته وهو قائم ، فالمحدود قيام ؟ قال : لا ، قال : ثم شبحته (١) من العقابين ، فالمحدود يشبح ؟ قال : لا ، قال : ثم جلدته وهو عريان فالمحدود يعرى ؟ قال : لا ، قال : ثم حملته على جمل فأطفته فالمحدود يطاف به ؟ قال : لا ، قال : ثم حبسته بعد أن أقمت عليه الحد ، فالمحدود يحبس بعد الحد ؟ قال : لا . قال : لا يرانى الله أبوء باثمك وأشاركك فى جرمك ، خذوا عنه ثيابه وأحضروا المحدود ليأخذ بحقه منه ، فقال له من حضر من الفقهاء : الحمد لله الذى جعلك عاملا بحقوقه ، عارفا بأحكامه . تقول الحق وتعمل به ، وتأمر بالعدل . وتؤدب من رغب عنه ، أن هذا يا أمير المؤمنين حاكم أحد برأيه فأخطأ ، فلا تفضح به الحكام وتهتك به القضاة ، فأمر به فحبس فى داره حتى مات .

ومما يشير الى تفقه المأمون أيضا أنه كان جالسا للناس فجاءت امرأة فقالت : يا أمير المؤمنين ، مات أخى وخلف ستمائة دينار ،

---

(١) أى فرق بين يديه ورجليه ومده كالمصلوب .

أعطوني دينارا وقالوا هذا نصيبك . فحسب المأمون ثم كسر الفريضة ثم قال لها : هذا نصيبك ، فقال له العلماء الذين كانوا فى مجلسه : كيف علمت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذا الرجل خلف ابنتين ، قالت : نعم ، قال : فلهما الثلثان اربعمـــائة ، وخلف والدة ، فلها السدس مائة ، وخلف زوجة فلها الثمن خمسة وسبعون ، وبالله ألك اثنا عشر أخا قالت : نعم قال : أصابهم ديناران ديناران وأصابك دينار !

أما رواية المأمون للحديث فكانت واسعة وموثوقا بها ، فقد حدث عن هيثم بن بشر عن مجالد عن الشعبى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز) . ومن رواياته أيضا عن هيثم ابن بشر عن ابن شبرمة عن الشعبى عن البراء بن عازب عن أبى بردة بن دينار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من ذبح قبل أن يصلى فانما هو لحم قدمه ، ومن ذبح بعد أن يصلى فقد أصاب السنة) . وقد عنى السيوطى بجمع بعض الأحاديث التى رواها المأمون فى ترجمته لسيرته .

وكان المأمون يثيب رجال الحديث اذا سمع منهم حديثا لأول مرة . من ذلك ما روى عن هدبة بن خالد أنه قال : حدثنى حماد ابن سلمة عن ثابت البنانى عن أنس ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من أكل ما تحت مائدة أمن من الفقر) فأمر له المأمون بألف دينار .

وقد عرف الناس عن المأمون حبه للحديث واثابته لحفاظه فتعرضوا له ، ويروى أن رجلا تقدم اليه فقال : يا أمير المؤمنين صاحب حديث منقطع . فلم يأخذ المأمون عنه حتى امتحنه فى أبواب الحديث فلم يجده يحفظ شيئا ، فنظر الى أصحابه وقال : يطلب أحدهم الحديث ثلاثة أيام ثم يقول : أنا من أصحاب الحديث ، أعطوه ثلاثة دراهم !

وكان المأمون في سعيه لتثقيف نفسه ـ كما رأينا ـ لا يفرق بين علم وآخر ، وكانت غايته من كل علم ليست الوقوف على نهايته فهذا شيء لا يدرك ، وانما التماس ما لا يسع جهله . وهذا ما أقر به المأمون نفسه حين تناظر مع سهل بن هارون في معنى العلم وما ينبغي تحصيله وما لا ينبغي . قال سهل بن هارون : من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا فيه ، وقد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال ، فقال المأمون : قد يسمى بعض الناس الشيء علما وليس بعلم . فان كان هذا أردت فوجهه الذي ذكرت . ولو قلت أيضا : ان العلم لا يدرك غوره ولا يسبر قعره ، ولا تبلغ غايته ، ولا تستقصى أصوله ، ولا تنضبط أجزاؤه صدقت ، فان كان الأمر كذلك فابدأ بالأهم الأهم ، والأوكد الأوكد ، وبالفرض قبل النفل . يكن ذلك عدلا قصدا ، ومذهبا جميلا . وقد قال بعض الحكماء : لست أطلب العلم طمعا في غايته ، والوقوف على نهايته ، ولكن التماس ما لا يسع جهله ، فهذا وجه لما ذكرت . وقال آخرون : علم الملوك النسب والخبر ، وعلم أصحاب الحروب درس كتب الأيام والسير ، وعلم التجار الكتاب والحساب ، فأما أن يسمى الشيء علما وينهى عنه من غير أن يسأل مما هو أنفع منه فلا .

ولهذا خاض المأمون في كل هذه العلوم والمعارف ولم يقتصر على شيء منها بعينه ، حتى الطب كانت له معرفة به ، فقد روى أحد الفقهاء الذين يحضرون مجلسه أنه تغدى عنده يوما فوضع على المائدة أكثر من ثلاثمائة لون من الطعام ، فكلما وضع لون نظر المأمون اليه فقال : هذا يصلح لكذا ، وهذا نافع لكذا ، فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة فليتجنب هـذا ، ومن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا ، ومن غلبت عليه السوداء فليأكل من هذا ، ومن أحب الزيادة في لحمه فليأكل من هذا ، ومن كان قصده قلة الغذاء فليقتصر على هذا ، فوالله ما زالت تلك حاله في كل لون يقدم حتى رفعت الموائد ، فقال له يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين

ان خضنا فى الطب كنت جالينوس فى معرفته ، أو فى النجوم كنت هرمس فى حسابه ، أو فى الفقه كنت على بن أبى طالب فى علمه ، أو ذكر السخاء فأنت فوق حاتم فى جوده ، أو ذكرنا صدق الحديث كنت أبا ذر فى صدق لهجته ، أو الكرم كنت كعب بن أمامة فى ايثاره على نفسه . فرد المأمون قائلا : يا أبا محمد ان الانسان انما فضل على غيره من الهوام بفعله وعقله وتمييزه ، ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم ولا دم أطيب من دم .

وبسبب حب المأمون للعلم والثقافة التى خاض بحورها ومسالكها ، كان يكره الجهل وينفر من الجهلاء . قال يوما لأبى على المعروف بأبى يعلى المنقرى : بلغنى أنك أمى ، وأنك لا تقيم الشعر ، وأنك تلحن فى كلامك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أما اللحن فربما سبقنى لسانى بالشىء منه . وأما الأمية وكسر الشعر فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم أميا وكان لا ينشد الشعر ، قال المأمون : سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتنى عيبا رابعا وهو الجهل ، يا جاهل : ان ذلك فى النبى صلى الله عليه وسلم فضيلة وفى أمثالك نقيصة . وانما منع ذلك النبى صلى الله عليه وسلم لنفى الظنة عنه لا لعيب فى الشعر والكتاب . وقد قال تبارك وتعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون) .

وهكذا فسر المأمون معنى أمية الرسول تفسيرا بديعا يكشف عن تمثله الدقيق لما يقرأ ، واجالته الفكر فى كل ما يعرض له من أمور ، وبكل ذلك استحق أن يدعى الخليفة العالم (١) .

---

(١) يقول أبو معشر المنجم فى ذلك : كان المأمون أمارا بالعدل ، فقيه النفس ، يعد من كبار العلماء (تاريخ الخلفاء : ٢٠٤)

الفصل السادس

في سبيل العقيدة

يظن بعض المستشرقين أن المأمون لم يكن متدينا ، وأنه كان ضعيف العقيدة فاســـدها ، ومن هؤلاء المستشرقين فون كريمر ولامبرتو كاسترو ، وأوليرى • ويذهب كريمر الى هذه الفكرة لأن المأمون في رأيه لم يقتف أثر أبيه في اتخاذ الأساليب العدائية ضد المانوية بدليل مارواه صاحب الأغاني من ارسال المأمون لرئيس المانوية في الري واسمه يزدان بخت يدعوه للحضور لمناظرة العلماء المسلمين . فغلب يزدان بخت في المناظرة ودعاه المأمون للدخول في الاسلام فأبى ، ومع ذلك شمله المأمون برعايته التامة • ومثل هذه الحادثة لا تعني قط مروق المأمون عن الدين الصحيح ، وانما ينبغي أن تفسر تفسيرا وحيدا ، وهو أن المأمون كان مؤمنا بحرية العقيدة الى أقصى حد ، الا للمرتد ، فقد كان يأخذه بأقصى الشدة وأقسى أنواع العقوبة • ثم يلمح كريمر بعد ذلك الى علاقة المأمون بالفرس، ويدعي أنه لم يكن متعصبا للاسلام ، بل ان التيار في عهده كان في غير مصلحة الاسلام بسبب هذه العلاقة • وهذا افتراض غريب لا يصح حدوثه • فاذا كان هناك صراع بين العرب والفرس في عهد المأمون ــ وهو ما أشرنا اليه من قبل ــ فليس معناه قط أن العرب يعني المسلمين ، فميل المأمون الى الفرس يكون معناه وقوفه ضد مصلحة الاسلام •

أما كاسترو فيدعي أن المأمون لم يكن يسير على النهج الاسلامي

القديم ويقصد به السنة ، وقد نتجاوز عن ذلك التعبير ، على الرغم من خطورته ، ولكننا لا نستطيع أن نتجاوز عن قوله انه كان يظهر جنوحا نحو تعاليم أصحاب البدع · فالمأمون لم يكن مبتدعا حتى في موضوع خلق القرآن كما سوف نرى ·

وأما أوليرى فهو يقول ان المأمون كان يتذوق نقاش المسائل الدينية بحرية عظيمة ، مما يوحى بأنه يريد القول ان المأمون كان لا يتحرج كثيرا فى المســـائل الدينية · والذى دعا مثل هؤلاء الباحثين الى التشكك فى عقيدة المأمون فهمهم الخاطىء للتسمية التى أطلقها أحد أفراد حاشية المأمون عليه ـ وهو يحيى بن عامر ابن اسماعيل ـ اذ قال له : يا أمير الكافرين ، فأمر به المأمون فقتل بين يديه · ولم يكن يحيى بن عامر يقصد اتهام المأمون بالكفر ، وانما كان يعنى انقياده لأعداء العرب من الفرس المجوس أو ذوى الأصل المجوسى ، وذلك فى أثناء وجوده بمرو · وقد سبق أن وجه اليه هذه التهمة نفسها نعيم بن حازم حين قال له :

قدمت هذه المجوس على أوليائك وأنصارك ·

أما عقيدة المأمون فلا ينبغى أن تكون موضع شك بسبب ميله الى حرية التفكير والعقيدة ، فقد كان ايمانه لا يتزعزع ، وكان قائما بجميع الفرائض الدينية على أتم وجه ، وكان شديدا فى معاملة الفساق ، أو ممن يشتم منهم خروجا على الدين · ولعلنا نؤكد ذلك بما رواه الطبرى عن غناء علويه أمام المأمون حين كان بدمشق بهذين البيتين :

برئت من الاســـلام ان كان ذا الـــذى
أتاك به الواشـــون عنى كمـــا قالوا
ولكنهم لمـــــا رأوك سريعـــــة
الى تواصـــوا بالنميمـــة واحتـــالوا

فقال المأمون : ياعلوية لمن هذا الشعر ؟ فقال : للقاضى ، قال : أى قاض ويحك ؟ قال : قاضى دمشق ، فقال : يا أبا اسحق اعزله ، قال : قد عزلته ، قال : فليحضر الساعة · قال : فأحضر شـــيخ

مخضوب قصير ، فقال له المأمون : من تكون ؟ قال : فلان بن فلان الفلانى ، قال : تقول الشعر ؟ قال : قد كنت أقوله · فقال : يا علويه أنشده الشعر فأنشده ، فقال : هذا الشعر لك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ونساؤه طوالق وكل ما يملك فى سبيل الله ان كان قال الشعر منذ ثلاثين سنة ، الا فى زهد أو معاتبة صديق · فقال : يا أبا اسحق اعزله ، فما كنت أولى رقاب المسلمين من يبدأ فى هزله بالبراءة من الاسلام ، ثم قال : اسقوه ، فأتى بقدح فيه شراب ، فأخذه وهو يرتعد فقال : يا أمير المؤمنين ماذقته قط · قال : فلعلك تريد غيره ، قال : لم أذق منه شيئا قط ، قال : فحرام هو ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : أولى لك بها ، نجوت فاخرج · ثم قال : يا علويه لاتقل برئت من الاسلام ، ولكن قل :

(حرمت مناي منك ان كان ذا الذي)

ومثل هذه الغيرة على الدين لا يمكن أن تصدر عن فاسد العقيدة أو منحرف ، بل نرى المأمون بالرغم من شربه النبيذ الذى اختلف فى شربه الفقهاء – لا الخمر – والذى أجازه أبو حنيفة يحرمه على قاضيه وصفيه يحيى بن أكثم ، فكان يحيى اذا دخل عليه وهو يشرب فلا يسقيه ، ويقول : لا أترك قاضى يشرب النبيذ ·

وكان المأمون حريصا على قيامه بدور الامام لا الخليفة فحسب، وتلك حقيقة غابت عن أذهان كثير من الباحثين ، فنجد « أوليرى » يقول ان الاسلام لم يقم الخليفة معلما دينيا ، ويقول أحمد أمين ان المأمون خلط بين منصب الخليفة ومنصب المعلم فأراد أن يكون خليفة ومعلما معا ·

وهذا الخلط بين طبيعة المعلم ومنصب الخلافة لم يكن قاصرا على المأمون وحده – وان كان قد بدا فى عهده بصورة صارخة بسبب محاولته فرض نظرية اهتدى اليها المعتزلة – ولكنه كان موجودا فى الخلفاء العباسيين جميعا · وقد تنبه الى حقيقة هذا التغير الذى طرأ على منصب الخليفة بعد سقوط الأمويين « جولدزيهر » اذ قال ان العباسيين لم يقبلوا أن يكونوا ملوكا فقط ، بل أرادوا أولا أن

يحسبوا أنهم أئمة ، وأن تفهم حكومتهم على أنها حكومة دينية . ويرى « جولدزيهر » أن ذلك التحول كان نتيجة للتأثر بالأفكار الفارسية، لأن المثل الأعلى للحكومة الفارسية كان تآخي الدين والدولة . وقد سبق أن لاحظنا أن مديح الخلفاء العباسيين كان يؤكد حقيقة امامتهم الدينية . ولهذا نرى المأمون يحرص على أداء واجب الامام ، فكان يؤم الناس فى أيام الجمع وفى الأعياد ، كما نستقى من سيرته ، وقد روى لنا ابن قتيبة بعض نصوص خطبه الدينية ، فمن ذلك خطبته في يوم جمعة ، التى ينبىء كل حرف فيها عن صدق ايمانه وعظيم يقينه ، يقول فيها : « الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجبه على خلقه ، أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه . وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمــــدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وحده والعمل لما عنده ، والتنجز لوعده ، والخوف لوعيده ، فانه لا يسلم الا من اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه ، فاتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ، وترحلوا فقد جد بكم ، واستعدوا للموت فقد أظلكم ، وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا ، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، فان الله لم يخلقكم عبثا ، ولم يترككم سدى ، ومابين أحدكم وبين الجنة والنار الا الموت أن ينزل بـــه » .

وفى خطبة يوم الأضــــحى بعد التكبير الأول يقول المأمون : « أن يومكم هذا يوم أبان الله فضـــله ، وأوجب تشريفه ، وعظم حرمته ، ووفق له من خلقه صفوته ، وابتلى فيه خليله ، وفدى فيه من الذبح نبيه ، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر ، ومتقدم الأيام المعدودات من النفر ، يوم حرام من أيام عظام في شهر حرام، يوم الحج الأكبر ، يوم دعا الله الى مشهده ، ونزل القرآن بتعظيمه ، قال الله جل وعز (وأذن فى الناس بالحج) الآيات ، فتقربوا الى الله في هذا اليوم بذبائحكم ، وعظموا شـــعائر الله واجعلوها من طيب

أموالكم وبصحة التقوى من قلوبكم فانه يقول (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) ٠

ومن خطب المأمون الدينية التى حفظها لنا ابن قتيبة أيضـــا خطبته يوم الفطر بعد التكبير الأول التى يقول فيها : « ان يومكم هذا يوم عيد وسنة ، وابتهال ورغبة ، يوم ختم الله به صيام شهر رمضان ، وافتتح به حج بيته الحرام ، فجعله خاتمة الشهر وأول أيام شهور الحج ، وجعله معقبا لمفروض صيامكم ، وتنفل قيامكم ، أحل فيه الطعام لكم ، وحرم فيه الصيام عليكم ، فاطلبوا الى الله حوائجكم ، واستغفروه لتفريطكم ، فانه يقال لاكبير مع استغفار ، ولاصغير مع اصرار ٠٠ ثم قال : ولست أنهاكم عن الدنيـــا بأعظم مما نهتكم الدنيا عن نفسها ، فانه كل مالا ينهى عنها ، وكل ما فيها يدعو الى غيرها ، وأعظم مما رأته أعينكم من عجائبها ذم كتاب الله ونهى الله عنها فانه يقول (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) وقال (انما الحياة الدنيـــا لعب ولهو) الآية ، فانتفعوا بمعرفتكم بها ، وبأخبار الله عنها ، واعلموا أن قوما من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذروا مصارعها وجانبوا خدائعهـــا ، وآثروا طاعة الله فيها فأدركوا الجنة بما تركوا منها » ٠

وواضح من هذه الخطب الدينية جميعا روح الايمان التى تشع من قلب المأمون ، وتعففه عن الدنيا ، وامتثاله لفروض الدين وتجنبه لنواهيه ، ومعرفته الدقيقة بآيات الله وأحاديث الرسول ، حتى لقد قيل : لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء الا عثمان بن عفان والمأمون ٠ أما علمه بالحديث فقد أجمع عليه الرواة ولم يختلفوا فيه ، وقد قدمنا صورة لهذا العلم فى الفصل السابق ٠ وبهذا الايمان القوى ، وفى سبيل العقيدة أقبل المأمون على علم الكلام ، ويقول فى ذلك « ولتر باتون » : « وقد هيأت له (للمأمون) همته فى التحصيل لما كان طالبا مكانة ممتازة بين المتفقهين بعلوم الدين ، ولكن ذهنا متقدا كذهنه ، قوى الميل الى قدر من العلم أوسع مدى مما تهيئه له حدود السنة الاسلامية سرعان ما أبدى شغفه بالفلسفة التى كان الناس

قد بدأوا العناية بها في عهد العباسيين .. ومع ذلك فاننا لاننظر الى المأمون على أنه رجل ليس الورع والتقوى من طبيعته ، أو أنه اشتد ولعه بالمسائل الدينية ليشبع نهمه فى الجدل والمناظرة ، فقد قيل عنه انه ختم فى رمضان ثلاثا وثلاثين ختمة ، كما أنه كان ينفح شيوخ الحديث بالمال سدا لحاجتهم » .

وقد استخدم المأمون دراسته لعلم الكلام فى الدفاع عن الدين، فكان يعقد المجالس الدينية المختلفة ويستقدم اليها أصحاب البدع والأهواء ليحاول اقناعهم بالحجة والبرهان ، وكان يحاول أيضا التوفيق بين المذاهب الاسلامية المختلفة فى عصره ، وقد روى فى ذلك يحيى بن أكثم قال : أمرنى المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم ، وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض فى فنون الحديث والعلم ، فلما انقضى ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين ، قال المأمون : يا أبا محمد كره هذا المجلس الذى جعلناه للنظر طوائف من النـــاس بتعديل أهوائهم وتزكية آرائهم، فطائفة عابوا علينا ما نقول فى تفضيل على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وظنوا أنه لا يجوز تفضيل على الا بانتقاص غيره من السلف ، والله ما أستحل أن أنتقص الحجاج فكيف السلف الطيب . وان الرجل ليأتين بالقطعة من العود أو بالخشبة أو بالشىء الذى لعل قيمته لا تكون الا درهما أو نحوه فيقول : ان هذا كان للنبى صلى الله عليه وسلم ، أو قد وضع يده عليه ، أو شرب فيه ، أو مسه، وما هو عندى بثقة ، ولا دليل على صدق الرجل ، الا أنى بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ، ثم أضعه على وجهى وعينى وأتبرك بالنظر اليه وبمسه ، فأستشفى به عند المرض يصيبنى أو يصيب من أهتم به ، فأصونه كصيانتى نفسى، وانما هو عود لم يفعل شيئا ، ولا فضيلة له تستوجب به المحبة الا ما ذكر من مس رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، فكيف لا أرعى حق أصحابه ، وحرمة من قد صحبه وبذل ماله ودمه دونه ، وصبر

معه أيام الشدة وأوقات العسرة • وهذا النص يطلعنا على مسائل فى غاية الأهمية ، منها عقد المأمون للمجالس الدينية منذ قدومه الى بغداد ، وجمعه الفقهاء لمناقشتهم فى أمور الدين ، ثم هذه النفحة الجميلة من الايمان التى تدعوه الى التبرك بما مسه الرسول والتداوى به على الرغم من حسن استدلاله العقلى وعدم ثقته بمن دله على هذا الأثر النبوى • ثم هو يحدد علاقته بالعلويين على أساس محبته لعلى، لصحبته للرسول ودفاعه عن الدين ، وأن موقفه ازاء الصحابة يماثل هذا الموقف ، بل ان خلقه يأبى عليه التنقص من أحـــد ولو كان الحجاج بن يوسف بكل بطشه وجبروته وطغيـــانه • ويظهر أن المأمون لم يكن حتى ذلك الوقت الذى يتحدث فيه يحيى بن أكثم قد تأثر بتعاليم المعتزلة تأثرا خطيرا ، بدليل تنكبه فيما بعد عن المبدأ الذى وضعه لنفسه ، حتى انه أمر بلعن معاوية على المنابر لما سبق أن أشرنا •

وبسبب رغبة المأمون فى الدفـــاع عن الدين باستخدام أساليب علم الكلام نراه يجادل المرتدين عن الاسلام جدلا عقليـا قبل أن ينفذ فيهم حكم الشرع ، فقد حمل اليه رجل مرتد ، فقال له: لأن أستحييك بحق واجب أحب الىَّ من أن أقتلك بحق ، ولأن أدفع عنك بالتهمة وقد كنت مسلما بعد أن كنت نصرانيـا ، وكنت فى الاسلام أفيح مكانا وأطول أياما فاستوحشت مما كنت به آنسا ، ثم لم تلبث أن رجعت عنا نافرا ، فخبرنا عن الشىء الذى أوحشك من الشىء الذى صار آنس لك من ذلك القديم وأنسك الأول ، فان وجدت عندنا دواء دائك تعالجت به ، اذ كان المريض يحتاج الى مشاورة الأطباء ، فان أخطأك الشفاء ، ونبا عن دائك الدواء ، وكنت قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة ، فان قتلناك بحكم الشريعة ترجع أنت فى نفسك الى الاستبعاد والثقة ، وتعلم أنك لم تقصر فى اجتهاد ، ولم تدع الأخذ بالحزم • فقال المرتد : أوحشنى ما رأيت من كثرة الاختلاف فى دينكم • قال المأمون : فان لنا اختـلافين : أحدهما كالاختلاف فى الأذان وتكبير الجنائز والاختلاف فى التشهد

وصلاة الأعياد وتكبير التشريق ووجوه القراءات واختلاف وجوه الفتيا وما أشبه ذلك ، وليس هذا باختلاف انما هو تخير وتوسعة وتخفيف من المحنة ، فمن أذن مثنى وأقام فرادى لم يؤثم من أذن مثنى وأقام مثنى ، لايتعايرون ولايتعايبون • أنت ترى ذلك عيانا وتشهد عليه بيانا •

والاختلاف الآخر كنحو الاختلاف فى تأويل الآية من كتابنا وتأويل الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم مع اجماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر ، فان كان الذى أوحشك هذا حتى أنكرت كتابنا فقد ينبغى أن يكون اللفظ بجميع مافى التوراة والانجليل متفقا على تأويله كالاتفاق على تنزيله ، ولا يكون بين الملقين من اليهود والنصارى اختلاف فى شىء من التأويلات ، وينبغى لك ألا ترجع الا الى لغة لا اختلاف فى ألفاظها ، ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا تحتاج الى تفسير لفعل ، ولكنا لم نر شيئا من الدين والدنيا دفع الينا على الكفاية ، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة ، وذهبت المسابقة والمنافسة، ولم يكن تفاضل ، وليس على هذا بنى الله جل وعز الدنيا • فقال المرتد : أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن المسيح عبد الله ورسوله ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق ، وأنك أمير المؤمنين حقا • فانحرف المأمون نحو القبلة فخر ساجدا ، ثم أقبل على أصحابه فقال : وفروا عليه عرضه ، ولا تبروه فى يومه ريثما يعتقد اسلامه ، كى لا يقول عدوه انه يسلم رغبة ، ولا تنسوا نصيبكم من بره ونصرته وتأنيسه والفائدة عليه •

وهذه المناقشة تطلعنا على قوة الحجاج عند المأمون وقدرته الكلامية ، وفهمه لدقائق الدين فرائضه وسننه ، واتساع صدره للمناقشة أصلا انما كان فى سبيل الله ، فقد كسب مؤمنا عن عقيدة بدلا من أن يخسر مرتدا جاهلا • وهذه المناقشة انما تقع على عاتق المعلم فى شخصية المأمون أو الامام ولا تقع على عاتق الخليفة ، وهذا

يؤكد ماسبق أن ذكرناه وهو أن المأمون كان يقوم بالواجبين معا ، تأدية لمفهوم الخلافة العباسية أصلا .

ومن مناظرات المأمون مع الثنوية ما ذكره الرواة أن المأمون قال لثنوى يناظر عنده : أسألك عن حرفين خبرنى : هل ندم مسىء قط على اساءته ؟ قال : بلى ، قال : فالندم على الاساءة اساءة أو احسان ؟ قال : بل احسان . قال : فالذى ندم هو الذى أساء أو غيره ؟ قال : بل هو الذى أساء . قال : فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر ، وقد بطل قولكم ان الذى ينظر نظر الوعيـــد هو الذى ينظر نظر الرحمة ، قال : فانى أزعم أن الذى أساء غير الذى ندم ، قال : فندم على شىء كان من غيره أو على شىء كان منه ؟ فأســـكته وكما أفحم المأمون هذا الثنوى كذلك أفحم رجلا من الخوارج أدخل عليه فقال له : ما حملك على خلافنا ؟ قال : آية فى كتاب الله تعالى ، قال : وماهى ؟ قال : قوله (ومن لم يحـــكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) فقال له المأمون : ألك علم بأنها منزلة ؟ قال : نعم ، قال : وما دليلك ؟ قال : اجماع الأمة ، قال : فكما رضيت باجماعهم فى التنزيل ، فارض باجماعهم فى التأويل . قال : صدقت .

وهكذا كان المأمون فى كل مناقشاته قوى الحجة ساطع البرهان، قادرا على اقناع خصمه ، وكان يقارع الرأى بالرأى ولا يستغل سلطانه كخليفة فى الظهور على من يناظره ، بل لقد وضع المأمون أساسا للمناقشة وآدابها ، فقد ذكر بشر المريسى أنه حضر مجلسا كان فيه المأمون وثمامة ومحمد بن أبى العبـــاسى وعلى بن الهيثم فتناظروا فى التشيع فنصر محمد بن أبى العباس الامامية ونصر على بن الهيثم الزيدية ، وجرى الكلام بينهما الى أن قال محمد لعلى: يانبطى ما أنت والكلام ؟ قال فقال المأمون وكان متكئـــا فجلس : الشتم عى ، والبذاء لؤم ، انا قد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات ، فمن قال بالحق حمدناه ، ومن جهل ذلك وقفناه ، ومن جهل الأمرين حكمنا فيه بما يجب . فاجعلا بينكما أصولا فان الكلام فروع ، فاذا افترعتم شيئا رجعتم الى الأصول .

ولم يكن المأمون أول خليفة عباسى يقبل على علم الكلام ، فقد أمر المهدى الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ، ولكن الرشيد منع الجدل فى الدين ، وكان شديدا على أهل علم الكلام حتى انه اتهم ثمامة بن أشرس بالزندقة وألقى به فى السجن ٠

وقد اختلف الباحثون حول حقيقة اتصال المأمون بمذهب المعتزلة وكيفية بداية هذا الاتصال ٠ كما اختلفوا حول أهمية الدور الذى قام به ثمامة بن أشرس وأحمد بن أبى دؤاد لحمل المأمون على متابعة آراء المعتزلة الدينية ٠ والذى لاشـــك فيه أن شخصية المأمون ـ كما أوضحنا معالمها ـ كان لها أكبر الأثر فى اتصاله القوى بمذهب المعتزلة ، اذ كان بطبيعته رحب العقل واسع الصدر حر الفكر مقبلا على العلوم والثقافة بأنواعها المختلفة ، راغبا فى الدراسات الفقهية والدينية بصفة عامة ٠ فلما قرب اليه علماء الكلام والفقهاء وأهل الحديث ومن اليهم لمناظرتهم ، اصطدم بالتفكير الســـلفى الجامد الذى لا يعرف المرونة فى التفكير ، والذى كان منعزلا عن التيارات المذهبية والفلسفية والكلامية المحيطة به ٠ كما يقول « أوليرى » بحق ٠ ووجد المأمون نفسه ميالا بطبعه الى المتكلمين من أصحاب النظر الحر الذين لا يهمهم قول السلف بقدر مايهمهم قبول العقل لما ينظرون فيه ٠ وهكذا انجذب المأمون الى المعتزلة ، واتخذ بطانته وصحابته من أتباع ذلك المذهب ٠

ويقول الدكتور طه الحاجرى ان هناك سببا آخر لاتصـــال المأمون بالمعتزلة وهو أن هذا المذهب أخذ يشق طريقه منذ نشأته فى هدوء واطراد ، ثم استطاع أن ينفذ الى البيئات المترفة عن طريق ذلك الترف العقلى الذى كانت تصطنعه والذى كان يحملها على الاحاطة أو الالمام بالآثار العقلية ، كالذى نراه عند جعفر بن يحيى البرمكى من اقباله على آثار أرسطو ، وكالذى نراه عند أخيه الفضل بن يحيى من ايثاره بعض المعتزلة كأبى سهل بشر بن المعتمر ، وذلك بالرغم مما نعرف عن البرامكة من نزعة شيعية ٠ ونستطيع أن نضيف الى

ذلك أيضا سببا آخر هو نقمة المأمون على السياسيين من أمثـــال الفضل بن سهل ، واحساسه بمكاره السياسة وبلائها ، ولهذا أقبل على أصدقائه العقليين اقبالا خاصا ، فاتخذ منهم بطانته وأهل مشورته ، وأقبل على هذه الحياة العقلية (فأبـــاح الكلام وأظهر المقالات) كما يقول الطبرى وشجع على المناظرة ، وجعل مجالسه مجالس بحث ونظر وحوار بين المذاهب المختلفة ، وأقبل على هذه المتعة العقلية يحيط بها نفسه ويملأ بها حسه ، ولم يكن هنالك من يستطيع أن يعمر هذا المكان خيرا من المعتزلة ، ولذلك اصطفاهم وأدناهم ·

ويبدو أن ثمامة بن أشرس قد وثق صلته بالمأمون منذ كان فى مرو ، وأنس المأمون اليه ووثق بعلمه ، بل يقول البغـــدادى ان المأمون تلقى على يدى ثمامة مبادىء الاعتزال فكأنه كان يقف منه موقف التلميذ من أستاذه · ولم يكن المأمون أول خليفة يقرب اليه معتزليا ، فقد كان عمرو بن عبيد صديقا لأبى جعفر المنصور ، وكان أبو جعفر يدنيه اليه ويطلب موعظته · ولكن مكانة ثمامة من المأمون كانت أوثق من ذلك بكثير ، فقد كان ينزل منه فوق منزلة الوزراء · وقد روى المؤرخون أن المأمون عرض الوزارة على ثمامة بعد موت الفضل بن سهل فأباها ، ولكنه أشار على المأمون بتعيين أحمـــد ابن أبى خالد الأحول ، ثم رشح بعده يحيى بن أكثم ، وهو الذى أغرى المأمون باعلان البراءة من معاوية وممن ذكره بخير · وكانت هذه خطوة لتحول المأمون نهائيا الى مذهب المعتزلة ·

ولم يكن ثمامة يتورع ــ فى سبيل حمل المأمون على الدخول فى الاعتزال ــ عن اتهامه بالعامية ، ليثبت أن الاعتزال هو مذهب المثقفين · ولم يكن قرار المأمون باعلان البراءة من معاوية سهلا على نفسه ، فهو يخالف مبادىء المأمون التى أشرنا اليها من قبل ، والتى تدعو الى عدم النيل من أحد حتى ولو كان الحجاج · ولكن جمهور المعتزلة يعلنون البراءة من معاوية من قديم ، وقد تعرض المأمون لضغط شديد من ثمامة وضغط معاكس من يحيى بن أكثم الذى

كان يمثل المحدثين فى بلاط الخليفة · وقد رأى المحدثون فى هذه المسألة مادة يقاومون بها نفوذ المعتزلة ، ويحاولون اثارة سخط العامة عليهم ، وقد وضح ذلك فى محـــاولة يحيى بن أكثم منع المأمون من اعلان قراره بلعن معاوية بتخويفه من ثورة العامة · ولكن المأمون استجاب أخيرا لرأى ثمامة بن أشرس ممثل المعتزلة الذى مالبث أن اندفع فى خصومته للمحدثين ومن ورائهم العامة ، فدفع المأمون ـ فى السنة التالية لاعلانه البراءة من معاوية ـ الى القول بخلق القرآن ·

وواضح مما يقوله المؤرخون أن فكرة خلق القرآن كانت تراود ذهن المأمون منذ وقت بعيد ، وأنه كان يناقشها فى مجالســـه الخاصة ، ثم أعلن رأيه للناس بتفضيلها فى عام ٢١٢ هـ ، ولكنه لم يضطرهم الى القول بها ، بسبب تعاظم نفوذ المحـــدثين وخوفه منهم ، وظل على ذلك ست سنوات ، كانت الظروف خلالها قد تغيرت ، وخاصة بعد عزل يحيى بن أكثم ـ ممثل المحدثين فى بلاط الخليفة ـ عام ٢١٧ هـ وتولى أحمد بن أبى دواد مكانه ، وهو من أقطاب المعتزلة الذين اتصلوا بالمأمون منذ قدومه الى بغداد ، وعند ذلك اضطر المأمون الناس الى القول بخلق القرآن ·

وعلاقة أحمد بن أبى دؤاد بالمأمون ترجع فى أصلها الى يحيى ابن أكثم ، فقد كان ابن أبى دؤاد يحضر مع الفقهاء مجلس يحيى ، وفى يوم جاءه رسول المأمون فقال له : يقول لك أمير المؤمنين انتقل الينا وجميع من معك من أصحابك ، فلما حضروا مجلس المأمون أعجب بحديث ابن أبى دؤاد وطلب اليه أن يحضر كل مجالسه · وربما كان ابن أبى دؤاد بين أهل العلم الذين اختارهم يحيى بن أكثم للمأمون عند دخوله الى بغداد سنة ٢٠٤ هـ · وبلغ من اعجاب المأمون به أن أوصى أخاه المعتصم فقال : « وأبو عبد الله بن أبى دؤاد لايفارقك ، أشركه فى المشورة فى كل أمرك فانه موضع ذلك » ·

وفكرة خلق القرآن ترجع الى بداية القرن الثانى للهجرة حين نادى بها الجعد بن درهم مؤدب الخليفة الأموى مروان الثانى ، فلم

يلبث أن قتله خالد بن عبد الله القشرى بأمر الخليفة هشـــام ابن عبد الملك . وتوارث هذه الفكرة : حتى أيام هارون الرشيد ، اذ آمن المعتزلة بأن القرآن مخلوق ، ولكنهم لم يعلنوا ذلك صراحة . وقد كان الرشيد غير مستعد لمجرد سماع هذه الفكرة بدليل قوله : بلغنى أن بشرا المريسى يقول : القرآن مخلوق ، والله على ان أظفرنى الله به لأقتلنه قتلة ما قتلتها أحدا . فلما علم بشر بذلك ظل متواريا أيام الرشيد نحوا من عشرين سنة .

ومما أثار الناس أيضا ما كان لكلمة مخلوق من دلالة خاصة ابان القرنين الثانى والثالث الهجريين ، ومما يؤيد ذلك ما أورده الراغب الأصفهانى عرضا فى محاضراته أن الخليل بن أحمد كان يمنع وصف الكلام بالمخلوق ، ويقول ان الكلام متى وصـــف بالخلق فالقصد به الكذب ، ولذا يقال كلام خلقه فلان أى تقوله ، ولهذا نرى بعض الفقهاء الذين سئلوا فى القرآن ابان المحنة قالوا نصفه بأنه محدث ولا نقول انه مخلوق لقوله تعالى (ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث) وقد اختلف الباحثون فى أصل مسألة خلق القرآن ، فقيل ان الجعد ابن درهم أخذها عن أبان بن سمعان ، وأخذها أبـــان عن طالوت ابن أعصم اليهودى ، فهى اذن من أصل يهودى ، وقد أخذ جهم ابن صفوان عن الجعد هذه الفكرة ، وانتقلت الى المعتزلة ، فكان أول من قال بها أيام الرشيد بشر المريسى ، وهو من أصل يهودى أيضا، كان أبوه يهوديا صباغا بالكوفة ، ويروى ابن الأثير أن أول من نشر هذه الفكرة بين المسلمين لبيد بن الأعصم الذى كان يقول بخلق التوراة ثم أخذها عنه ابن أخيه طالوت . ويقول ابن قتيبة فى عيون الأخبار ان أول من قال بها المغيرة بن سعيد العجلى ، وهو من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودى . وكأن هذه الروايات تجمع على أصل الفكرة اليهودى ، ولكننا نجد باحثا مثل « دى بور » يقول ان القول بقدم القرآن متابعة لمذهب المسيحيين فى الكلمة

وأيا كان الأمر فقد اعتقد المأمون بصحة هذه الفكرة ، وذهب بعيدا فى الانتصار لها ، لأنها فى رأيه متصلة بالتوحيد ، فانكارها

انكار له ، بل هو يقول فى أول رسالة له « لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق » • ونراه يبعث الى عامله على بغـــداد اسحق ابن ابراهيم الخزاعى ـ وهو ابن عم طاهر بن الحسين ـ كتابا يطالبه فيه بامتحان القضاة والمحدثين فى موضوع خلق القرآن ، اذ يرى من واجبه تصحيح عقائد الناس الفاسدة الذين يرون أن القرآن قديم ، ويرى المأمون أن يعدل الناس عن هذا الرأى وخاصة القضاة، بل ان القاضى لا يوثق بقضائه ، والشاهد لا توثق بشهادته الا اذا اعتقدا بقدم القرآن • يقول فى هذا الكتـــاب : « وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشـــوة الرعية وسفلة العامة ممن لانظر له ولا روية ولا استضـــــاءة بنور العلم وبرهانه ، أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته » ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، وذلك أنهم ساووا بين الله وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه الله ويخترعه ، وقد قال تعالى (انا جعلناه قرآنا عربيا) فكل ما جعله الله فقد خلقه كما قال الله تعالى (وجعل الظلمات والنور) وقال (نقص عليك من أنباء ما قد سبق) فأخبر أنه قص لأمور أحدثه بعدها ، وقال (أحكمت آياته ثم فصلت) والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه» •

وقد كتب المأمون هذا الكتاب فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ قبل أن يخرج للمرة الأخيرة لغزو الروم وقبل وفاته بنحو أربعـة شهور • وقد أرسلت صورة من هذا الكتاب الى جميع الولايات فى الدولة • ثم كتب المأمون كتابا ثانيا الى اسحق يأمره فيه بأن يشخص اليه سبعة من وجوه المحدثين ببغداد حتى يتولى امتحانهم بنفسه • ويقول « باتون » ان هذه الحركة من جانبه تدل على حذقه وبراعته اذا نظرنا اليها من وجهة الهدف الذى كان يسعى اليه ، اذ يدخل فى روعهم وهم أمام أعوانه ورجال بلاطه وجلاديه ما قد يجره غضبه من نقمة وأهوال ، واذا ظفر الخليفة بانقياد هؤلاء الزعماء ومتابعتهم

لرأيه ، لم يكن هناك ما يخشاه ممن كان من المحدثين والفقهاء أقل شأنا وأدنى منزلة •

أما هؤلاء الفقهاء السبعة الذين امتحنوا فى خلق القرآن فهم : محمد بن سعد كاتب الواقدى ، أبو مسلم مستملى يزيد بن هارون، يحيى بن معين ، زهير بن حرب ، أبو خيثمة ، اسماعيل بن داود ، اسماعيل بن أبى مسعود ، أحمد بن ابراهيم الدورقى • ويقال ان اسم أحمد بن حنبل كان مدرجا بين أسماء هؤلاء السبعة ، ولكن أحمد بن أبى دواد أمر بمحوه • ولعله أدرك أنه سوف يفسد اجابة الآخرين بتشدده • وقد أجاب هؤلاء السبعة المأمون الى ما طلبه من الاقرار بخلق القرآن ، بفضل ما استخدمه معهم من وسائل الضغط؛ اذ يقول أحدهم وهو يحيى بن معين : أجبنا خوفا من السيف ثم أرسلهم المأمون الى عامله ببغداد ليشهر أمرهم ، وليجيبوا بما أجابوا به الخليفة فى حضرة الفقهاء وأهل الحديث •

وقد أساء موقف هؤلاء السبعة الى أهل السنة جميعا ، وكان ابن حنبل يرى أنهم لو ثبتوا وتوقفوا عن اجابة المأمون لا نقطع أمر المحنة ، ولما سمع بها أحد فى بغداد ، ولكف المأمون عن مخاشنتهم ، ولهاب ايذاءهم ، لأنهم أقطاب المدينة وأعلامها • ولكنهم لما ضعفوا لم يتردد الخليفة فى امتحان غيرهم ، فأحضر وجوه الفقهاء والمحدثين ، وقد عد لنـــا منهم الطبرى ستة وعشرين ، وقرأ عليهم اسحق ابن ابراهيم كتاب الخليفة مرتين حتى يفهموه ، ثم بدأ امتحانهم واحدا بعد واحد ، وكتب مقالة كل منهم وبعث بها الى المأمون • وواضح من كلام الطبرى أن بعض هؤلاء الفقهاء قد أقروا بخلق القرآن • ولم يلبث أن جاءه كتاب الخليفة الرابع بعد تسعة أيام فقط ، وفيه يفضح العلماء الذين امتنعوا عن اجابته الى ما طلب ، ويأمر اسحق بن ابراهيم بضرب عنق كل مخالف ، لأنه فى رأيه يرتكب (الكفـر الصراح والشرك المحصن) ، فهو يصف الذيال ابن الهيثم بأنه كان يسرق الطعام فى الأنبار ، وأحمـــد بن يزيد المعروف بأبى العوام بأنه صبى فى عقله ولا يحســن الجواب فى

القرآن ، والفضل بن غانم بأنه يســـتغل نفوذه فى الاثراء غير المشروع ، وهكذا يصف كل عالم فيصمه وصمة خطيرة ، ولكنه لم يجد شيئا يقوله عن أحمد بن حنبل الا بأنه استدل بانكاره على جهله •

وأحدث هذا التشهير غايته حين قرىء كتاب المأمون على العلماء ، فأقروا جميعا بخلق القرآن ماعدا أحمد بن حنبل ، وســجادة ، والقواريرى ، ومحمد بن نوح المضروب • ولهذا قيدهم اســحق بالأغلال ووضعهم في السجن ، ثم أحضرهم أمامه فى اليوم التالى فأجاب سجادة فأطلق سراحه ، وأحضروا مرة أخرى أمام اسحق ليعاود امتحانهم فأجاب القواريرى ، ولم يثبت على اعتقاده الا أحمد ابن حنبل ومحمد بن نوح ، فحملا بأمر الخليفة من بغداد ليصيرا اليه ، فلما وصلا الى أذنة وافاهما نعى المأمون •

ذلك هو موقف المأمون من مشكلة خلق القرآن ، كما يتضح لنا من كتبه التى أرسلها فى آخر حياته الى عامله على بغداد ، وهى تعتبر وثيقة تشرح آراء المعتزلة فى هذه القضية مؤيدة بالآيات والشواهد والأدلة العقلية والنقلية • ويرى أحد الباحثين أن هذه الكتب من انشاء أحمد بن أبى دواد ، ويرجح ذلك على أساس أن المأمون كان مريضا ، وأنه يتسامى على ما يحتويه الكتاب الرابع الذى يطعن فى الفقهاء والمحدثين ويذكر معايبهم رجلا رجلا • ونحن لا نستبعد ذلك، بل نميل الى تأييده ، ولكن ليس معنى هذا أن المأمون لم يطلع على هذه الكتب ويقرها ، بل نرى أنها جاءت موافقة لهواه • فقد كان مؤمنا بفكرته الى أقصى حد ، حتى ان العمار الحنبلى يقول فى كتابه « شذرات الذهب » ان المأمون قام فى هذه البدعة قيام متعبد بها ، وكان يرى أنه بحمل الناس على الايمان بهذه الفكرة انما يتقرب الى الله • وظل على ايمانه الى آخر حياته فأوصى أخاه بمواصلة جهوده فى حمل الفقهاء والعلماء على الاقرار بخلق القرآن • ولهذا نلتمس العذر للمأمون لتشدده فى فرض رأى المعتزلة على الناس أجمعين ، اذ وقر فى نفسه بتأثير المعتزلة الذين أحاطوا به أن عـــدم الاقرار

بخلق القرآن معناه رفض التوحيد ، مما يستوجب أقصى العقوبة ٠ وبهذا شاب حكمه الذى امتاز بحرية الفكر والعقيدة سنوات طويلة بتهمة التعصب المقيت التى رماه بها كثير من البـــاحثين من عرب ومستشرقين : وفى ذلك يقول « ول ويورانت » : لقد أساء المأمون الى نفسه فى السنين الأخيرة من حياته لاضطهاده أصحاب السنة ٠ ويقول « الدو ميبلى » : لقد أقام المأمون تفتيشا حقيقيا لمطاردة أهل السنة ، وذلك باسم التفكير الحر ٠ ويقول جمال الدين القاسمى : موضع الغرابة من كتاب المأمون هو حمل الناس على غير ما يعتقدون، واكراههم على أمر لم تمض به سنة ولم يجدوا فيه برهانا من أنفسهم، مع أن الاكراه على أصل الأصول ومابه العصمة والنجاة وهو الدين الخالص قد أباه الشرع ونهى عنه فى غير ما موضع من التنزيل الكريم لآية (لا اكراه فى الدين) و « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ٠

وحقيقة الخلاف حول قضية خلق القرآن يجمعها الأستاذ أحمد أمين فيقول ان المعتزلة والمأمون كان رأيهم العلمى حقا وصحيحا ، ولكن خصومهم كانوا على حق فى ألا تنار هذه المسألة أمام العامة ٠ وقد أخطأ المعتزلة والحكومة خطأين : الأول ارادتهم اشراك العامة فى هذه المسائل ، والعامة أبعد الناس عن ذلك ٠ وكيف يفهمون علم الكلام وهو علم دقيق تاهت فيه عقول الخاصة ٠ والثانى حملهم الحكومة أن تتدخل بسلطانها فى هذه المسألة فكأنهم أرادوا أن يجعلوا مجالسهم للجدل والمناظرة مجمعا كمجامع القساوسة يقررون فيه ما يشاءون ، ثم يرغمون الناس على القول بما يقررون ٠ وقد غلوا غلوا شنيعا فى أنهم عدوا السكوت عن القول بخلق القرآن اشراكا ٠ وأشد ما يدعو الى الغرابة أن يكون المعتزلة مصدر هذا التعذيب وهم الداعون الى حرية الفكر والقائلين بسلطان العقل ٠ وكان انتصار المعتزلة من ناحية الجدل والاستدلال فى مناظرة أهل السنة واضحا كل الوضوح لاعتمادهم على طريقة البحث الاستدلالية الجدلية ،

أما أهل السنة فلم يكونوا يعارضونهم الا بأقوال فقهائهم الذين كانوا يحاولون ابعاد الدين عن الجدل الفلسفي ، وكانوا يجيبون في كل مسألة تثار بالرجوع الى أصل من الحديث عن صحابة الرسول . وواضح من المناقشات التي دارت بين اسحق بن ابراهيم وبين علماء السنة ضعفهم في المجادلة والاستدلال وعدم الدخول في جوهر المشكلة ، والتهرب من ايجاد براهين عقلية . وحين وقف أحمد بن حنبل يجيب عما وجه اليه من أسئلة كان يقتصر على الاقتباس من القرآن والحديث دون أن يستنتج من هذه الاقتباسات أية نتائج ، وكان يسكت حين يسأله المحققون عما اذا كان موافقا على أية نتيجة يفهمونها هم من اقتباساته .

وربما يرجع هذا الى طبيعة فقه ابن حنبل الذي يعتمد على الكتاب والسنة الثابتة . وكان اهتمام ابن حنبل بالحديث ورواته وتدوينه أشد من اهتمامه بالفقه والفتاوى ، حتى عده بعض العلماء من المحدثين ولم يعده من الفقهاء .

ويقول الأستاذ محمد كرد علي في موقف ابن حنبل : ابن حنبل وأنصاره لم يدافعوا دفاعا عقليا ولا نقليا عن رأيهم ، ومن أمثلة ذلك أن الواحد منهم كان يقول : ان القرآن مجعول لقوله تعالى (انا جعلناه قرآنا عربيا) فاذا سئل : هل المجعول مخلوق ؟ أجاب : نعم ، فاذا قيل له : فالقرآن اذن مخلوق ، رفض أن يجيب بالايجاب . وقد جاء مذهب الأشعري فيما بعد ليسد النقص في أسلحة أهل السنة بازاء فرق المتكلمين حتى يمكننا اعتبار الأشعري مؤسس علم الكلام السني في الاسلام ، أو صاحب مذهب التوفيق بين أهل السنة والمعتزلة .

لقد قضى المأمون حياته مدافعا عن العقيدة ، وفي سبيلها وفي سبيل حرية الرأي التي كان يتعشقها انزلق الى محنة خلق القرآن التي بدأها فاستمرت بعد وفاته ست عشرة سنة ، اذ أمر المتوكل سنة ٢٣٤ هـ بترك النظر والجدال في هذه القضية وترك ما عليه الناس بالتسليم ، وأمر المحدثين باظهار السنة .

وهكذا اجتهد المأمون فى اقامة دين الله فلم يهتد الى الطريق الصحيح فى فترة من حياته لم يجد بعدها فرصة لاصلاح خطئه ، اذ عاجلته المنون وهو يجاهد الروم بالسلاح ، ويجاهد أهل السنة لا بالعقل وحده ـ كما كان ينتظر منه ـ ولكن بسيف السلطان أيضا ، بينما كان يحس في قرارة نفسه أنه انما يفعل ذلك كله فى سبيل العقيدة وفي سبيل الله •

الفصل السابع
صورة الحاكم والإنسان

« كان معاوية بعمره ، وعبد الملك بحجاجه ، وأنا بنفسي » . جملة قالها المأمون وكان يعني كل حرف فيها ، وهو يذكر معاوية ابن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان بوصفهما أعظم خلفاء بني أمية من ناحية استقرار الخلافة وازدهارها ، فاذا كان معاوية قد استعان في تأسيس دولة بني أمية بدهاء عمرو بن العاص وبراعته السياسية، واذا كان عبد الملك قد استعان بالحجاج بن يوسف الثقفي في قمع الفتن وردع العصاة بالعنف الدموي ، فالمأمون لم يكن بجانبه الشخص القوي الداهية الذي يستعين به في أمور الدولة لكف العصاة واخماد الفتن والنفاذ من مسالك السياسة ودروبها الضيقة . وأغلب الظن أن المأمون قال هذه العبارة بعد انقضاء أمر الفضل بن سهل، وتوجهه الى بغداد وحيدا يجابه المشكلات دون أن يقف الى جانبه من يشد أزره ويخفف عنه عبء المسئوليات والمصاعب التي تقابله . وقد رأينا كيف كانت سياسة المأمون بالنسبة للوزراء بعد مقتل الفضل بن سهل ، فهو لم يشأ أن يجعلهم وزراء يتحملون مسئوليات الدولة السياسية والادارية ، وانما كانوا بالنسبة اليه مجرد كتاب يملي عليهم أوامره فينفذون مشيئته . وواضح من سيرته معهم أنه لم يكن يدعهم يبرمون أمرا الا باذنه ، حتى مظالم الناس وشكاياتهم كان يسمعها بنفسه ويمضي فيها رأيه .

وهكذا تغيرت صورة الوزير في عهده تغيرا كبيرا عما عهدناه في وزراء الخلفاء العباسيين السابقين الذين كانوا يتصرفون في أمور الدولة تصرفا واسعا ، بلغ غايته بالنسبة للبرامكة في عهد الرشيد

حتى أصبح لايعى من أمر الدولة الا ما يخبره به وزير .. وكان المأمون كذلك بالنسبة للفضل بن سهل ، ولكنه أحس أنه كان مخطئا فى حق نفسه ودولته ، حتى أوشك الأمر أن يخرج من يده بسبب تسلط الفضل عليه . واعتبر بما كان من البرامكة فى عهد أبيه الرشيد ، فقرر أن يصرف شئون حكمه بنفسه .

وليس عجيبا أن يكون الوزراء الذين عملوا مع المأمون كتابا فى أول أمرهم ، فقد كان بحاجة الى كتاب ، كما أن الكتابة ارتبطت بالوزارة منذ عهد بعيد . وليس عجيبا أيضا أن يكون هؤلاء الوزراء الكتاب جميعا من الموالى ، فاننا نجد الموالى يحتلون ديوان الخراج منذ انشائه وهو الكفيل بموارد الدولة ومصادرها ودخلها وخرجها، فكان أجنبيا فى صورته ورجاله عند انشائه ، كان فارسيا فى العراق وخراسان وما اليهما ، فكان يتولاه فى العراق مثل زادان فروخ منذ أيام معاوية ، وكان يتولاه فى خراسان اسطفانوس ، أما فى الشام ومصر فكان ديوان الخراج روميا ، فتولاه زمن معاوية الى عهد عبد الملك بن مروان سرجون بن منصور الرومى ، وفى مصر كان ايناس بن خماية .

وكان لأصحاب هذه الدواوين سلطان كبير فى الدولة بسبب هذا المكان الذى يحتلونه منها ، والحاجة التى يستشعرونها من الدولة الى خدماتهم . ولما اتجهت الدولة أيام عبد الملك بن مروان الى تحويل الديوان الى العربية تحول فى صورته فقط ، أما رجاله من الموالى فظلوا فى مكانهم ، فاللغة العربية لم تكن تنقصهم .

وأما ديوان الرسائل فقد نشأ عربى الصورة بطبيعة الحال لأنه يتولى أمر المكاتبات الرسمية الصادرة من الخلافة ، ولكن رجاله جميعا كانوا من الموالى . ولعل السبب فى هذا يرجع الى قلة تجربة العرب فيما يتصل بتدبير الدولة وممارسة السياسة ، ولكن هناك سبب آخر وهو أن العرب كانوا ينظرون الى أمثال هذه الوظائف الكتابية نظرة غير كريمة باعتبارهم عنصرا فاتحا يمتاز بالقوة والفروسية ، وله حق السيادة والامتياز .

وهكذا نرى أن الموالى انفردوا بديوان الخراج وديوان الرسائل جميعا ، وبلغوا بذلك فى تدبير شئون الدولة منزلة فوق منزلة المشاركة ، ولاسيما منذ تعاظمت خطورة هذا الديوان ، فعلا تبعا لذلك شأنهم فى الدولة ، كما تعاظمت منزلتهم الاجتماعية منذ أوائل القرن الثانى • واستطاع الكتاب بمالهم من ثقافة خاصة أن يفرضوا لأنفسهم مكانا من الدولة ، فاذا بهم منذ أوائل الدولة العباسية يحتلون منزلة لا مطمع من ورائها ، وذلك حين أطلق على أحدهم وهو أبو سلمة الخلال لقب الوزير ، ثم اذا بأمور الدولة كلها موكولة اليهم ، فلم يقنعوا أن يكونوا كتاب رسائل فحسب ، وانما مدوا أبصارهم الى الآفاق البعيدة ليهيمنوا على سياسة الدولة ويفرضوا أنفسهم على الخلفاء • فليس بدعا اذن أن يكون كتاب المأمون ووزراؤه جميعا من الموالى ، ولكنهم جميعا ـ أو معظمهم على الأقل ـ كانوا من الكتاب البارزين والبلغاء المشهود بكفايتهم • وهذا الجانب هو الذى كان يحتاجه المأمون منهم •

ولاشك أن المأمون كان ذا مقدرة عظيمة فى اختيار الأشخاص الأكفاء الذين يعملون معه ، وكان بارعا فى اخفاء معايبهم أو مداواتها فى سبيل الاستفادة من كفايتهم فى نواح كثيرة • ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك موقفه من أحمد بن أبى خالد الأحول ، فقد كان ذا كفاية ادارية عظيمة ، ولكن كانت به نقيصة الشره الى الطعام ، وكان المأمون يعرف ذلك عنه • وجه به يوما الى رجل يطالبه بمال وأرسل وراءه عينا له لينظر ما يقوله للرجل ومايرد عليه ويعلمه ما يصنع عنده • فلما ذهب ابن أبى خالد الى الرجل ـ وكان يعرف شرهه ـ أعد له غذاء فخمـــا فأتى على ما فيه من حار وبارد وحلو وحامض ، ومن ضمنه عشرون فروجا لم يدع منها الا عظما عاريا ، وازاء هذه الأكلة خفض مقدار ما يستحقه المأمون قبل هذا الرجل ألف ألف درهم •

وكان المأمون يقول ان أحمد بن أبى خالد •• فيه جنسية من الكلاب ، فالكلب يحرس المنزل بالكسرة واللقمة ، وأحمد بن أبى خالد

يقتل المظلوم ويعين الظالم بأكلة ! ولهذا أجرى عليه ألف درهم في كل يوم لمائدته لئلا يشره الى طعام أحد . وكانت رقابة المأمون له كفيلة بمنع شره بالاضافة الى ما قدم له من بره . ومما يدل على استئثار المأمون بالنظر في كل أمور الدولة ، ما يحكيه ابن طغور عنه اذ قال لأحمد بن أبي خالد : اغد على باكرا لآخذ القصص التي عندك فانها قد كثرت لنقطع أمور أصحابها فقد طال صبرهم على انتظارها. فبكر وقعد له المأمون فجعل يعرضها عليه ويوقع عليها الى أن مر بقصة رجل يقال له فلان اليزيدى فصحف وقال الثريدى ، فضحك المأمون وقال : ياغلام ثريدة ضخمة لأبي العباس فانه أصبح جائعا.. فلما أكلها وغسل يده رجع الى القصص فمرت به قصة فلان الحمصى فقال : فلان الخبيصى ، فضحك المأمون وقال : يا غلام جاما ضخما فيه خبيص فان غداء أبي العباس كان مقبورا ، فلما أكله عاد الى القصص فما أسقط حرفا حتى أتى على آخرها .

ولاشك أن هذه القصة تطلعنا على تواضع المأمون الشديد وتلطفه في معاملة كتابه ، لا مع ابن أبي خالد فحسب ، بل مع كل الذين عملوا معه ، فقد روى ابراهيم بن الحسن ابن سهل قال : كنا في مجلس المأمون وعمرو بن مسعدة يقرأ عليه الرقاع ، فجاءته عطسة فلوى عنقه فردها ، فرآه المأمون فقال : يا عمرو لا تفعل فان رد العطسة وتحويل الوجه بها يورثان انقطاعا في العنق . فقال بعض ولد المهدى : ما أحسنها من مولى لعبده وامام لرعيته ، فقال المأمون: وما في ذلك ، هذا هشام اضطربت عمامته فأهوى الأبرش الكلبى الى اصلاحها ، فقال هشام : انا لا نتخذ الاخوان خولا ، (١) فالذى قال هشام أحسن مما قلته .

ولم يكن من عادة المأمون ـ بطبيعته السمحة التى نعرفها ـ أن ينكب وزراءه كما فعل أسلافه ، وأقسى ما صدر منه في حق واحد منهم ، ما فعله بأحمد بن يوسف بتأثير مؤامرة مدبرة من المعتصم ،

---

(١) الخول : العبيد .

اذ وضع تحته البخور فأضر به . ويقول في ذلك الأستاذ محمد كرد علي : « كادت المصادرات والنكبات تبطل في أيامه ، فلا ينكب الا من حاول نقض بنيان الدولة ، ولقد رفع اليه أن عمرو بن مسعدة خلف ثمانين ألف ألف درهم أو نحو ثمانية ملايين دينار فوقع على الرقعة .. هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا ، فبارك الله لولده فيه » .

واذا قارنا هذا بحالات الاستصفاء التي تمت قبل المأمون وبعده وجدنا الفارق كبيرا ، وأدركنا أن المأمون لم يكن يزعجه قط شراء واحد من عماله ، لأن مراقبته الشديدة له كفيلة بأن تجعل ثراءه مشروعا ، وليس على حساب أبناء الشعب .

ومن أجل هذا كان المأمون يوسع على عماله حتى لا يسرقوا أموال الرعايا ، وقد رأينا كيف خصص نفقة يومية ليكف شره أحمد ابن أبى خالد ، كما رفع عمالة الفضل بن سهل فجعلها ثلاثة آلاف ألف درهم كل عام حين عقد له على الشرق كله . وكان المأمون رقيقا مع عماله والمخالفين له من الناس جميعا ، على الرغم من أنه أنشأ جهازا قويا للمخابرات فى أنحاء مملكته يأتيه بأخبار عماله ورعيته حتى ان النويرى يذكر فى نهاية الأرب أنه كان للمأمون ألف عجوز وسبعمائة يتفقد بهن أحوال الناس ومن يحبه ويبغضه ومن يفسد حرم المسلمين . وكان لا يجلس فى دار الخلافة حتى تأتيه مخابراته بحصيلة من الأنباء ، بل كان هو نفسه يدور ليلا ونهارا مستترا حتى يتعرف على آراء الناس فى كل ما يعرض لهم من شئون حياتهم . وبالاضافة الى هذا كله كان أصحاب الأخبار منبثين فى كل مكان من ولايات الدولة ، ومهمتهم الرسمية الكتابة الى المأمون بالأخبار المهمة التى تمس سياسة الدولة الخارجية والداخلية . وكان المأمون يلجأ أحيانا الى أناس عاديين يحصل منهم على أخبار العامة ، وفى ذلك يقول ابن طيفور على سبيل المثال : كان المأمون يستطرف محمد ابن الخليل ويدعوه أحيانا فيقول له : ما تقول العامة وما يتحدث به الناس ؟ فيخبره بذلك .

ويروى لنا ابن طيفور أيضا قصة واحد من رجال مخابرات

المأمون أو هو رئيس هذا الجهاز واسمه ابراهيم بن السندى ، وكان يتولى الخبر فى منطقة بغداد كلها ، لا يفعل ذلك بنفسه وانما يبث أصحاب الأخبار فى كل جزء من المنطقة التى يشرف عليها • رفع الى ابراهيم هذا أن صاحب الحرس فى بغداد أخذ امرأة مع رجل نصرانى من تجار الكرخ فهجم عليهما ، فافتدى النصرانى نفسه بألف دينار • فأبلغ المأمون بذلك الخبر فاستدعى عبد الله بن طاهر وواجهه بما وصل اليه فقال : يا أمير المؤمنين رفع اليك الباطل والزور ، وجعل يغريه بابراهيم بن السندى ويحمله عليه ، فأثر ذلك فى قلبه ، فقال لابراهيم : ترفع الى الكذب وتحملنى على عمالى ، فأجاب ابراهيم: لو كانت الأخبار لاتصح الا بشاهدى عدل ماصح خبر ولا لقيت به، ولكن مجىء الأخبار ان لم يحضرها أقوام على غير تواطؤ ولا تشاعر من كانوا ومن حيث كانوا ، وانما يحضر الأخبـــار الطفل والمرأة والمحتال والذمر وابن السبيل • واقتنع المأمون بهذا الرد ، ولكنه قال : انى آمر وأدارى عمالى وعمالهم مداراة الخائف ، والله ما أجد الى حملهم على المحجة البيضاء سبيلا ، فاعمل لى على حسب ما ترانى أعمل • وهكذا يتابع المأمون عماله فى أدق أمورهم ، ولكنه لا يقسو عليهم ولا يعنو ، وكل ما كان يتمناه أن يوجههم الى الطريق الصحيح لخدمة الناس ومراقبة الله فى كل ما يعملون • وكان يؤمن بأن ظلم العمال هو سبب كل فتنة تحدث فى ملكه فهو يقول : ما انفتق على فتق الا وجدت سببه جور العمال • ولهذا كان يحرص على تتبع أخبارهم ويحاول أن يمحو آثار سوء سيرتهم ، فحينما ثار أهل صعيد مصر عربها وقبطها وأخرجوا العمال وخالفوا الطاعة بسبب سوء سيرة العمال فيهم ، ذهب المأمون بنفسه الى مصر ــ كما سبق أن أشرنا ــ وسخط على عامله عيسى بن منصور وقال له : لم يكن هذا الحدث العظيم الا من فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتونى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد •

ومع اهتمام المأمون البالغ باستقصاء أخبار العمال ، لم يكن سريع التصديق لكل ما يصله من أخبار ، بل كان يدقق فيهـــا

ويرفض منها ما يشتبه عليه • ولهذا نرى أنه كف السعايات والوشايات فى عهده فلم يكن لها أدنى تأثير عليه • وقد ذكر البيهقى فى المحاسن والمساوىء أن صاحب بريد همذان كتب الى المأمون بخراسان يعلمه أن كاتب البريد المعزول أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطآ على اخراج مائتى ألف درهم من بيت المـــــال واقتسماها بينهما ، فوقع المأمون : « انا نرى قبول السعاية شرا من السعاية ، فان السعاية دلالة والقبول اجازة ، وليس من دل على شىء كمن قبله وأجازه ، فأنف الساعى عنك ، فلئن كان فى سعايته صادقا ، لقد كان فى صدقه لئيما اذ لم يحفظ الحرية ولم يستر على أخيه » • وهذا لاشك موقف عظيم لحاكم يعرف مسئوليات الحكم ويأنف أن يجور على أحد بسبب وشاية قد تكون كاذبة ، وهو يضاف الى موقفه السابق من رفضه مصادرة ثروة عمرو بن مسعدة باعتبارها شيئا طبيعيا وليست منهوبة من أموال الشعب ، ولهذا نجد عمال المأمون يتفانون فى خدمته ويربطهم به ولاء حقيقى ، ليس ولاء مداراة أو تخوف ، يقول ابن طيفور فى ذلك ان أحد اخوة المأمون أبلغه أن عبد الله بن طاهر يميل الى العلويين فدفع المأمون ذلك وأنكره ، ولكنه رأى أن يتحقق بنفسه من صدق هذا الخبر ، فدس رجلا قال له امض فى هيئة الغزاة أو النساك الى مصر فادع جماعة من كبرائها الى القاسم بن ابراهيم بن طباطبا ، واذكر مناقبه وعلمه وفضائله ، ثم صر بعد ذلك الى بعض بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم ائته فادعه ورغبه فى استجابته له ، وابحث عن دقيق منبته بحثـــا شافيا ، واثتنى بما تسمع منه ، ففعل الرجل ما أمره به المأمون حتى اذا دعا عبد الله بن طاهر الى ابن طباطبا قال له : أتنصفنى ؟ قال : نعم قال : هل يجب شكر الله على العباد ؟ قال : نعم ، قال : فهل يجب شكر بعضهم لبعض عند الاحسان والمنة والتفضل ؟ قال : نعم • قال : فتجىء الى وأنا فى هذه الحال التى ترى لى : خاتم فى المشرق جائز وفى المغرب كذلك ، وفيما بينهما أمرى مطاع وقولى مقبول ، ثم ما ألتفت يمينى ولا شمالى ، وورائى وقدامى الا رأيت نعمة لرجل

أنعمها علي ، ومنة ختم بها رقبتي ، ويدا لائمة بيضاء ابتدأني بها تفضلا وكرما ، فتدعونى الى الكفر بهذه النعمة وهذا الاحسان وتقول: انحدر بمن كان أولا لهذا وآخرا ..

ويقول الأستاذ محمـــد كرد علي في ذلك الولاء الذى يربط المأمون بعماله ، بل يربطه بشعبه كله : كان في المأمون شيء من الجاذبية الفطرية يستميل بها القلوب ويجمعها على حبه ، ذلك أنه كان يعرف أمزجة أمته فيشغلها فى المفيد ، ولا لغو ولا لهو فى حياته، فكان بادارته مثال الجد فى الخوالف من بنى العبـاس ، يفكر فى أمر رعيته أكثر من تفكيره فى أمور نفسه ، كتب الى عامله على دمشق فى التقدم الى عماله فى حسن السيرة وتخفيف المئونة وكف الأذى. وكان يعدل الخراج اذا شكا منه أهله .. وأصاب أهل مكة سيل جارف مات تحته خلق كثير ، فكتب والى الحرمين الى المأمون يذكر له الحـــال ، فوجه اليه المأمون بالأموال الكثيرة وكتب الى الوالى (أما بعد فقد وصلت شـــكيتك لأهل حرم الله الى أمير المؤمنين ، فبكاهم بقلب رحمته ، وأنجدهم بسيب نعمته ، وهو متبع ما أسلف اليهم بما يخلفه عليهم عاجلا وآجلا ، ان أذن الله فى تثبيت عزمه على صحة نيته) . وكان له فى كل بلد حوادث من الاحسان قلما يتسامى اليها أحد من الخلفاء ، وكانت نفقته كل يوم ستة آلاف دينار يصرف أكثرها على الرعية ولا يناله منها الا جزء طفيف .

وقد اشتهر المأمون بكرمه الواسع الفياض ، وكأن سماحة يده وسماحة نفسه تنبعان من مصدر واحد ، وكان يقول : « سادة الناس فى الدنيا الأسخياء » . وكل من اتصل به لهج بكرمه ، حتى قالوا عنه انه أجود من السحاب الحافل والريح العاصف . ولا أدل على ذلك مما يروى عنه حين كان بالشام وقد ضاق به الحال لنقص الأموال فى يده ، فما لبث حتى جاءه مال كثير ، فأبى أن يغادر مكانه حتى فرق هذا المال كله . وروى أحد عمال المأمون أنه قدم عليه ومعه سبعة آلاف ألف درهم فعرضها على المأمون وقال : هذا المال فضل معى عن النفقة ، فقال له المأمون : خذه فهو لك ، قال : لا والله يا أمير

المؤمنين لا أقبله ، فقال : خذ منه خمسة آلاف الف ، فامتنع عن ذلك ، فأمره أن يأخذ أربعة آلاف ألف ، وقال : لا أشفعك فى امتناعك عن ذلك • فأخذها الرجل وفرق المال على ولد المأمون وأمهات أولاده وحشمه ، فارتجع المأمون المال وقال : انما دفعنـــاه اليك لتنتفع به ليس لتنفعنا به •

ومن أجل الرعية وفى سبيل الشعب كان المأمون حريصا على قراءة كل الشكاوى والمظالم التى تصل اليه ، يحققها بنفسه ويشير فى كل منها بالرأى الذى ينصف المظلوم من الظالم • ونراه ينصح يحيى بن خالد ويقول : يا يحيى اغتنم قضاء حوائج الناس فان الفلك أدور والدهر أجور من أن يترك لأحد حالا أو يبقى لأحد نعمة•

وكان المأمون يعمل بهذه الحكمة طوال حياته ، فكان يجلس للمظالم كل يوم أحد من الصباح حتى الظهر ، وذلك منذ قدم الى بغداد • ويذكر ابن طيفور ـ ولعله أصدق ـ أنه كان يجلس للمظالم مرتين فى كل جمعة لا يمتنع منه أحد • وهو يصف لنـــا مجلس المأمون البسيط المتواضع فيقول انه كان يقعد فى صدر نهاره على لبود فى الشتاء ، وعلى حصر فى الصيف ليس معهما شىء من سائر الفرش • ونحن لا نستغرب هذا من المأمون الذى كثيرا ما كان يقول: ما أقبح اللجاجة بالسلطان • وكان لا يأذن فى تقبيل يده ويقول لرجل أراد ذلك : قبلة اليد من المسلم ذلة ومن الذمى خديعة ولاحاجة بك أن تذل ، ولابنا أن نخدع • والذى يقول أيضا : غلبة الحجة أحب الى من غلبة القدرة ، لأن غلبة القدرة تزول بزوالها ، وغلبة الحجة لايزيلها شىء وحين كان يجلس المأمون للمظالم تقدمت اليه امرأة تشكو ابنه العباس ، فطلب الى وزيره أحمد بن أبى خالد أن يأخذ بيد العباس ويجلسه مع المرأة مجلس الخصوم ، ثم جعل كلامها يعلو كلام العباس ، فقال لها أحمد بن أبى خالد : يا أمة الله انك بين يدى أمير المؤمنين ، وانك تكلمين الأمير ، فاخفضى من صوتك ، فقـــال المأمون : دعها يا أحمد فان الحق أنطقها والباطل أخرسه ، ثم قضى لها بحقها وأمر لها بنفقة •

ولم يكن المأمون ينصف المسلمين فحسب ، بل كان يحس مسئوليته تجاه الناس جميعا ، أيا كان اعتقادهم · ومما يدل على ذلك ما روى عنه حين قعد للمظالم يوما فقدم سلم صاحب الحوائج بضعة عشر رجلا فنظر فى مظالمهم ، وأمر فقضى حوائجهم ، وكان فيهم نصرانى من أهل تشكر ، كان قد صاح بالمأمون غير مرة وقعد له فى طريقه ، فلما بصر به المأمون أثبته معرفة ، فقال : ابطحوه ، فضربه عشرين درة ، ثم قال مسلم : قل له تعود تصيح بى ؟ فقال له سلم وهو مبطوح ، فقال النصرانى قل له : أعود وأعود وأعود حتى ينظر فى حاجتى ، فأبلغه سلم ما قال ، فقال المأمون : هذا مظلوم موطن نفسه على القتل أو قضاء حاجته ، ثم قال لسلم : اقض حاجة هذا كائنا ما كانت الساعة ·

وفعل المأمون مثل ذلك مع رجل فارسى صاح به فى الطريق قائلا ان أحمد بن هشام ـ وهو من بطانة المأمون ظلمنى واعتدى على ، فعنف المأمون أحمد بن هشام وأمره بانصاف الرجل واعطائه ما أنفق فى طريقه الى المأمون ، وقال له : « والله لو ظلمت العباس ابنى كنت أقل نكيرا عليك من أن تظلم ضعيفا لا يجدنى فى كل وقت » ·

ومن توقيعات المأمون التى توضح نواحى عظمته فى اقرار الحق والعدل فوق كل اعتبار قوله : « من علامات الشريف أن يظلم من فوقه ويظلمه من دونه » · وقوله : « لا أدنيك ولك ببابى خصم » · وقوله : «يا عمرو اعمر نعمتك بالعدل فان الجور يهدمها»، وقوله : « ليس بين الباطل والحق قرابة » · وقوله : « لاتغتر بموضعك من امامك فانك وأخس عبيده فى الحق سيان » ومن رفق المأمون برعيته أن أصحاب الأخبار وجدوا فى طرقات بغداد رقاعا فيها شتم للسلطان وكلام قبيح ، فكتب رئيسهم ابراهيم بن السندى يقول للمأمون : « انا أصبنا يا أمير المؤمنين رقاعا فيها كلام السفهاء والسفلة ، وفيها تهديد ووعيد ، وبعضها عندنا محفوظة الى أن يأمر أمير المؤمنين فيها بأمره » ، فكتب المأمون يقول : « هذا أمر ان أكبرناه كثر غمنا به ، واتسع علينا خرقه ، فمر أصحاب

أخبارك متى وجدوا من هذه الرقاع رقعة أن يمزقوها قبل أ نينظروا فيها ، فانهم اذا فعلوا ذلك لم ير لها أثر ولا عين » •

ومما ينم عن هذا الرفق بالرعية والتجاوز عن الأخطاء التى تصدر عن العامة بسبب عدم الاهتداء الى وجه الحقيقة ، ماروى عن رجل من الزهاد مر فى زورق ، فلما نظر الى بناء المأمون وأبوابه صاح : واعمراه ! فسمعه المأمون فدعا به ، فقال : ما قلت ؟ قال : رأيت بناء الأكاسرة ، فقلت ما سمعت • قال المأمون : أرأيت لو تحولت من هذه المدينة الى ايوان كسرى بالمدائن ، هل كان لك أن تعيب نزولى هناك ؟ قال : لا ، قال : فأراك انما عبت اسرافى فى النفقة ؟ قال : نعم ، قال : فلو وهبت هذا البناء لرجل ، أكنت تعيب ذلك ؟ قال : لا ، قال : فلو بنى هذا الرجل بما كنت أهب له بناء ، أكنت تصيح به كما صحت بى ؟ قال : لا ، قال : فأراك انما قصدتنى لخاصة فى نفسى ، لا لعلة هى فى غيرى ، ثم قال له: هذا البناء ضرب من مكايدنا نبنيه ونتخذ الجيوش ، ونعد السلاح والكراع ، وما بنا الى أكثره حاجة ، فلا تعودن الى فتمسك عقوبتى، فان الحفيظة ربما صرفت ذا الرأى الى هداه •

وهكذا ناقش المأمون هذا المنتقد له مناقشة عقلية سليمة ، وكشف له عن خطأ ما ذهب اليه وأبان وجه الحاجة فى اتخاذ قصور للخلفاء والحكام • وكان المأمون يعنى ما يقول ، فهو يريد أن يظهر دائما لأعدائه بمظهر البذخ والقوة ، أما فى نفسه فكان متواضعا زاهدا • وقد روى ابن أبى دواد أن ملك الروم أهدى الى المأمون هدية فيها مائتا رطل مسك ، ومائتا جلد سمور ، فقال : أضعفوها له ليعلم عز الاسلام •

واذا كان المأمون لا يقدم على اعتداء ، أو يسبق الى ظلم ، بناء على الأخبار التى كانت ترد اليه ، فقد كان يسعى فى اصلاح الولاة والعمال ، ورفع الظلم عن المظلومين ، واصلاح حال الناس اذا جاءه من الأخبار ما يستدعى ذلك ، وقد رفع اليه بعد قدومه الى بغداد بقليل أن التجار فى شهر رمضان يعتدون على ضعفاء الناس فى

الكيل ، فأمر بقفيز سعته ثمانية مكاكيك ، وجعل فى وسطه عمودا وسمى الملجم ، وأمر التجار أن يغيروا مكاكيكهم عليه ، ففعلوا ذلك ورضى الناس .

وما أصدق قول المسعودى فيه : « انه كريم المقدرة ، ميمون النقيبة ، حسن التدبير ، جليل الصنائع ، لاتخـــدعه الأمانى ، ولا تجوز عليه الخدائع ، علمـــه بما بعد عنه من ملكه كعلمـــه بما حضره » .

ولاشك أن اهتمام المأمون بالأحوال الداخلية التى تمس شعبة بصورة مباشرة يدل على حسن سيرته ومقدار ما كان يبذل من نفسه فى خدمة عامة الشعب ، لايرجو بذلك سلطانا ولا جاها ، وانما يتقرب الى الله به . وكان هذا الاهتمام بالأمور الداخلية جزءا يسيرا من السلطات والمسئوليات الجسيمة التى كان على المأمون أن يؤديها . كانت الفتن والثورات لا تنقطع . كما بينا فى حديثنا عن الأحوال السياسية فى عهده ــ وكان مضطرا الى خوض حروب كثيرة فى الداخل والخارج . ولم يكن خوضه هذه الحروب بدافع الرغبة فى اكتساب المجد والفخار ، أو توسيع حدود ســـــلطانه ونفوذه ، فقد كان المأمون بعيدا عن ذلك كله ، وكان يتمنى أن يوجه أموال الدولة كلها لخدمة الشعب ، لا أن ينفقها على الحروب ويبددها فى ساحات المعارك . ومن الحكم الدالة على اتجـــاهه هذا قوله : « أخر الحرب ما استطعت ، فان لم تجد منها بدا فاجعلها فى آخر النهار » . ويبدو أنها من الحكم الفارسية المنقولة التى كان المأمون يحفظ منها ما يوافق آراءه ويصادف هوى فى نفسه . وقد نفذ المأمون هذه الحكمة تنفيذا دقيقا ، فلم يكن يخوض غمار أى حرب مضطرا الا بعد أن يبذل مافى وسعه لتجنبها ، وأبلغ دليل على ذلك مفاوضته الدائمة لنصر بن شبث لتجنب القتال ، فلما استكبر نصر حاربه المأمون وانتصر عليه . كذلك نرى المأمون لا يندفع فى قتال الروم الا فى أخريات أيامه بسبب مساعدة الروم المستمرة لبابك الخرمى الذى كان المأمون يرى فى تجرده لقتاله تقربا الى الله واعزازا

لدينه لفداحة مايدعو اليه بابك من المروق عن الدين والاستهتار بكل القيم الانسانية والخلقية ٠

وجملة ما يقال في شخصية المأمون الحاكم أنها تتميز بالانسانية والتعقل فى كل تصرفاته ، وتبرأ من روح الانتقام والحقد والشهوة الى سفك الدماء ، فكما سلم عهد المأمون من استصفاء أموال الناس ونكبة الوزراء والوجهاء ، سلم كذلك من مشهد السيف والنطع الذى لم يكن يفارق كثيرا من الخلفاء الأمويين والعباسيين على السواء ، الا فى القليل النادر ٠ ويقول « ول ديورانت » ان المأمون لم ينج من الصفتين اللتين شانتا أخلاق هارون الرشيد ، فكان فى بعض الأحيان يستشيط غضبا مثله ، ويقسو كقسوته ، ولكنه كان بوجه عام لين العريكة هادىء الطباع ٠ وقد لايبرأ المأمون من تهمة الغضب، بل لا نكاد نبرىء منها أى انسان ، أما القسوة فهى شىء آخر لا نظن أن من الحكمة اتهام المأمون بها ، أو مقارنته بأبيه الرشيد فى هذا الصدد ، وان كان الأستاذ أحمد فريد رفاعى يميل الى الاعتراف بأن المأمون « كان يتصرف فى بعض الحوادث تصرف الجبـــابرة والقساة من أسلافه الذين أتوا من المنكرات ماسودوا به صحائف تاريخهم » ٠ ويضرب على سبيل المثال حادثة استعمل فيها المأمون (وحشية غريبة) ويقصد بها قتل المأمون الشاعر الأعمى الذى مدح أبا دلف وغالى فى مدحه واطرائه ، بينما كان أبودلف من قواد الأمين الذين أبوا أن يدخلوا فى طاعة المأمون ، ثم لم يلبث أن عفا عنه المأمون وقربه اليه ٠ الا أن حادثة كهذه لا يمكن أن تكون دليلا على قسوة المأمون لأنها حادثة مفردة لا تساوى شيئا الى جانب حوادث العفو الكثيرة التى كان فيها المأمون أكثر من نبيل ٠

أما موقف المأمون من على بن هشام الذى قتله شر قتلة ، وكان من بطانته المقربين منذ كان فى مرو ففيه دلالة على عظمة المأمون لا على قسوته ، عظمته كحاكم يقدر مسئوليته ويحرص على رعيته ويجعل مصلحتها فوق كل عاطفة أو مصلحة ٠ وقد روى لنـــا الطبرى فى حوادث سنة سبع عشرة ومائتين خبر قتل على بن هشام،

وهو يقول ان المأمون قتله بسبب سوء سيرته فى أهل عمله الذى كان المأمون ولاه — وكان ولاه كور الجبال — وقتله الرجال وأخذه الأموال . وقد أمر المأمون أن يكتب بيان يعلق على رأسه ليقرأه الناس جاء فيه : « أمابعد فان أمير المؤمنين كان دعا على بن هشام فيمن دعا من أهل خراسان أيام المخلوع الى معاونته والقيام بحقه، وكان فيمن أجاب وأسرع الاجابة ، وعاون فأحسن المعاونة . فرعى أمير المؤمنين ذلك له واصطنعه وهو يظن به تقوى الله وطاعته والانتهاء الى أمر أمير المؤمنين في عمل ان أسند اليه فى حسن السيرة وعفاف الطعمة . وبدأه أمير المؤمنين بالافضال عليه ، فولاه الأعمال السنية ووصله بالصلات الجزيلة التى أمر أمير المؤمنين بالنظر فى قدرها، فوجدها أكثر من خمسين ألف ألف درهم ، فمد يده الى الخيانة والتضييع لما استرعاه من الأمانة ، فباعده عنه وأقصاه ، ثم استقال أمير المؤمنين عثرته فأقاله اياها ، وولاه الجبل وأذربيجان وكور أرمينية ومحاربة أعداء الله الخرمية على أن لا يعود لما كان منه ، فعاود أكثر ما كان بتقديمه الدينار والدرهم على العمل لله ودينه ، وأساء السيرة وعسف الرعية وسفك الدماء المحرمة ، فوجـــد أمير المؤمنين عجيف بن عنبسة مباشرا لأمره ، وداعيا الى تلافى ما كان منه ، فوثب بعجيف يريد قتله ، ففدى الله عجيفا بنيته الصادقة فى طاعة أمير المؤمنين حتى دفعه عن نفسه ... فلما أمضى أمير المؤمنين حكم الله فى على بن هشام ، رأى أن لا يؤاخذ من خلفه بذنبه، فأمر أن يجرى لولده ولعياله ولمن اتصل بهم ، ومن كان يجرى عليهم مثل الذى كان جاريا لهم فى حياته » وهذا البيان الذى كتبه المأمون يعد بمثابة حيثيات حكم الاعدام الذى نفذه فى على بن هشام، وكان المأمون صريحا وواضحا فى سرد وقائع الاتهام وذكر حسنات الرجل ومساوئه التى طغت عليه ، وهو يكشف عن أخلاق رفيعة من حاكم يقدر ماضى رجل فيمنحه الفرصة بعد الفرصة ليصـــلح أخطاءه دون جدوى ، وكان أخطر مافى الموضوع .. وقد أشار اليه المأمون من طرف خفى — هو أن على بن هشام أراد خلع طاعة المأمون،

وحاول اللحاق ببابك الخرمى والانضمام اليه ، ولهذا وثب بعجيف ابن عنبسة كما قال المأمون • وعلى هذا استحق على بن هشام حكم الاعدام بسبب خيانته العظمى للدين والدولة على السواء ، ويرى المأمون — ومعه الحق كله — أنه لم ينفذ فى على بن هشام الا حكم الله ، بينما أبى — نبلا منه وكرما — أن يأخذ أبناء الرجل بجريرته، فأجرى عليهم الأرزاق كما كانت جارية فى حياة أبيهم •

وأما الشخص الثالث الذى ضاق عنه عفو المأمون وأمر بقتله فهو ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الامام المعروف بابن عائشة وهو من كبار العباسيين • وقد تزعم حركة خلع المأمون من الخلافة والمبايعة لعمه ابراهيم بن المهدى • فلما ظفر به المأمون سنة عشر ومائتين ، أمر أن يقام ثلاثة أيام فى الشمس ثم ضربه بالسياط وحبسه فى المطبق • واعترف بعد القبض عليه بأسماء الذين اشتركوا فى مؤامرة خلع المأمون ، ولكن المأمون رفض أن يتعرض لأحد ممن ذكرهم اذ لم يأمن أن يكون قد قذف قوما أبرياء• وكان من الممكن أن ينتهى عقاب المأمون لابن عائشة ومن معه عند هذا الحد ، ولكن تطور الأمر بعد قيامهم بحركة تمرد وعصيان فى سجنهم ، يقول فى ذلك الطبرى (رفع أهل المطبق أنهم يريدون أن يشغبوا وينقبوا السجن ، وكانوا قبل ذلك بيوم قد سدوا باب السجن من داخل ، فلم يدعوا أحدا يدخل عليهم ، فلما كان الليل وسمعوا شغبهم بلغ المأمون خبرهم ، فركب اليهم من ساعته بنفسه، فدعا بهؤلاء الأربعة (١) فضرب أعناقهم صبرا ، وأسمعه ابن عائشة شتما قبيحا) فهناك اذن أكثر من سبب يدعو الى قتل ابن عائشة ومن معه من رؤوس الفتنة ، فبالاضافة الى عدائه السابق للمأمون وخلعه اياه يريد أن يقوم بحركة تمرد وعصيان فى السجن ، فكأنه لم يعلن توبته ، ولايزال على عدائه للخليفة ، بدليل شتمه المأمون شتما قبيحا كما يقول الطبرى •

(١) هم ابن عائشة ومحمد بن ابراهيم الافريقى ومالك بن شاهى وفرج البغدادى •

وفيما عدا هؤلاء الثلاثة لا نكاد نعثر فى أخبار المأمون أنه قتل غيرهم ، الا من كان ذا جريمة تدعو الى القصاص • وحتى هؤلاء الثلاثة ـ كما رأينا ـ لا يخلون من جرائم فى حق الدولة أو الدين أو المأمون نفسه •

أما عن عفو المأمون وتسامحه فنستطيع أن نتحدث عنه الكثير مما يدل على أصالة العفو فى نفسه ، ورحابة صدره وغفرانه لمن يؤذيه أو يناله بالسوء • وغاية ما يقال فى هــذا أن المأمون كان يتهاون فى حق نفسه ، ولكنه لم يتهاون فى حق الدين أو الدولة ، كما يتضح لنا فى تشدده مع ابن عائشة وعلى بن هشام • ويتحدث المأمون عن مذهبه فى العفو فيقول : أنا والله ألذ العفو حتى أخاف أن لا أؤجر عليه ، ولو علم الناس مقدار محبتى للعفو لتقربوا الى بالذنوب • ويقول أيضا : لوددت أن أهل الجرائم عرفوا رأيى فى العفو ليذهب عنهم الخوف ويخلص السرور الى قلوبهم •

وقد يستبد الغضب بالمأمون فيخرج عن لينه ورفقه ، ولكنه لا يلبث أن يثوب الى نفسه • ومما يروى فى هذا الصدد أن رجلا ارتكب جناية وقف بين يدى المأمون ، فثار غضب المأمون عليه وقال: والله لأقتلنك ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، تأن فان الرفق نصف العفو ، قال المأمون : وكيف وقد حلفت لأقتلنك ، فقـــال الرجل : لأن تلقى الله حانثا خيرا من أن تلقاه قاتلا ، فخلى سبيله •

ولو أن العفو لم يكن صفة انسانية نبيلة فى نفس المأمون لأخذ كل رؤوس الفتنة التى انتهت بخلعه وتعيين عمه ابراهيم بن المهدى خليفة بمنتهى القسوة والعنف ، ولكنه عفا عنهم جميعا الا ابن عائشة وثلاثة معه للسبب الذى ذكرناه • لقد عفا عن عيسى بن خالد ، وهو يصف لنـــا جرمه فيقول : طرد خليفتى من مدينتى ومدينة آبائى ، وذهب بخراجى وفيئى ، وأخرب على ديارى ، وأقعد ابراهيم خليفة دونى ودعاه باسمى • بل عفا عن ابراهيم بن المهدى نفسه مما جعل لسانه ينطلق بمدحه والاشادة بعفوه •

وعفا عن الفضل بن الربيع الذى كان سبب مأساة الحرب بينه

وبين أخيه الأمين ، فحين دخل المأمون بغداد لجأ الفضل الى طاهر ابن الحسين فأدخله على المأمون جاسرا ، لاسيف عليه ولا طيلسان ولا قلنسوة ، فلما توسط الدار ، وثب المأمون عن عرشه فصلى ركعتين ثم التفت اليه قبل أن يسلم عليه بالخلافة فقال : أتدرى لم صليت يافضل ؟ فقال : لا يا أمير المؤمنين ، قال : شكرا لله اذ رزقنى العفو عنك . وحتى ابن رحيم المدنى الذى كان يصعد المنبر ولا يدع من قول القبيح شيئا الا شتم به المأمون عفا عنه ولم يمسسه بسوء .

وتقترن بصفة العفو فى شخص المأمون الانسان صفة الحلم ، ومما يروى فى ذلك أن بشر بن الوليد قال للمأمون يوما : ان بشرا المريس يشتمك ويعرض بك ويزرى عليك ، فقال : فما أصنع به ؟ ثم دس المأمون رجلا فحضر مجلسه ، وتسمع ما يقول ، فأتاه الرجل يوما فقال : سمعته يقول حين أراد القيام وفرغ من الكلام بعد حمد الله والثناء عليه : اللهم العن الظلمة وأبناء الظلمة من آل مروان ، ومن سخطت عليه ممن آثر هواه على كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم ، اللهم وصاحب البرذون الأشهب فالعنه . فقال المأمون: أنا صاحب البرذون الأشهب ، وسكت عليها . فلما دخل عليه بشر، قال له : يا أبا عبد الرحمن متى عهدك بلعن صاحب البرذون الأشهب ؟ فطأطأ بشر رأسه ، ثم لم يعد بعد ذلك الى ذكره والتعرض له .

وكانت أم جعفر عند المأمون فأمر خدمه بشيئين لم يعملا ، فاستنكرت ذلك فقال لها المأمون : لا معنى لعقوبة بعد قدرة ، الحلم عن الذنب أبلغ من الأخذ به .

وهذه الحكمة الصائبة لم يخرج عليها المأمون قط فيما وصلنا من أخباره ، فكان مع خدمه لينا رفيقا الى حد اغرائهم بالتهجم عليه . ويروى ابن طيفور فى ذلك رواية أعتقد بصحتها برغم المبالغة فيها لأنها تمثل المبالغة فى حلم المأمون نفسه ، قال : كان للمأمون خادم يتولى وضوءه ، فكان يسرق أطساته فبلغ ذلك المأمون فعاتبه ، ثم

قال له يوما وهو يوضيه : ويحك لم تسرق هذه الطست ، لو كنت اذ سرقتها أتيتني بها اشتريتها منك ، قال : فاشتر هذا الذى بين يديك ، قال : بكم ؟ قال : بدينارين قال المأمون : أعطوه دينارين ، قال : هذا الآن فى الأمان ؟ قال : نعم ٠

وحدث جعفر ابن أخت العباس وقد ذكر حلم المأمون فقال : لحلمـــــه والله أرجح من حلوم ألف كلهم حليم ، ليس فيهم ملك ولا خليفة ، ثم قال : دخلت عليه أمس ، واذا يده معلقة من شيء رطب أكله قد مسته النار وهو يصيح : يا غلام ! وكلهم يسمع صوته فما منهم أحد يجيبه ، فخرجت اليهم وأنا أفور غضبا ، فاذا بعضهم يلعب بالكعاب ، وبعض يلعب بالشـــطرنج ، وبعض يهارش بين الديوك ٠ فقلت : يابنى الفواعل أما تسمعون أمير المؤمنين يدعوكم؟ فقال واحد : حتى أقيس هذا الكعب وأجيء ، وقال الآخر : قد بقيت لى على هذا ضربة ، وقال آخر : اذهب فانى أتبعك ، فما علمت ماكنت أخاطب به من الغيظ والحنق عليهم ، قال : فاذا المأمون قد صوت بى وأنا أقذف أمهاتهم ، فأتيته وهو يضحك ، فقال : ارفق بهم فانهم بشر مثلك ، قلت : والعق أنت يدك ، فضحك وقال : هذا معاشرتك خدمك ؟ قلت : والله لو فعل بى ابنى هذا دون خدمى لقتلته ، قال : هذه أخلاق السوقة ، وأخلاقنا أخلاق الملوك ، قلت: لا والله ما هذه أخلاق الملوك ولا أخلاق الأنبياء أيضا ٠

ومثل هذه الروايات التى تصور حلم المأمون ورفقه بالضعفاء وخاصة خدمه نجد الكثير فى المصادر المختلفة ٠ ومن بين هــــذه الروايات ما ذكره عبد الله بن طاهر قال : كنت عند المأمون فنادى بالخادم : يا غلام ، فلم يجبه أحد ، ثم نادى ثانيا وصاح : يا غلام، فدخل غلام تركى وهو يقول : ما ينبغى للغلام أن يأكل ولا يشرب، كلما خرجنا من عندك تصيح : يا غلام يا غلام ، الى كم يا غلام ؟ فنكس المأمون رأسه طويلا ، فما شككت أن يأمرنى بضرب عنقه ، ثم نظر الى وقال : يا عبد الله ان الرجل اذا حسنت أخلاقه ، ساءت

أخلاق خدمه، واذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه ، وانا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتتحسن أخلاق خدمنا !

وهذه الجرأة من خدم المأمون عليه لا يقابلها عسف ولاجور ، وانما يذهب المأمون فى ذلك مذهب الحلم الجميل والعفو منهم ، مؤكدا قوله : لامعنى لعقوبة بعد قدرة . وكثيرا ما كان المأمون يقوم بنفسه لأداء الخدمة التى يريدها ، فقد روى أبو الصلت عبد السلام ابن صالح قال : بت عند المأمون ليلة ، فنام القيم الذى كان يصلح السراج ، فقام المأمون وأصلحه ، وسمعته يقول : ربما أكون فى المتوضأ فيشتمنى الخدام ويفترون على ولا يدرون أنى أسـمع فأعفو عنهم .

ولا أعرف أحدا من العظماء وصل حلمه الى هذا المدى ، حتى ان واحدا من بطانته كان يقول ان المأمون يحلم حتى يغيظه حلمه . وروى فى ذلك أنه كان على شاطىء دجلة فمر ملاح وهو يقول : أتظنون أن هذا المأمون ينبل فى عينى وقد قتل أخاه ؟ فما زاد المأمون على أن تبسم وقال لنا : ما الحيلة عندكم حتى أنبل فى عين هذا الرجل الجليل ؟ وشبيه بهذا أيضا رواية المأمون مع أبى كامل طباخه، فقد أمره المأمون أن يعد صنفا بعينه لغداء اليوم التالى ، ودعا ضيوفا لمشاركته طعامه ، فلما جاء الضيوف ودعا المأمون بما طلبه من الطعام قال الطباخ انه قد نسى ، فلم يزد على قوله : أحب أن لاتنسى .

وهذا الحلم الواسع كما يقترن بروح السماحة والعفو فى شخصية المأمون يقترن بفضيلة التواضع أيضا ، فهو يتواضع بكل من يعرفه تواضعا جميلا ، ينسى سلطانه وخلافته ، ويذكر المرء بأنه انسان نبيل فحسب . يتصف بالبساطة والسمو والحساسية المفرطة التى لا تحب ايذاء شعور انسان ما . بات عنده قاضيه يحيى بن أكثم فأخذه سعال ، فرآه يحيى وهو يسد فمه بكم قميصه حتى لا يتنبه، وكان يحيى يماشيه يوما فى بستان فكان فى الجانب الذى يستره من الشمس ، فلما انتهى الى آخره وأراد الرجوع ، أراد يحيى أن يدور الى الجانب الذى يستره من الشمس فقال : لا تفعل ولكن

كن بحالك حتى أسترك كما سترتنى • ونام يحيى بن خالد عند المأمون فعطش فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه ويحيى نائم حتى لا يوقظه ، وقام يمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء فأخذ منه كوزا فشرب ثم رجع يمشى على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذى ينام عليه يحيى فخطا خطوات خائف لئلا ينبهه حتى صار الى فراشه • بل نرى المأمون يقوم لاحضار ماء ليحيى بن أكثم وكان ضيفا عنده ، فلما استهول ذلك يحيى قال له المأمون : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سيد القوم خادمهم •

ودخل أبو طالب صاحب الطعام على المأمون ـ وكان من أسخف الناس وأجهلهم ـ فقال للمأمون : كان أبوك يابا صديقنا ، وأنت يابا لا تعرف حقنا ، ولا ترفع بنا رأسا ، ونحن يابا جيرانك .. وهكذا والمأمون يطرق مايرد عليه شيئا ولا يزيده على التبسم • وليس معنى ذلك كله أن المأمون كان ضعيف الشخصية مع خدمه أو خاصته ، بل كان قويا قادرا يستطيع أن يرد الرجل الى مكانه فى أى وقت يشاء • دخل عليه مخارق المغنى وكان ينادم المأمون على الشراب ، فرأى المأمون يأكل ، فدعاه الى الطعام ، فأقبل مخارق على مشاركة المأمون فى طعامه ، فحجبه عنه شهرا كاملا ، ثم أذن له فدخل عليه وهو يتغدى أيضا ، فدعاه الى الطعام فأبى مخارق وقال: لا والله لا أعود لمثلها أبدا • فضحك المأمون ثم قال له : ويلك أظننت بى بخلا على الطعام ؟ لا والله ولكنى أردت تأديبك لمن بعدى • لأن الملوك والخلفاء لا يؤاكلها خدمها ، وأخاف أن تتعود هذا من غيرى فلا يحتملك عليه ، فتعال الآن فكل فى أمان •

وفضيلة التواضع التى هى مركوزة فى نفس المأمون تجعله يأبى أن يتصف بخصلة ليست له ، ولو كانت من باب الاعظام أو المجاملة ، بات عنده يحيى بن أكثم ليلة فانتبه المأمون فقال : يا يحيى انظر ايش عند رجلى ؟ فنظر يحيى فلم ير شيئا ، فطلب المأمون شمعة فأتى بها الفراشون فقال : انظروا ، فنظروا فاذا تحت فراشه حية بطوله ، فقتلوها ، فقال يحيى : قد انضاف الى كمال

أمير المؤمنين علم الغيب · فقال المأمون : معاذ الله ، ولكن هتف بى هاتف الساعة وأنا نائم فقال :

يا راقد الليـــل انتبـه ان الخطوب لهـــا سرى
ثقـــة الفتى بزمانـــه ثقـــة محـــللة العـــرى

فانتبهت فعلمت أن قد حدث أمر اما قريب واما بعيد ، فتأملت ما قرب فكان ما رأيت ·

وبسبب تواضع المأمون أيضا لانراه يلج فى خطأ يعلم أنه خطأ، أو يضيق صدره بمن يرده فى شىء بل يتقبله ويفهم وجه الصـــواب فيه · روى مرة حديثا عن رسول الله يقول فيه : « اذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز » · فنطق لفظ سداد بالفتح ، وكان فى مجلسه النضر بن شميل فأعاد الحديث ناطقـا لفظ سداد بالكسر ، وكان المأمون متكئا فاستوى جالسا وقال : السداد لحن يانضر ؟ فقال : نعم ، قال المأمون : ما الفرق بينهما ! قال النضر : السداد بالفتح القصد فى السبيل والسداد بالكسر كل ما سددت به شيئا · وطلب المأمون شاهدا من أقوال العرب فتمثل النضر ببيت من الشعر ، فأطرق المأمون مليا ثم قال : قبح الله من لا أدب له ، يعنى نفسه يلومها على خطئه ·

ومع مايبدو من لين جانب المأمون الا أننا نراه قويا فى مجاهدة نفسه ، لا يضعف أمام لذة ، ولا يتمالك على الشهوات · وقد رأينا ذلك فى شخصيته منذ كان طفلا وشابا ، فهو لا تستهويه مغريات عصره على كثرتها ، ومع قدرته على التنعم بأعظم مافيها · بل نراه يحاسب نفسه على أبسط الأمور ، فقد أعجب اعجابا شديدا بفص ياقوت ولكنه لم يسمح لنفسه بالخضوع لهواه ، فرد الفص لصاحبه، وقال : والله لأضعن من قدر هذه الحجارة التى لا معنى لها · وكان اذا غنى بالصوت يشتهيه استعاده ولم يسمع غيره ، واذا اشتهى من الطعام صنفا أكله ولم يأكل غيره · ولاشك أن هذه النزعة العملية فى شخصية المأمون مردها اقباله على الفلسفة والعلوم العقلية التى جعلته يقيس الأشياء بقيمتها الحقيقية · وبهذا نراه أيضا لا ينفعل

بالأقوال قط ، كما فى حديثه للواعظ الذى أصغى اليه منصتا ، فلما فرغ قال له : قد سمعت موعظتك فأسأل الله أن ينفعنا بها وبما علمنا، غير أنا أحوج الى المعاونة بالفعال منا الى المعاونة بالمقال ، فقد كثر القائلون وقل الفاعلون • وليس معنى ذلك أن المأمون لم يأخذ قط نصيبه من الدنيا أو يسمح لنفسه بقدر من التمتع لايرى فيه خروجا على جادة الدين أو المبادىء والمثل التى يأخذ بها نفسه • كان يحب أن يتفكه مع خاصته يعابثهم ويتقبل عبثهم ، كما رأينا فى سخريته من ضخامة جثة عمه ابراهيم بن المهدى وسواد لونه ، وكما يروى ابن طيفور عن شخص اسمه أبو عيسى كان مشهورا بالعبث • وكان المأمون يتقبل منه معابثاته بصدر رحب •

وكان كما ذكرنا من قبل - يحب أن يروح عن نفسه من عناء مسئولياته ومن جهد مجالسه العلمية بلعب الشطرنج ويقول عنه انه يشحذ الذهن •

أما ملهيات عصره من شراب وغناء فقد كان المأمون يشرب النبيذ على مذهب العراقيين طبقا لما ارتآه أبو حنيفة الذى لم يكن يعد النبيذ خمرا وكان يجوز شربه ويقول صاحب كتاب « التاج فى أخلاق الملوك » ان المأمون كان فى أول أيامه يشرب الثلاثاء والجمعة ، ثم أدمن الشراب عند خروجه الى الشام فى سنة خمس عشرة ومائتين الى أن توفى • الا أننا نشك فى هذه الرواية ، ولانرى من واقع حياة المأمون ودراستنا لشخصيته ما يجعله يصل الى مرحلة الادمان • ولو كان شرابه النبيذ الذى حلله بعض الفقهاء •

وأما الغناء فكان المأمون الشاعر الرقيق الاحساس من عشاقه بطبيعة الحال ، ويذكر الجاحظ أن المأمون ظل بعد عودته الى بغداد نحو عامين لم يسمع حرفا من الغناء اذ كان مشغولا فيما يبدو بتدبير أمور الدولة ومواجهة الفتن والاضطرابات التى كادت تعصف بسلطانه • ثم سمع الغناء من وراء حجاب متشبها بالرشيد ، وظل كذلك سبع سنوات ، ثم ظهر للندماء والمغنين •

وقد شهد عصر المأمون أعظم المغنين والموسيقيين : كان فيه علويه

ومخارق واسحق الموصلي وابراهيم بن المهدى وعمرو بن بانة وبذل الجارية وعريب ومن اليهم ، وكان المأمون يستجيد الأصوات والألحان وينفذ اليها بعمق ويطرب لها وهو يشرب النبيذ غالبا ، دون أن يخرج عن طوره أو يخلع عذاره ٠

وأما عن علاقة المأمون بالنساء ، فلم نر فى أخباره مايدل على أى نوع من الغرابة أو الشذوذ فى هذه العلاقة ، ويبدو أنه لم يتزوج من الحرائر غير أم عيسى ابنة عمه موسى الهادى وقد أنجب منهـــا ولدين كما سبق أن ذكرنا ، أما بقية أولاده الذين يبلغون أربعة عشر ذكرا ــ غير ولديه من أم عيسى ــ وبناته اللائى لا نعرف عددهن فقد أنجبهم من أمهات أولاد ٠

وكان المأمون فى اختياره الجوارى حريصا على معرفة عقـــل الجارية قبل رؤية جمالها ، حكى أحد النخاسين قال : عرضت على المأمون جارية شاعرة فصيحة متأدبة شطرنجية (أى تحسن لعبة الشطرنج) فساومته فى ثمنها بألفي دينار ، فقال المأمون ان هى أجازت بيتا أقوله ببيت من عندها اشتريتها بما تقول وزدتك ٠ فكأنه يقدم على الجمال معرفة الجارية بالأدب وحسن فهمهـــا له وتجاوبها معه ٠

ولعل قصة الحب الوحيدة أو مايشبه أن تكون قصة حب فى حياة المأمون ما يروونه عن علاقته بعريب الجارية ، فابن المعتز يروى أن المأمون كان يعشقها وهى عند مولاها ، وكانت من أجمل النساء وجها كما يقول ابن طيفور ، وصوتها من أعذب الأصوات فى عصرها على كثرة من فيه من المغنين ــ ويبدو أن المأمون استطاع أن يشتريها، ولكنه لم يستطع أن يشترى قلبها اذ كان معلقا بحب آخر هو محمد (أو جعفر) بن حامد الذى كانت تواصله خفية حتى انها كانت تتدلى فى زبيل الى جانب القصر ثم تصعد مرة أخرى ، بينما وضعت على فراشها مثال رخام تحت الغطاء بحيث يحسب من رآه من بعيد أنها نائمة ٠ ويقول السيوطى ان المأمون اكتشف هذه العلاقة بين جاريته وعشيقها ــ ويبدو أنه كان واحدا من بطانته ــ فلم تأخذه الغيرة بحيث

ينتقد غضبه ، بل زوجهما فى الحال ومهرها عن حبيبها أربعمائة درهم .

ويبدو أن المأمون كان مستقرا فى حياته العائلية ، مهتما بتربية أولاده وتثقيفهم ، وتلقينهم مكارم الأخلاق التى تعجبه ، وقد رأينا من قبل كيف كان يلوم أحدهم على خطئه فى النحو ، كما عنف العباس ابنه على ظلمه للمرأة التى شكته . وكان يجزع برقة احساسه وجميل عطفه وأبوته على من يمرض من أولاده حتى ليتوسل بآثار النبى طلبا للبركة والشفاء ـ كما سبق أن ذكرنا ـ وحين ماتت ابنة له حزن عليها حزنا شديدا ، وقعد للناس يلتمس عزاءهم يخفف عما بنفسه ، يقول ابن طيفور فى ذلك : وأصيب المأمون بابنة له وهو يجد بها وجدا شديدا ، فجلس للناس وأمر أن لا يمنع منه أحد ، وأن يثبت عن كل رجل مقالته ، فدخل اليه فيمن دخل ابراهيم بن المهدى فقال : يا أمير المؤمنين ، كل مصيبة تعدتك شوى اذ كنت المنتقم من الأعداء ، ولك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، فانه عزى عن ابنته رقية فقال : موت البنات من المكرمات ، فأمر له المأمون بمائة ألف درهم وأمر أن لا يكتب شئ بعد تعزيته . وكأن نفسه قد استراحت وهدأت بما سمعه من حديث رسول الله ، فكان جلاء لحزنه .

أما زواج المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل فكان زواجا سياسيا لاشك فيه ، اذ أراد المأمون أن يوثق علاقته بآل سهل ليضمن دوام ولاء الفرس له ، ويعطف قلوبهم نحوه . ويتضح لنا هذا الدافع من عقد المأمون على بوران فى سنة ٢٠٢ هـ . بعد مقتل الفضل بن سهل مباشرة ـ وكانت سنها اذ ذاك لاتزيد على عشر سنين ، وكأن المأمون خاف انتقاض الفرس عليه فأراد استمالتهم بهذه الرابطة الجديدة التى يؤكد بها خئولتهم السابقة له . وانتظر المأمون حتى عام ٢١٠ هـ ليدخل على بوران وكأنه كان مترددا فى اتمام هذا الزواج ، ثم لم يجد بأسا من اتمامه استمرارا لوجود الدافع الذى كان وراءه .

وكان عرس بوران حدثا اجتماعيا تاريخيا لكثرة ما أنفق عليه وما أحاط به من مظاهر الفخامة والروعة والثراء • وكأنى بالفرس قد أرادوا أن يظهروا قوتهم وضخامة ثرائهم ، فلم يجدوا فرصة أنسب من هذا الزواج التاريخى لاظهار ما يريدون • وقد روى لنا الطبرى صورة لمراسم هذا الزواج فقال : أخذ المأمون معه ابراهيم ابن المهدى من بغداد شاخصا الى فم الصلح - حيث معسكر الحسن ابن سهل - راكبا زورقا حتى أرسى على باب الحسن • وكان العباس بن المأمون قد تقدم أباه على الظهر ، فتلقاه الحسن خارج عسكره فى موضع قد اتخذ له على شاطىء دجلة ، بنى له فيه جوسق ••• ووافى المأمون وقت العشاء فى شهر رمضان فأفطر هو والحسن والعباس ودينار بن عبد الله قائم على رجله حتى فرغوا من الافطار وغسلوا أيديهم ، فدعا المأمون بشراب فأتى بجام ذهب فصب فيه ، وشرب ، ومد يده بجام فيه شراب الى الحسن فتباطأ عنه الحسن لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك ، فغمز دينار ابن عبد الله الحسن فقال له الحسن : يا أمير المؤمنين أشربه باذنك وأمرك ، فقال له المأمون : لولا أمرى لم أمدد يدى اليك ، فأخذ الجام فشربه • فلما كان فى الليلة الثانية جمع بين محمد بن الحسن ابن سهل والعباسة بنت الفضل ذى الرئاستين ، فلما كان فى الليلة الثالثة دخل على بوران وعندها حمدونة وأم جعفر وجدتها ، فلما جلس المأمون معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت فى صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع وسألها عن عدد ذلك الدر كم هو ، فقالت ألف حبة ، فأمر بعدها فنقصت عشرا ، فقال : من أخذها منكم فليردها ، فقالوا : حسين زجلة ، فأمره بردها ، فقال: يا أمير المؤمنين انما نثر لنأخذه ، قال : ردها فانى أخلفها عليك ، فردها • وجمع المأمون ذلك الدر فى الآنية كما كان ، فوضع فى حجرها وقال : هذه نحلتك وسمى حوائجك • فأمسكت ، فقالت لها جدتها : كلمى سيدك وسليه حوائجك فقد أمرك • فسألته الرضا عن ابراهيم بن المهدى فقال : قد فعلت ، وسألته الاذن لأم جعفر

فى الحج فأذن لها . وابتنى بها فى ليلته ، وأوقد فى تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون مسنا فى نور ذهب ، فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال : هذا سرف ... وذكر أن المأمون أقام عند الحسن بن سهل سبعة عشر يوما يعد له فى كل يوم لجميع من معه كل ما يحتاج اليه، وأن الحسن خلع على القوادعلى مراتبهم وحملهم ووصلهم ، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم . وأمر المأمون غسان ابن عباد عند منصرفه أن يدفع الى الحسن عشرة آلاف ألف من مال فارس وأقطعه الصلح ، فجلس الحسن وفرق المال الذى أعطاه له المأمون فى قواده وأصحابه وحشمه وخدمه . ويقال ان الحسن كتب رقاعا فيها أسماء ضياعه ونثرها على القواد وعلى بنى هاشم فمن وقعت فى يده رقعة منها فيها اسم ضيعة بعث فتسلمها (١) .

وهكذا دخل زواج المأمون ببوران التاريخ اذ يعتبر من الأعراس المعــــدودة على مدى الزمن لكثرة ما أنفق فيه من مال يبلغ ملايين الدراهم . ولم يكن المأمون يتوقع من الحسن بن سهل هذا الاسراف الشديد ـ كما يتبين لنا من حديث له ـ ولكن الحسن ـ كما ذكرت ـ كان يعتبر هذا الزواج تتويجا لعلاقة الفرس بالعرب وايذانا بعودة مجد الفرس ، ولعله كان يتمنى أن يعقب هذا الزواج ولدا تكون له الخلافة فى يوم من الأيام ، أو يحاول الفرس أن يجعلوا له الخلافة ، ولكننا لا نظن أن المأمون قد أنجب من بوران ، أو على الأقل لم ينجب منها ذكرا ، والا أشارت الى ذلك المصادر التاريخية .

ومما تقدم يتبين لنا أن المأمون لم يكن يستسلم كثيرا لعواطفه أو لمغريات عصره ، وأن شخص الخليفة فيه والانسان اجتمعـــا وامتزجا بحيث لم يعد فى المستطاع فصل الشخصيتين بحيث يقال المأمون الحاكم والمأمون الانسان . هنا مأمون واحد ركزت فيه كل

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧١ حوادث سنة ٢١٠ هـ والمسن ميزان قدر رطلين والنور اناء .

الصفات النبيلة التيذكرناها، فيه التواضع والحلم والسماحة والعفو، فيه الرحمة حتى لأعدائه . فحينما فتح المأمون حصن قرة بأرض الروم وغنم مافيه اشترى السبى بستة وخمسين ألف دينـــــار ثم خلى سبيلهم وأعطاهم دينارا دينـــارا وكان طوال حربه فى بلاد الروم يعتق الشيوخ ويحمى العجائز • والى جانب هذه الصفات الانسانية كان شجاعا في مواجهة الواقع ، صادقا في وعده لا يتلون ولا يتبدل، ويكفى أنه حافظ على الوعود التى قطعها للناس فى أول خطبة له بعد توليه الخلافة ، فلم يحد عنها قط • يضاف الى ذلك كله أنه كان شاعرا رقيق الحس ، وكان عالما متفقها في الدين ، وفيلسوفا متكلما يستند الى الحجة ويقنع بالدليل والمنطق •

ولعل نوع الحياة التى عاشها المأمون بكل مافيها من ثورات وحروب وفتن ، وبكل ما فيها من جد خالص واقبال على العلم ، وافناء النفس في سبيل رعاية مصالح الناس أجمعين قد جعلت الشيب يسرع الى رأسه ، فبدا سمته مهيبا بعد أن نضجت رجولته، واستطالت له لحية رقيقة • وربما كان شيبه المبكر نتيجة عامل الوراثة ، اذ اتصف الرشيد بمثل ما اتصف به المأمون في ذلك • ثم كانت حياته بكل مافيها من أحداث حياة عريضة ولكنها قصيرة ، كان قد خرج لحرب الروم فنزل على عين البدندون فأعجبه برد مائها وصفاؤه ، وطيب الموضع وكثرة مافيه من خضرة موفقة ، ورأى فى العين سمكة كأنها سبيكة فضة ، فأعجبته فلم يقدر أحد أن ينزل فى العين لشدة بردها ، فجعل لمن يأتيه بالسمكة جائزة فاصطادها أحد أتباعه وخرج بها ، ولكن ما لبثت السمكة أن اضطربت فى يده وفرت الى الماء فتنضح صدر المأمون ونحره وابتل ثوبه ، ومالبث أن أصابته رعدة ، فأوقدت حوله نار ، وسأل عن معنى البدندون فقيل له : ان ترجمتها « مد رجليك » فتطير بالمكان ، وكأنما شعر بدنو أجله فقال : يامن لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه • وانطفأت حياة المأمون فى يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب

سنة ثماني عشرة ومائتين . وكأني به كان يردد لنفسه الأبيات التي طالما كان يعجب بها وينشدها في حياته :

ومن لايزال عرضـــا للمنون يتركنــه ذات يوم عميـــدا
فان هن أخطـأنه مــرة فيوشــك مخطئها أن يعودا
فبينــا يحيــد وتخطينــه قصـــدن فأعجلنــه أن يحيدا

فهرس المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

١ ـ اخبار العلماء بأخبار الحكماء ... ... للقفطى

٢ ـ الأخبار الطوال ... ... لابى حنيفة الدينورى

٣ ـ أشعار أولاد الخلفاء ... . لابى بكر الصولى

٤ ـ أشعار الخليع الحسين بن الضحاك جمع وتحقيق عبد الستار فراج

٥ ـ الاغانى ... ... لابى الفرج الاصفهانى

٦ ـ الأمالى ... ... لابى على القالى

٧ ـ الامامة والسياسة ... ... لابن قتيبة

٨ ـ التاج فى أخلاق الملوك ... ... للجاحظ

٩ ـ تاريخ ابن خلدون ... ...

١٠ ـ تاريخ بغداد ... ... للخطيب البغدادى

١١ ـ تاريخ الخلفاء وامراء المؤرخين ... لجلال الدين السيوطى

١٢ ـ تاريخ الطبـرى ... ...

١٣ ـ تاريخ اليعقوبى ... ... نشر المكتبة المرتضوية فى النجف

١٤ ـ التنبيه والاشراف ... ... للمسعودى

١٥ ـ دول الاسلام ... ... للحافظ الذهبى

١٦ ـ ديوان ابراهيم الصولى ... . (مجموعة الطرائف الأدبية)

١٧ ـ زهر الآداب وثمر الألباب ... ... لابى اسحق الحصرى القيروانى

١٨ ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ... لابن العماد الحنبلى

١٩ ـ طبقات الشعراء ... ... لابن المعتز

٢٠ ـ العقد الفريد ... ... لابن عبد ربه

٢١ ـ عيون الأخبار ... ... لابن قتيبة

٢٢ ـ الفخرى فى الآداب السلطانية ... ... لمحمد بن على بن طباطبا
٢٣ ـ الفرق بين الفرق ... ... لعبد القاهر البغدادى
٢٤ ـ الكامل فى التاريخ ... ... لأبى الحسن بن الأثير الجزرى
٢٥ ـ كتاب بغداد ... ... لأحمد بن أبى طاهر طيفور
٢٦ ـ مروج الذهب ... ... للمسعودى
٢٧ ـ المعارف ... ... لابن قتيبة الدنيورى
٢٨ ـ مقاتل الطالبيين ... ... لأبى الفرج الاصفهانى
٢٩ ـ الملل والنحل ... ... للشهرستانى
٣٠ ـ النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس لابن دحية الكلبى
٣١ ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
٣٢ ـ نهاية الأرب ... ... للنويرى
٣٣ ـ الوزراء والكتاب .... للجهشيارى
٣٤ ـ وفيات الأعيان ... ... لابن خلكان

ثانيا : كتب أخرى :

٣٥ ـ أبو تمام حياته وحياة شعره ... ... نجيب محمد البهبيتى
٣٦ ـ أبو تمام ... ... عمر فروخ
٣٧ ـ اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ... . محمد مصطفى هدارة
٣٨ ـ أحمد بن حنبل والمحنة ... . ولتر باتون
٣٩ ـ أدب المعتزلة ... ... عبد الحكيم بلبع
٤٠ ـ أسباب اختلاف الفقهاء ... . على الخفيف
٤١ ـ الاسلام والحضارة العربية ... ... محمد كرد على
٤٢ ـ بغداد فى عهد الخلافة العباسية ... لى سترانج
٤٣ ـ بلدان الخلافة الشرقية ... ... لى سترانج
٤٤ ـ تاريخ التمدن الاسلامى ... . جورجى زيدان
٤٥ ـ تاريخ الجهمية والمعتزلة ... . جمال الدين القاسمى الدمشقى

٤٦ ــ تاريخ الحضارة الاسلامية ... ... كارل بروكلمن
٤٧ ــ تاريخ الشعر العربي حتى نهـــاية
القرن الثالث ... ... نجيب البهبيتى
٤٨ ــ تاريخ الشعوب الاسلامية ... ... كارل بروكلمن
٤٩ ــ تاريخ العرب ... ... فيليب متى
٥٠ ــ تاريخ الفلسفة فى الاسلام .. ... دى بور
٥١ ــ تاريخ الولاة والقضاة فى مصر... ... لمحمد بن يوسف الكندى
٥٢ ــ تراث الاسلام ... ...
٥٣ ــ الجاحظ حياته وآثاره ... ... طه الحاجرى
٥٤ ــ حضارة الاسلام ... ... فون جرونباوم
٥٥ ــ الحضارة الاســلامية ... ... فون كريمر
٥٦ ــ دائرة المعارف الاسلامية ... ...
٥٧ ــ دراسات اسلامية ... ... مجموعة باحثين
٥٨ ــ الصراع بين الموالى والعرب ... ... محمد بديع شريف
٥٩ ــ ضحى الاســلام ... ... أحمد أمين
٦٠ ــ العصر العباسى الأول ... ... عبد العزيز الدورى
٦١ ــ عصر المأمون ... ... أحمد فريد رفاعى
٦٢ ــ العقيدة والشريعة فى الاسلام ... ... جولد زيهر
٦٣ ــ العلم عند العرب ... ... ألدو ميللى
٦٤ ــ الفكر العــربى ومكانه فى التاريخ ... ديلاس آوليرى
٦٥ ــ قصة الحضارة ... ... ول ديورانت
٦٦ ــ محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية... محمد الخضرى
٦٧ ــ مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب دبلاس أوليرى
٦٨ ــ مناهج العلمـاء المسلمين فى البحث
العلمى ... ... روزنتال
٦٩ ــ من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام بندلى جندى

فهرس الموضوعات